الفردوس الأرضي

عبد الوهاب المسيري



الفردوس الأرضي

عبد الوهاب المسيري

نُشر هذا الكتاب مرّة واحدة عام ١٩٧٨م في بيروت، ولم يُنشر ثانية، برغم أهميته الفائقة في إلقاء الضوء على مرحلة فارقة في حياة مؤلّفه العلّامة، وتطوّره الفكري. فهذا الكتيّب عظيم القيمة، برغم صغر حجمه؛ يطوي كُلّ مقولاته الرئيسة التي بُني عليها مشروعه الفكري العملاق، الذي تتلمذ عليه جيلٌ كاملٌ من الشباب العربي.

في هذا الكتاب يستخدم الأستاذ كل أدواته لتحقيق خلاصه الروحي: النقد الأدبي، والتحليل الماركسي، وبقايا تعاليم التديُّن السوسيولوجي الذي خرج به من دمنهور، وفطرته الإنسانيّة؛ يستخدمها جميعًا بإخلاصٍ وحرارةٍ بارعين. فلا يرفض الماديّة فقط، بل يرفض كُلَّ تجلياتها، وأخطرها: الطوبيا؛ أو الفردوس الأرضي كما يُسميها. يرفُض أي خلاصٍ دنيوي نهائي يُقوّض الإنسان. يرفض أي فردوس برّاني في هذا العالم؛ فالفردوس الأرضي الحقيقيُّ ليس برّانيًّا أبدًا، بل هو فردوس جوّاني: "الفردوس القلبي"، الذي اكتشفه المسيري مع مالكوم إكس؛ فردوس الإيمان.

لقد عَبَرَ عبد الوهّاب بهذا الكتاب من الماديّةِ إلى الإنسانيّةِ والإسلام. فممّا ذكره رحمه الله في سيرته؛ أن مالكوم إكس كان دليله للإسلام، ومن يقرأ الفصل الذي عقده الأستاذ عن الحاج مالك الشباز (مالكوم إكس)؛ فسيُدرك كيف كان مالكوم الأمريكي هو مدخل عبد الوهاب العربي إلى الإسلام!

وإذا كانت سيرة المسيري الفكريّة تتبع ولادة أفكاره ومنهجه، وكانت سيرته الشعريّة ترسُم تحوّلات وجدانه، فإن هذا الكتاب -ربّما بغير قصد- يجمع بين السيرة الفكريّة والشعريّة. إنه لوحةٌ امتزج فيها الفكر والشعور في لحظة تحوّلٍ إنسانيّ فذّة. إنه كتابٌ كُتب بنور القلب ومداد العقل معًا.



ISBN 978-977-5015-12-9



ص ب ٥٦١١ - كود ١١٧٧١
هليوبوليس غرب - القاهرة - مصر
dartanweereg
www.dartanweer.com




الفردوس الأرضي

عبد الوهاب المسيري

الفردوس الأرضي

دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية



الطبعة الأولى
٢٠١٤م/١٤٣٦هـ

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/٧٩٥٠

ISBN 978-977-5015-12-9





ص ب ٥٦١١ - كود ١١٧٧١
هليوبوليس غرب - القاهرة - مصر
البريد الإلكتروني: info@dartanweer.com
dartanweereg

www.dartanweer.com

بسم الله الرحمن الرحيم

"ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صلحا وقال إننى من المسلمين"

صدق الله العظيم

(فصلت : ٣٣)

عبد الوهاب المسيري (١٩٣٨- ٢٠٠٨م)، مفكر عربي مسلم وأحد أعلام القرن العشرين. تخرّج بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، وحصل على الماجستير من جامعة كولومبيا، ثم نال الدكتوراه من جامعة رَتْجَرز بالولايات المتحدة الأمريكية. عمل مُدرسًا بجامعة عين شمس وجامعات عربية أخرى، كما عمل أستاذًا زائرًا في أكاديمية ناصر العسكرية، وجامعة ماليزيا الإسلامية، ورئيسًا لوحدة الفكر الصهيوني وعضوًا بمجلس خبراء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ومستشارًا أكاديميًا للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، ومستشارًا ثقافيًا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك، ومستشارًا لتحرير عدد من الحوليات التي تصدُر في ماليزيا وإيران والولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا.

نُشر للعلامة المسيري كُتبًا كثيرة من أهمها سيرته الفكرية (رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمر؛ ٢٠٠١م)، التي ترسم صورة مفصلة لولادة أفكاره وتكونها، والمنهج التفسيري الذي يستخدمه. وسيرته الشعريّة (أغاني الخبرة والحيرة والبراءة؛ ٢٠٠٣م)، التي تتتبع مراحل تحوّل وجدانه، من خلال شعره؛ وانتقاله من الماديّة إلى الإيمان. وقد طبقت شُهرته الآفاق كحُجّة في الشأن الصهيوني، وذلك بمؤلفه العمدة الذي أفنى فيه رُبع قرن من عمره؛ وصدر في ثمانية مجلدات: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد (١٩٩٩م).

لكن اهتمامات المسيري الفكرية تجاوزت دراسة الصهيونيّة، بل إنه يعتبر موسوعته مجرد دراسة حالة في إطار مشروعه النظري. وقد صدر له؛ مثلًا: العالم من منظور غربي (٢٠٠١م)، والفلسفة المادية وتفكيك الإنسان (٢٠٠٢م)، والعلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة (٢٠٠٢م)، ودراسات معرفية في الحداثة الغربية (٢٠٠٦م)، وكتب أخرى كثيرة.

وقد ظل الأدب «حبّه الأول»؛ فصدر له مثلًا: مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي: ويشمل دراسات تاريخية ونقدية (١٩٧٩م)، وكتابه الفذّ: اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود (٢٠٠٢م)، الذي ضمّنه نسقه اللغوي الذي تشكّلت به رؤيته وبُني عليه مشروعه الفكري. وقد صدر له عام ٢٠٠٧م عدة كتب فى النقد الأدبى؛ منها: قصيدة الملاح القديم للشاعر صمويل تيلور كوليردج، وهي طبعة مصورة مزدوجة اللغة (عربى-إنجليزى) مع دراسة نقدية، وكتابيه: دراسات فى الشعر، وفى الأدب والفكر.

وقد نال رحمه الله جوائز محليّة وعالميّة عديدة، وتُرجمت أعماله إلى اللغات الإنجليزية والفارسية والتركية والبرتغالية، كما صدرت دراسات كثيرة تتناول أعماله.

الإهداء

ومَن غيرك أُهديها هذه الكلمات؟

المحتويات

مقدمة

الفردوس والتَّاريخ

يعيش الإنسان جزءًا من الطبيعة، شأنه في هذا شأن الكائنات العضويَّة الأخرى؛ يُولد ويموت، ينطبق عليه ما ينطبق عليها من قوانين طبيعيةٍ حتميَّةٍ، إنْ دَخَل النَّار احترق، وإن ألقى بنفسه من شاهقٍ دُقَّت عنقه، وإن تعرَّض للبرد هلك، وحينما تفسد خلايا جسمه فهو يتحلل ويتحوَّل إلى ترابٍ تذرُوه الرِّياح.

ولكنَّه إلى جوار هذا يعيش في بناءٍ مُستقل عن الطَّبيعة مِن صُنع يَديْه، هذا البِناء هو التَّاريخ؛ ولذا فالإنسان لا يخضع لقوانين الطبيعة وحدها، وإنما يخضع لقوانين التَّاريخ أيضًا، وهي قوانين مُغايِرةٌ لقوانين الطَّبيعة رغم ارتباطها بها، ورغم اعتماد البيئة التَّاريخيَّة على البيئة الطَّبيعية. والتَّاريخ هو تراكم خبرات الإنسان في مُجابهته الطَّبيعة؛ ولذا فهو يمنح الإنسان من المعرفة والوعي ما يمكِّنه من التَّحكُّم في الطَّبيعة وتوظيفها لصالحه، هذه الازدواجيَّة هي ما يُسمَّى الوجود الإنسانيُّ؛ أن يعيش الإنسان داخل جسده «الطَّبيعي» يحمل وعيه «التَّاريخي». والجسد والوعي رغم ارتباطهما منفصلان الواحد عن الآخر؛ فبينما يؤكِّد الأول انتماءه لعالم الحيوان، يؤكِّد الثاني انتماءه لما هو غير حيوانيٍّ. وبين هذا الشدِّ والجذب، يعيش الإنسان أيامه الأرضيَّة لا مخرج له منهما، كفردٍ أو كجماعةٍ.

وهذا الشدُّ والجذب في نظري هو مصدر جدليَّة الوجود الإنساني، فالإنسان قد ترك الطبيعة الدَّائرية وسقط في التاريخ وحدوده، ولا يمكنه إلا تقبُّل هذا الأمر. ولكنَّه مع هذا قلما يقنع بما هو قائمٌ، وإنما يثور ضده دائمًا ويحلم بما هو أفضل خاصَّةً حينما ينظر إلى ذاته، فيرى الإمكانات الهائلة داخله وداخل وُجوده الإنساني. وحلم الإنسان هذا هو يدفعه للثَّورة والتمرُّد. ولقد كان الحلم بالعصر الذهبي دائمًا استعارةً لحالةٍ من الكمال الإنساني نطمح لها ونحاول تشييدها عالمين مُسبقًا بأن الكمال لا يمكن الوصول إليه؛ لأن الكمال ليس من سمات الوجود الإنساني الجدلي، ولذا كان على الإنسان على المستويين الفردي والجماعي أن ينشد الخلاص، ولكنه خلاصٌ داخل حدودٍ. إذ إنه كان يفصل دائمًا بين النِّسبي والمطلق، باحثًا عن المطلق خارج التَّاريخ، ويظل التاريخ هو مجال المحاولة والخطأ. والفكر الثوري يصدر عن رغبةٍ أو حلمٍ في الحياة الأفضل، ولكن الرؤية الثورية الحق تعترف بأهمية التاريخ وحدوده رغم محاولتها توسيع هذه الحدود. وهي تؤمن بأن الإنسان لا يمكنه حل جميع التَّناقضات؛ لأن حل بعض التناقضات ينتج عنه تناقضاتٌ أخرى، أي إن التاريخ لا نهاية له، ولن نصل بتاتًا إلى لحظة السكون التي يتحقق فيها الفردوس الأرضي، والتي ينتفي فيها الجدل، ويتداخل فيها المطلق والنسبي، ويصبح التاريخ دائريًّا مثل الطبيعة. والرؤية الثورية الحق لا تريد «العودة» إلى البراءة الأولى وإلى التكامل المطلق، وإنما تحاول الوصول إليها جزئيًّا وتدريجيًّا من خلال حدود التاريخ، ودون أي محاولةٍ لتدميره. وقد لخَّص ماركس لبَّ الموقف بتعريفه للحرية على أنها معرفة قانون الضرورة، فالوصول للبراءة الأولى أو الحرية المطلقة (الطبيعية) مستحيلٌ باعتبار أن قوانين الضرورة الطبيعية تتحكَّم فينا. ولكن يظل الاقتراب الجزئي ممكنًا عن طريق التَّحكُّم النِّسبيِّ في هذه القوانين بواسطة الوعي والتاريخ الإنساني. ويظل الفردوس الذي لا حدود له حلمًا، وليس كيانًا أرضيًّا مُتحققًا ساكنًا أزليًّا صوفيًّا. إذ إنه لا حرية إنسانيَّة خارج القانون والحدود.

ولكن في العصر الحديث في الغرب، وبانتشار الفلسفات البورجوازية بتقديسها للأشياء؛ بدأ يظهر نوعٌ جديدٌ من الحساسية اسمه «**الحساسية الفردوسية**»، هو في صميمه نوعٌ من الغيبية العلمية. والغيبية العلمية لا تختلف كثيرًا عن الغيبية التقليدية في ادِّعائها الإطلاق لنفسها، وفي نفيها للجدل، وفي محاولتها تصفيته. فالغيبية الدينية التقليدية كانت في جوهرها احتكارًا للحقيقة المطلقة النهائيَّة ولسبل الخلاص؛ ولذا كان على المؤمن أن يتبع هذه الحقيقة حتى يصل إلى الفردوس. أما الذين كانوا يقاومون هذا الخلاص فقد كانت العقيدة تُفرَض عليهم فرضًا عن طريق العنف. والغيبية العلمية الجديدة تدَّعي لنفسها احتكار الحقيقة المطلقة، بل إنها تنسب لنفسها القدرة على تحقيق الفردوس في الأرض «الآن وهنا» بإشباع كل رغبات البشر، إن استسلم الناس لها وأسلموا لها القياد؛ متَّبعين أحدث الأساليب العلمية التي لا يعرفها بطبيعة الحال إلا العلماء، وذلك حتى يتسنى الوصول في أسرع وقتٍ ومن خلال أقصر طريق، إلى الفردوس الموعود.

وهذا المنطق خطرٌ للغاية، ثوريٌّ في مظهره رجعيٌّ في جوهره؛ فهو في مظهره يُحِلُّ النجاح العاجل في الدنيا محل أيِّ نجاحٍ آجل غيبيٍّ في الآخرة، كما يُؤكِّد أهمية السعادة الدنيوية المباشرة، ولكنه في جوهره ينطوي على رفضٍ للمُواضعات الاجتماعية وللحدود التاريخية، كما ينطوي على رفضٍ لفكرة التناقض التي هي عماد أيَّة رؤيةٍ ثوريَّةٍ تاريخيَّةٍ. فالإيمان بالتناقض هو إيمانٌ بحيوية الواقع وبمقدرة عقل الإنسان الخلاق على التَّفاعل معه وتخطيه. ويسري هذا المنطق الفردوسي في كثيرٍ من الرُّؤى البورجوازية الفلسفية، وفي كل الرُّؤى العلميَّة الميكانيكية البسيطة التي تفترض أن الإنسان كمًّا محضًا لا يختلف عن الكائنات الطبيعية الأخرى، وأنه يعكس بيئته بشكل مباشرٍ وبسيطٍ، وهي بذلك تُنكر أن الإنسان كيْفٌ مُركَّبٌ فريدٌ، أو أنه يصنع البيئة التاريخية التي تُشكِّل وجدانه، وأنه بذلك يقف على طرفٍ نقيضٍ من الحيوانات التي تعيش في البيئة الطبيعية فحسب؛ خاضعةً لقوانينها الحتمية. والحساسية الفردوسية تستند إلى ميكانِزمات الاقتصاد الصناعي الرأسمالي الذي يعتمد على فكرة التوازن

الميكانيكي الدائم بين العرض والطلب. ولكن مما يسعر من حدتها في الوقت الحالي ظهور المرحلة الاستهلاكية في الرأسمالية، التي تفترض وجود إنسانٍ بسيطٍ غير مُركَّبٍ عنده كَمٌّ بسيطٌ من الرغبات يمكن إشباعها؛ ولذا بدلًا من الحلم بالبراءة الأولى ومحاولة تنفيذها جزئيًا في الواقع، ظهرت الرغبة المجنونة في تحقيق الفردوس الأرضي الآن وهنا، وظهرت الدولة الاستهلاكية المنظمة التي تدعي أنها ستحقق كل الرغبات وتقضي على كل التوترات، واختفى مفهوم الممارسة الإنسانية الجماعية المسترشدة بحكمة التاريخ الواعية، والخاضعة لقوانين المحاولة والخطأ.

وأعتقد أن ظهور العالم السوفييتي زخاروف يدل على أن التيار الفردوسي الرجعي ليس بمنأى عن الدولة الاشتراكية، فهذا العالم السوفييتي يُطالب بتخطي الخلافات الأيديولوجية وبتوحيد جهود علماء العالم لإسعاد البشر، كما لو كان علماء العالم عندهم الصيغة السحرية الفردوسية القادرة على شفاء كل الأمراض، متناسين أن العلماء قد يعالجون تفصيلات الوجود المادي (الطبيعي) للإنسان، أما وجوده التاريخي المرتبط بقوانين التاريخ وبقضية العدالة والتنظيم الاجتماعي؛ فهذا ما لا يمكن للعلم معالجته. إن العلم يتعامل مع عالم الطبيعة فحسب، وحينما يتعامل مع الإنسان، فإنه يتعامل معه على أنه كائنٌ طبيعيٌّ. أما الإنسان ككيان تاريخي مُركَّب فهذا هو مجال الفلسفة والأيديولوجيا.

وهـذا التصور الفردوسي للإنسان ليس حِكرًا على فلاسفة الرأسمالية والتكنولوجيا، وإنما هو جزءٌ من تصورات المواطنين في الحضارات الصناعية في الغرب. وقد عبَّر هذا المفهوم عن نفسه في فكرة «التقدُّم» السريع والدائم نحو الفردوس العلمي المنظَّم، الذي يعيش فيه الإنسان كالأطفال في تناسقٍ تامٍّ مع الطبيعة، وكأنه آدم قبل السقوط وقبل أن يكتسب معرفة الخير والشر. فالتقدم العلمي صار هدفًا في حدِّ ذاته، بغضِّ النظر عن العائد المعرفي أو الإنساني له، وبغض النظر عن مقدار البؤس أو السعادة التي يجلبها للبشر، وأصبحت مُضاعفة الإنتاج أمرًا مرغوبًا فيه دون أيِّ اعتبارٍ لحاجات الإنسان الحقيقية (كما ظهرت عبر التاريخ)،

ودون أي احترامٍ لإمكانات البيئة الطبيعية. أي إن هدف الإنتاج لم يعد إشباع الرغبات الإنسانية وإنما أصبح هو ذاته الهدف والمثل الأعلى، وهي قمة الاغتراب؛ لتدور عجلة المصانع في سرعةٍ خُرافية، فتنتج سلعًا وأشياء لا يريدها الإنسان، وهي في دورانها تلوِّث البيئة بالأحماض والعادم الصناعي فتدمر الإنسان من الخارج، ثم تُغرقه في السلع والتفاصيل وتدمره من الداخل.

وقد كان منطق التَّقدُّم الدَّائم وبأي ثمنٍ هو المنطق السائد حتى عهدٍ قريبٍ في العالم الغربي، بل وفي العالم بأسره. ولكن يبدو أن الأزمات البيئية في المجتمعات الصناعية قد بدأت في التَّفاقُم؛ ولذا فلأول مرة في تاريخ التقدُّم الغربي يدخل عنصر كيفي، ويبدأ المفكرون بل والمواطنون العاديون في الحديث عن «تكاليف» التقدم وعن تلوث البيئة، وهل مجرد «إنتاج» سلعةٍ ما هو «تقدُّمٌ»، أم أن التقدُّم والتخلف يُقاسان بمقاييس تقع خارج نطاق الأشياء والكَمِّ، وأنه لا يمكن استخلاص هذه المقاييس إلا من ظاهرة الإنسان نفسه ومن بيئته التاريخية ذاتها؟ وإذا كان الحديث عن تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية) قد صار أمرًا شائعًا في الغرب، فإن الحديث عن تدمير الإنسان (الطبيعة البشرية) سيصبح هو الآخر أمرًا مطروحًا عما قريب لا محالة.

وفي أثناء إقامتي في الولايات المتحدة (١٩٦٣ - ١٩٦٩م ثم عام ١٩٧١م)؛ لاحظت أن التيار الفردوسي المعادي للتاريخ والأيديولوجيا، الملتزم بفكرة التقدم العلمي بأيِّ ثمنٍ؛ هو البناء الكامن وراء كثيرٍ من أفكار اليمين أو اليسار. وقد وجدت من المفيد أن أسجل انطباعاتي وأكتب دراساتي مُنطلقًا من إيماني بالإنسان على أنه كائنٌ طبيعيٌّ- تاريخيٌّ؛ كائنٌ يحلم دائمًا بالفردوس لكنه يعيش في التَّاريخ. وقد لاحظتُ أن الإنسان في الولايات المتحدة يهرب من التاريخ ليعيش في الفردوس، ولكن -وهذا هو ما خَبِرته- مَن يهرب من التاريخ ليعيش في الفردوس؛ ينتهي به الأمر إلى الجحيم. فالإنسان الذي يهرب من معرفة قانون الضرورة، ويرفض فكرة الحدود التاريخية ليمرح في فردوس اللاحدود، سينتهي به الأمر في عالم الصُّدفة

العبثي الذي لا يحكمه قانونٌ - والجحيم هو الصُّدفة والعبث - تمامًا مثل إنسان روسو الفرِح، الذي يتحول بالضرورة إلى إنسان داروين الذي تأكله الذئاب من الحيوانات الطبيعية أو من البشر الطبيعيين. إن الإنسان وجودٌ جدليٌّ: جسدٌ وروحٌ؛ *«فاعمل للدنياك (وجسدك) كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك (وروحك) كأنك تموت غدًا»*[1]. والمجتمعات الاستهلاكية التي تظن أنها قادرةٌ على إشباع جميع رغبات الإنسان، والتي تُعَرِّف هذه الرغبات بشكل كَمِّيٍّ، مُسقِطةً احتياجاته الروحية من الاعتبار؛ هذه المجتمعات تتجاهل ازدواجية الإنسان وتُسبِّب البؤس للبشر.

وقد كتبت هذه الدِّراسات وسجَّلت هذه الانطباعات حتى أنقل تجربتي للقارئ العربي؛ الذي سيُلاحظ أنني ركَّزت بعض الشيء على أوجه تشابُه التجربة الأمريكيَّة والتجربة الإسرائيلية، كما تعرَّضت لتاريخ ووجود الأقلية اليهوديَّة في الولايات المتحدة. وقد شرحت في عدَّة مواضع من هذا الكتاب أسباب تركيزي على هذا الموضوع، لكنني أضيف هنا أن الديانة اليهوديَّة ديانةٌ حلوليةٌ تخلط بين المطلق والنِّسبي، ولا تركِّز على فكرة البعث في عالمٍ آخر، وتزخر بأفكارٍ مثل عودة الماشيح وآخر الأيام، وهي أفكارٌ تؤكِّد فكرة الفردوس الأرضي. واليهوديَّة بذلك تُنمِّي في أتباعها هذه الحساسية الفردوسية، وتجعلهم مؤهَّلين أكثر من غيرهم لتقبُّل قِيَم المجتمعات الاستهلاكية. وأنا لم أعرض تفصيلًا لهذا الجانب من بناء اليهوديَّة الفكري في الدِّراسة الحالية؛ لأن هذا ليس مجاله، واكتفيت بعرض نتائجه. (ويمكن للقارئ الذي يود الإلمام بالموضوع أن يعود لموسوعة المفاهيم والمصطلحات الصُّهيونية).

وأرجو ألا يُفهم من دراستي أنني أنكر القيمة الإنسانية والإيجابية للحضارة الغربية؛ فأنا أول مَن يعترف بفضل هذه الحضارة على العالم ككل، وعليَّ أنا كفردٍ. ولكنني اجتزأت خاصِّيةً سلبيةً أساسيةً في الحضارة الأمريكيَّة (والحضارة

(١) لا يثبُت الحديث عن النبي، إنما هو من المأثور الذي يُنسب تارة للإمام علي بن أبي طالب، وتارة لعبدالله بن عمرو بن العاص. (الناشر)

الاستهلاكية عامَّةً) وهي مُعاداتها للتَّاريخ. وهذا الاجتزاء والتركيز على عُنصرٍ واحدٍ دون سواه ضرورةٌ دراسيةٌ وتكتيكٌ منهجيٌّ مشروعٌ؛ خاصَّةً إذا كان هذا العُنصر له دلالةٌ ومركزيةٌ بالنسبة للظاهرة ذاتها، وإذا كان له دلالةٌ عميقةٌ بالنسبة للدراسة في الوقت نفسه.

ولقد قمتُ بمقارنة هذا العنصر في الحضارة الأمريكيَّة بنقيضه في الحضارة العربية، لا لأُفاضِل بين الحضارتين؛ وإنما لأوضح للقارئ ما أعني، وحتى تترسخ في وجدانه نِقاط الخلاف الرئيسية بين نمطنا الحضاري، والنمط الحضاري السائد في الغرب. ولعل إحساسنا بالاختلاف، الذي قد يُشعرنا بشيءٍ من التفوُّق الإنساني؛ لا بُد وأن يشعرنا أيضًا بكثير من النقص في حضارتنا، التي يُغلّها التاريخ وتُقيِّدها التقاليد، والتي هي أحوج ما تكون للحلم بالفردوس وبالبراءة الأولى؛ حتى يشعر الإنسان بجسده بعض الشيء، ويشعر بنفسه ككيانٍ منفصل. وإذا كانت الحضارة الأمريكيَّة تحوِّل الفرد إلى جزيرةٍ «فردوسيةٍ» مُنغلقةٍ على ذاتها، فالحضارة العربية تحوِّله إلى قطرةٍ «تاريخيةٍ» في المجتمع ليس لها حدودٌ على الإطلاق. وهذا ما يمكننا تعلُّمُه من أمريكا شريطة ألا نفقد هويتنا.

وأرجو ألا يُشتمَّ من هذا الكتاب أنني مُعادٍ للعلم والتكنولوجيا، فأنا لست بهذه السذاجة، بل أنا من المؤمنين أنه لا يمكن أن تقوم قائمةٌ لأي حضارةٍ عربيةٍ معاصرةٍ، إلا بأخذ مقولة العلم والتكنولوجيا في الاعتبار، وأي بناءٍ فكريٍّ يتجاهل هذا العنصر هو بناءٌ في سذاجة النسق الديني التقليدي؛ الذي يحاول أن يتجاهل الجانب الطبيعي للإنسان، وهو أيضًا في سذاجة النسق العلمي التجريبي الذي يحاول أن يتجاهل الجانب التاريخي أو الروحي للبشر. ولذلك فأنا أرى أنه لابد من العلم، ولكن في الوقت ذاته لا بد أن يقف العلم عند حدوده، ولا يدَّعي لنفسه ما لا يملك. فزخاروف غير قادرٍ على حل مشاكل مواجهة العالم الثالث للإمبريالية عن طريق اختراع صنفٍ جديدٍ من الصَّابون، أو عن طريق إرسال إنسان إلى القمر، أو عن طريق التوصُّل لأكثر المعادلات الرياضية تعقُّدًا. أي إننا يجب ألا نفاضِل

بين العقل والبطن، بل يجب ألا نقارن بينهما؛ فهما ينتميان إلى مجالين منفصلين رغم اتصالهما.

وقد يُقال إن مثل هذه الدعوة في «المرحلة الراهنة» فيها خطورةٌ، لأننا في مجتمعٍ متخلفٍ أحوج ما يكون للعلم والتكنولوجيا؛ وفي هذا المنطق شيءٌ من الصِّدق، ولكن لا بد لنا مع ذلك أن نستفيد من أخطاء الآخرين وقصورهم. ونحن أمامنا فرصةٌ ذهبيةٌ في عالمنا العربي، ولا داعي لتكرار أخطاء الآخرين؛ فمن يرتكب خطأً ما فهو بطل مأسويٌّ، أما مَن يُكرر أخطاء الآخرين فهو مُهرِّجٌ. فلا داعي إذن للحديث عن العلم بشكل مجرَّدٍ كما لو كان هو الذي سيحل مشاكلنا؛ لأنه لن يفعل، وإنما الذي سيحلها هو العثور على الصيغة الملائمة لنا، والتي عن طريقها سنُدخِل العلم والتكنولوجيا على العالم العربي بتراثه التاريخي الإنساني الرائع، دون أن نضحي بهذا التاريخ ونلقي به في البحر كما يطلب منا البعض.

بهذه الأفكار عُدت من الولايات المتحدة، وكتبت هذه الانطباعات والدِّراسات[1].

---

(١) نشرت الثلاثة أجزاء الأولى من البابين الأول والثاني في جريدة الأهرام في صيف ١٩٧٣م، ونشر الجزء الرابع من الباب الثاني في مجلة الطليعة المصرية، أما الجزء الثاني من الباب الثالث فقد نُشر بالإنجليزية في كتاب:
Malcolm; The Man and His Work, New York, ed. Callier, 1972.

الباب الأول

البراجماتيَّة الأمريكيَّة والبراجماتيَّة التلموديَّة

أولًا: صهيون الجديدة في الولايات المتحدة وإسرائيل

لا يملك الدَّارس للوجدان الأمريكي والصُّهيوني إلا أن يُلاحظ التَّشابه، بل والتطابق بينهما؛ على الرغم من أن الحضارة الأمريكيَّة لا يزيد عمرها على بضعة قرونٍ، بينما تتباهى الحضارة اليهوديَّة الإسرائيلية بتاريخٍ قديمٍ قِدَم الإنسان. ولعل أهم أوجه التشابه بين الوجدانين أن كليهما يرفض التاريخ بعنادٍ وإصرارٍ، أو على الأقل يحوِّله إلى أسطورةٍ متناهيةٍ في البساطة. وقد بدأ التاريخ الأمريكي حينما استقل البيوريتانيون سفنهم وهاجروا من أوروبا إلى العالم الجديد، أو «أرض الميعاد»؛ هربًا من المشاكل التي أثارها التاريخ الأوروبي. والبيوريتانيون أو التطهريون هم لفيفٌ من البروتستانت المتطرفين، الذين وجدوا من العسير عليهم البقاء داخل الكنيسة الإنكليزية لأنها - حسب تصورهم - لم تبتعد بما فيه الكفاية عن النمط الكاثوليكي في العبادة، بما فيه من طقوسٍ وتماثيل وزخارف؛ وطالبوا بـ«تطهير» العبادة المسيحية من كل هذه العناصر الدخيلة التي لم يأت لها ذكرٌ في العهدين القديم والجديد. إن «العودة» للبساطة الأولى كانت الهدف الأسمى للتطهريين، الذين حاولوا تشييد مدينتهم الفاضلة (أو صهيون الجديدة كما كانوا يسمونها) حسب المثل والقواعد التي وضعها وطبَّقها المسيحيون الأُول (ولمَ لا؛ أليسوا هم النخبة الصالحة التي ورثت رؤى العهد القديم والجديد؟!). ولذا يمكننا القول إن الوجدان البيوريتاني

يرفض التاريخ المسيحي كله، بل يرفض أية رؤيةٍ تاريخيةٍ على الإطلاق؛ لأن العودة إلى «البساطة الأولى» (وهي نقطة سكونٍ ميتافيزيقيةٍ غير متطورةٍ أو متغيرةٌ) تصبح واجب كل فردٍ في كل زمانٍ ومكانٍ.

ولا يزال أثر هذا التصور البيوريتاني واضحًا على الوجدان الأمريكي؛ فالرفض الكامل للتاريخ يظهر بصورةٍ متكررةٍ في الأعمال الأدبية والفنية الأمريكيَّة، مثل قصائد إيميلي ديكنسون، وأشعار والت ويتمان شاعر الديمقراطية الأمريكيَّة في القرن التاسع عشر، الذي يرى أن كل تاريخ العالم ليس سوى هُراء ووهم ومجرد تمهيدٍ لظهور أمريكا، وأن كل مآسي التاريخ تكتسب معنى وبُعدًا جديدًا، وتصبح ذات دلالةٍ حينما يصل تاريخ البشرية إلى «نهايته» الأمريكيَّة السعيدة؛ التي هي في الوقت ذاته نقطة البداية الحقيقية للحياة الفردوسية الأمريكيَّة. ولهذا السبب يطلب ويتمان في شعره، من المهاجرين الأوروبيين أو المواطنين الأمريكيين الجدد؛ أن يلقوا من على كاهلهم عبء الحضارة الأوروبية ليبدءوا من جديدٍ من نقطة الصفر، في الأرض العذراء الجديدة، وفي الفردوس الأرضي الأمريكي.

وهذا التصور الفردوسي لأمريكا ليس قاصرًا على الأدباء والشعراء وحدهم، بل إنه فكرةٌ لها فعاليتها في الحياة اليومية الأمريكيَّة. ففي برامج التليفزيون الأمريكي كثيرًا ما نجد أن الشخصيات المركبة الشريرة تحمل اسمًا أوروبيًّا واضحًا مثل فابريزي أو بلجارد، أما الشخصيات البريئة الطيبة فهي عادةً تحمل اسمًا أنجلوساكسونيًّا مثل جون أو سميث (وحبذا لو كان جون سميث).

والرفض البيوريتاني الأمريكي للتاريخ الأوروبي، يقابله الرفض الصُّهيوني الإسرائيلي للتاريخ اليهودي في الدياسبورا (الشتات). فالصَّهاينة يرون أن الوجود اليهودي في أي حضارةٍ غير يهوديَّةٍ ظاهرةٌ شاذَّةٌ وعلامةٌ على المرض الرُّوحي؛ ولذلك فهم أيضًا يعودون إلى «البساطة الأولى» أيام كان اليهود يعيشون ككيانٍ قوميٍّ مستقل فريدٍ لم تدخل عليه الشوائب (التاريخية) المختلفة؛ غير اليهوديَّة. والصَّهاينة يرون أن التاريخ اليهودي يؤدي إلى النهاية الإسرائيلية السعيدة، وفي

الفردوس اليهودي الجديد يحمل كل المواطنين أسماء عبرانية لها رنينٌ خاصٌّ (على عكس يهود الحركة الإصلاحية في أوروبا؛ الذين تخَلوا عن أسمائهم العبرانية وسموا أنفسهم بأسماء أوروبية لا تميزهم عن الشعوب التي ينتمون إليها). إن أسطورة العالم الجديد الذي يتحلى بالبساطة والبراءة، والذي هو أقرب إلى الفردوس الأرضي؛ تسيطر على الوجدانين الأمريكي والصُّهيوني.

ولعل هذا يفسِّر نظرة كثيرٍ من الصَّهاينة والإسرائيليين إلى دولة إسرائيل على أنها كيانٌ ميتافيزيقيٌّ يحقِّق نبوءات العهد القديم، وبالتالي فهي لا علاقة لها بالشرق الأوسط أو الأدنى أو الأقصى. وكما قال أحد محرِّري «النيويورك تايمز»: على الإنسان أن يستوعب سِفر أشعيا استيعابًا كاملًا، ليفهم سياسة إسرائيل الخارجية! فمفهوم «آرتس إسرائيل» التوسُّعي أو «إسرائيل العُظمى» التي تضم الأرض الواقعة بين نهر مصر والفُرات هو مفهومٌ دينيٌّ (أو قومي إذا شئت) لا علاقة له بالزمان أو المكان.

ولم يختلف فهم البيوريتان لمدينتهم الفاضلة كثيرًا عن فهم الصَّهاينة لإسرائيل؛ فهم كانوا مقتنعين تمام الاقتناع أنهم إنما هاجروا من أوروبا للعالم الجديد ليُنشئوا «مدينةً على التل» تنظر إليها كل الأمم وتحاكي أفعالها، وبذا يعمُّ الخير ويأتي الخلاص. والمفهوم البيوريتاني للتاريخ مفهومٌ دينيٌّ ضيقٌ، يرى في كل شيءٍ علامةً مُرسلةً من الله يستشهد بها على شيءٍ ما. وكما هو الحال مع الإسرائيليين، نجد أن البيوريتانيين استخدموا هذه «العلامات» الربانية لتبرير كل أعمالهم العدوانية، من إبادةٍ للهنود الحمر واحتلال لأراضي الغير. وقد استمر هذا التزاوج بين الأحلام الدينية والأحلام القومية التوسُّعية حتى القرن التاسع عشر؛ فوالت ويتمان كان يؤمن بالفتوحات التوسُّعية الأمريكيَّة (في المكسيك وغيرها) بنفس إيمان المسيحي بـ«السر الإلهي» على حدِّ قوله، كما كان يحلم بأمريكا العظمى التي تمتد من كندا إلى كوبا ومن القطب إلى خط الاستواء، وكان يسمي حلمه التوسُّعي هذا بـ«الرؤيا العذبة». أما أوسوليفان المفكر الأمريكي التوسُّعي، فقد كان يسمي هذا التوسع بـ«القَدَر الجليِّ»، وهو قدَرٌ لأنه مكتوبٌ على الأمريكيين أصحاب الرسالة الخالدة، وهو جليٌّ لأنه واضحٌ للعيان ولا جدل فيه. وحتى الآن لن

تعدم مَن يستخدم هذه النَّغَمة الدينية التبريرية مثل الكاردينال سبلمان الذي كان يسمي الجنود الأمريكيين في فيتنام بـ«جنود المسيح»، ومثل الجنرال الأمريكي الذي دمَّر قريةً فيتنامية «ليُنقِذها». إن الجنرال الأمريكي مثل الجنرال الإسرائيلي؛ عنده إحساسٌ بأنه صاحب رسالةٍ خاصَّةٍ، وأنه قد «اختِير» لتنفيذها؛ لذلك فهو يقوم بالتخريب والتدمير والفتح والغزو والنهب في مُنتهى البراءة، دون أن يطرف له جفنٌ.

وعقلية الريادة تُسيطِر على كلٍ من الصَّهاينة والأمريكيين؛ فالبيوريتانيون «اكتشفوا» أمريكا ثم انتشروا فيها عن طريق إنشاء مستعمراتٍ ذات طابعٍ زراعيٍّ عسكريٍّ. والمستوطنون الصَّهاينة هم الآخرون «اكتشفوا» فلسطين واحتلوها بنفس الطريقة. وعقلية الرائد عقليَّةٌ عمليةٌ تفضِّل الفعل على الفكر، والنتائج العمليَّة على الاعتبارات الخلقية؛ إنها عقليَّة الكاوبوي (وهو شخصيَّةٌ تعشقها الجماهير الإسرائيلية التي تُدمن الأفلام السينمائية من جميع الأنواع). الكاوبوي الذي ينتصر لأنه يُطلق مسدسه في الوقت المناسب وقبل خصمه بثوانٍ قليلةٍ، ثم يمسح فُوَّهة مسدسه وهو يُقبِّل عشيقته حتى لا يُضيِّع وقته فيما لا يفيد. وقمة الفعل دائمًا هي ذبح الخصم؛ *«أنا أذبح (خصومي) لا كَروسيٍّ يهودي، أو فرنسي يهودي بل كيهودي يهودي، هذا هو مُناي»*؛ كما يقول أحد أبطال القصص الإسرائيلية.

ولعل وجه الشبه الرئيسي بين الوِجدانَين الأمريكي والصُّهيوني الإسرائيلي هو العنف العنصري؛، فرفض التاريخ نَتَج عنه تعامٍ عن الواقع وتجاهُل لكل تفاصيله. ولذلك وقع البيوريتانيون والصَّهاينة في تناقُضات رؤياهم المثالية القبيحة؛ رؤيا عالمٍ جديدٍ بريءٍ بسيطٍ لا يمكن أن يُشيَّد إلا عن طريق العنف والإبادة، إبادة الهنود الحمر والفلسطينيين؛ الفردوس والجحيم في آنٍ واحدٍ.

ولعل في هذه المقطوعة الوصفية مِفتاحٌ لفهم نقاط التَّلاقي بين الوجدانين الصُّهيوني والأمريكي: *«كان الرجال يمسكون بالمحراث بإحدى أيديهم والبندقية بالأخرى، وكانوا يُعدُّون من المحظوظين إن لم يُتلف عدوُّهم المتوحش نتاج عملهم الشَّاقِّ، إما في الحقول أو في مخزن الغلال»*.

في هذه المقطوعة تختلط الصور الفردوسية وصور الإخصاب بالصور الجهنَّمية وصور الدَّمار، فالرجال يحرثون الحقول وينقلون نِتاج عملهم إلى مخازن الغلال. لكن عدوَّهم المتوحش يقف لهم بالمرصاد كأنه الثعبان في الجنة يدمر الثمار والحصاد؛ لذا يمتزج المحراث بالسَّيف والزراعة بالحرب، وهذا يُذكِّرنا بالكيبوتس وبمؤسسات إسرائيل الزراعية العسكرية. ولكن المقطوعة السابقة ليست وصفًا للكيبوتس، بل هي مُقتبَسةٌ من القصة المعنونة «دفن روجر مَلِفن» للكاتب الأمريكي ناثانيال هوثورن (من كتاب القرن التاسع عشر الأمريكيين)؛ وهي قصةٌ تعالج حياة المستوطنين الأمريكيين الأُول. وليس من قبيل المصادَفة أنَّ شِعار «أرضٌ بلا شعبٍ، وشعبٌ بلا أرضٍ» قد تبنَّاه كل من البيوريتانيين والصَّهاينة، وليس من قبيل المصادفة أيضًا أن المجتمعين الإسرائيلي والأمريكي من أكثر المجتمعات عنصريةً سواء من ناحية الواقع الاقتصادي أو البنية الحضارية. وقد يكون مما له دلالته وطرافته، أن مؤسسي الجمهورية الأمريكيَّة بعد إعلان الاستقلال قد فكَّروا في جعْل اللغة العبرية لغة الدولة الرسمية، باعتبار أن الجمهورية الوليدة هي صهيون الجديدة؛ ولكن الاعتبارات العملية جعلتهم يعدلون عن تهيؤاتهم.

وقد يرى البعض أن مثل هذه المقارنة طريفةٌ، ولكنَّها لا يمكن أن تُؤخَذ على محمل الجدِّ بسبب الفروق الاقتصادية والجغرافية الواضحة بين البلدين. وفي هذا شيء من الصِّدق، خاصَّةً إذا حاولنا الوصول إلى نتائج تفصيليةٍ استنادًا إلى هذا التشابه الذي لاحظناه بين المجتمعين. لكننا في الوقت ذاته يجب ألا نهمل الدروس العامة التي يمكن استخلاصها من دراستنا لتطور الحضارة الأمريكيَّة. فمن المعروف أن هذه الحضارة لا تزال متأثِّرةً إلى حدٍّ ما بالأوهام والأساطير والرؤى البيوريتانية على الرغم من مرور عدة قرونٍ، وعلى الرغم من التحوُّلات العديدة التي طرأت على بيئة المجتمع الاقتصادية. وهناك ما يشبه الإجماع بين مؤرخي الحضارة الأمريكيَّة، ومن بينهم عميدهم بيري ميللر؛ على أن دراسة الحضارة الأمريكيَّة دون استيعاب الوجدان البيوريتاني أمرٌ غير مجدٍ ولا طائل من ورائه. إذ

لا يمكن الإحاطة إحاطةً كاملةً بجوهر هذه الحضارة وروحها دون الرجوع للإطار الأول الذي صاغه البيوريتانيون. وإذا كان الأمر كذلك فإننا نخلص إلى أن الأفكار الأسطورية الزائفة لها تأثيرٌ عميقٌ على الوجدان الإنساني وعلى سلوك البشر. وأن هذه الأفكار رغم زيفها قد تعمُر طويلا وقد تتخذ أشكالًا عديدةً، مما يدعونا إلى عدم التفاؤل بخصوص الجماهير الإسرائيلية ضحية الأساطير الصُّهيونية؛ والتي ستبقى أسيرة هذه الأساطير والرؤى لبعض الوقت. ولذا يجب ألا نتوقع أن أزمةً اقتصاديةً أو اثنتين، أو أن انتصارًا فدائيًّا أو اثنين؛ سيزلزلان كيانها. بل ينبغي علينا أن نتوقع خوض حربٍ طويلةٍ ومريرةٍ، عسكريةٍ وحضاريةٍ؛ قبل أن يتحرر الإنسان الإسرائيلي من أوهامه الصُّهيونية الطوباوية، ويرتضي العيش في دولةٍ علمانيةٍ غير عنصريةٍ.

وعلى المستوى الإعلامي، يجب أن نضع في اعتبارنا أنه من اليسير على الشعب الأمريكي فهم العقليَّة الإسرائيلية والتعاطف مع الشعب الإسرائيلي وقيمه اللاأخلاقية من عنصريةٍ وعنفٍ، نظرًا للتَّشابه بين وجدان الشعبين. وهذه النتيجة ليست فيها أية دعوةٍ لليأس، وإنما هي مجرَّد تعرُّف على عنصرٍ موجودٍ بالفعل، إن لم نعترف به هُزِمنا وأُفشلت خططنا. أما اعترافنا به فيساعدنا على معرفة حدود ومدى أي حملةٍ إعلاميةٍ نقوم بها. إن الشعب الأمريكي وقادته، الذين تسيطر عليهم عقلية الرائد والكاوبوي؛ لا يفهمون سوى منطق القوة ولا يعترفون إلا بالنتائج العملية المباشرة، لذلك فالإعلام الذي لا تسنده قوةٌ أو وضعٌ قائمٌ بالفعل ما هو إلا دعوةٌ للأخلاق الحميدة لن يُنصت لها إلا ذوو النوايا الطيبة، وحتى هؤلاء سينسونها وينسوننا بعد دقائق.

أما أنابيب البترول، التي تحمل الأرباح الطائلة لأرض الميعاد الأمريكيَّة؛ فهي لا تُنسى أبدًا في عالم الحق والبترول والفضيلة.

ثانيًا: فابريكة الإنسان الجديد

من أوجه التشابه الرئيسية بين المجتمعين الإسرائيلي والأمريكي؛ أن كليهما مجتمعٌ استيطانيٌّ يتكوَّن من المهاجرين الذين عليهم أن يطرحوا عن أنفسهم هويَّتهم القديمة، ليكتسبوا هُويَّةً قوميَّةً جديدةً بمجرد وصولهم إلى نيويورك أو حيفا. واكتساب الهوية الجديدة هو مشكلة المشاكل بالنسبة لكل المجتمعات الاستيطانية الرافضة للتاريخ وللتراث، والتي تفبرك «تراثًا جديدًا» يدور حول أسطورةٍ بسيطةٍ يؤمن بها «الإنسان الجديد». فأمريكا استحدثت أسطورة «آدم الديمقراطي الجديد»، الذي يأتي إلى الأرض أو الجنة العذراء ليقيم فيها، ويستلهم كل ما في التراث العالمي من إيجابيات وينفتح على كل الحضارات. والصَّهاينة فبركوا أسطورة «اليهودي الخالص» المنفتح على الحضارة اليهوديَّة الخالصة، والذي يُهاجر إلى أرض الميعاد اليهوديَّة ليحارب في جيشٍ يهوديٍّ، ويزرع في حقل يهوديٍّ، ويقرأ في كتابٍ يهوديٍّ (وربما يحبُّ على الطريقة اليهوديَّة، ويقتل بالطريقة نفسها).

ولكن، هل نجحت الفابريكة الحضارية في كل من إسرائيل وأمريكا؟ ومرةً أخرى يمكننا أن نستخلص من دراستنا للوضع الحضاري في أمريكا الدروس والعِبَر التي قد تهدي خُطانا في دراستنا للمجتمع الإسرائيلي. ونظرةٌ واحدةٌ على المشهد الأمريكي وعلى أسطورة بوتقة الصَّهر الحضارية، حيث ينصهر المهاجرون الجدد في كل أمريكيٍّ واحد جديد؛ نظرةٌ واحدةٌ تُبيِّن أن البَوْتقة لم تحقِّق المتوقَّع منها.

وقد ظلت هذه الأسطورة مُسيطِرة على الوجدان الأمريكي حتى عهدٍ قريبٍ، طالما كانت السيادة لـ«الواسب» (اختصار وايت أنجلو ساكسون بروتستانت؛ أي بروتستانتي أبيض يتحدَّر من أصل أنجلو ساكسوني)؛ لكن حينما بدأت الأقليات الأخرى في التململ انهارت الأسطورة كليَّةً. ويمكن القول إن الأسطورة لم تكن أبدًا حقيقةً اقتصاديَّةً اجتماعيَّةً، وإنما مفهومًا له فعاليةٌ عاطفيةٌ قويةٌ، وحتى هذه الفعالية العاطفية قد تلاشت إلى حدٍّ كبيرٍ في الآونة الأخيرة. وقد بدأت الأسطورة

في التصدُّع العلني بظهور دولة إسرائيل، وانحسار التيار اليهودي الإصلاحي في أمريكا؛ إذ حينما بدأت الحركة الصُّهيونية في أواخر القرن التاسع عشر لاقت مُناوأةً عنيفةً من اليهود الأمريكيين، الذين كانت تُسيطر عليهم آنئذٍ اليهوديَّة الإصلاحية المطالبة بالفصل بين القومية والدِّين، وبتحويل الولاء اليهودي إلى ولاءٍ دينيٍّ خالصٍ. ولكن بازدياد الهجرة من شرق أوروبا (وجماهير شرق أوروبا اليهوديَّة ذات أصول بورجوازيةٍ صغيرةٍ، ونشأت في مجتمعاتٍ متخلفةٍ حضاريًّا تُسيطِر عليه تياراتٌ دينيَّةٌ رجعيَّةٌ مُحافِظةٌ)؛ بازدياد هذه الهجرة قَوِيت شوكة الصُّهيونية واشتَدَّ عُودها، ووجدت مرتعًا خصبًا بين صفوف تلك الجماهير، ومِن ثَمَّ بدأت محاصرتها للتيار الإصلاحي الذي انتهى به الأمر إلى تأييد ظهور إسرائيل تأييدًا فاترًا أول الأمر، ثم تأييدًا مهووسًا محمومًا على الطريقة الصُّهيونية التقليدية التي لا تعرف من الألوان إلا الأبيض والأسود، ولا ترى أيَّ ظلالٍ أو أبعادٍ خفيَّة.

وبعد سقوط الأقليَّة اليهوديَّة الأمريكيَّة في قبضة الفكر الصُّهيوني، عزف اليهود الأمريكيون نغمةً جديدةً عن «فَرادة الشخصية اليهوديَّة» و«استقلالها»، ووحدة الوجود اليهودي. واتَّضح ذلك في التعليم اليهودي، فأصبحت المناهج الدِّراسية تؤكِّد عُزلة اليهود واضطهادهم، وتُبرِز عنصر الاستمرار في التاريخ اليهودي مما يحوِّل الوجود اليهودي في «الدياسبورا» إلى وجودٍ هامشيٍّ. كما أبرزت تلك المناهج أهمية «حلم العودة» باعتباره القوة الدافعة وراء التاريخ اليهودي كله، وباعتبار إسرائيل تتويجًا لذلك التاريخ. لقد كان التعليم اليهودي في أمريكا يدعم الوعي اليهودي على حساب الوعي الأمريكي، بل وَجَدَ ازدواج الولاء مَن يُدافع عنه بين الصَّهاينة، باعتباره مسألةً طبيعيةً ومنطقيةً للغاية (وبالطبع كان هناك دائمًا أصواتٌ يهوديَّةٌ معارضةٌ مثل الناقد الأدبي ليونيل تريلنج، والعالم النفسي الشهير إيريش فروم، والحاخام إلمر برجر، ولكنها أصواتٌ خافتةٌ غير مسموعةٍ، تمامًا مثل أصوات المفكِّرين اليهود المنتمين لليسار الجديد والذين يُعارضون الوجود الإسرائيلي).

وحينما ظهرت حركات السود التحرُّرية في الخمسينيات، نَحَتْ أول الأمر منحى ليبراليًّا يتفق مع أسطورة البوتقة؛ فطالب الزُّنوج بالمساواة الاقتصادية والسياسية كما حاولوا الاندماج في المجتمع الأمريكي. فالتصوُّر السَّائد آنذاك أن الزنجي مجرد إنسان جلده أسود، لا يختلف في وعيه ولا وجدانه عن «الواسب». وفي منتصف الستِّينيَّات، أعلنت جماعة سنِك (SNCC) السوداء برنامجًا ثوريًّا جديدًا يرفض الاندماج كمثل أعلى، ويُطالب بالمساواة الاقتصادية والانفصال الروحي والحضاري في نفس الوقت. وظهرت عباراتٌ وشعاراتٌ جديدةٌ مثل «القوة السوداء» أو «السواد جميل»، واختفى مصطلح نجرو (زنجي) ليحل محله مصطلحات جديدة مثل الأفروأمريكان (الأفريقي - الأمريكي) أو بلاك (أسود) مُجردًا، وهي مصطلحاتٌ تؤكِّد ازدواج الولاء، وأن انتماء السُّود الحضاري ليس انتماءً أمريكيًّا خالصًا. وأخذت الأمور في التَّطور، فأُعيدت كتابة تاريخ أمريكا من وجهة نظرٍ «سوداء». وشهدت الولايات المتحدة حركةً لإحياء التراث الفكري والأدبي لأمريكا السوداء، ولاكتشاف أبطال سودٍ من المناهِضين للاندماج. وهذا الضرب من التفكير الذي ينحو منحىً «قوميًّا» يُذكِّرنا بالاتجاه الصُّهيوني؛ فهو يدور حول فكرة فرادة الإنسان الأسود وأنه صاحب وعيٍ مستقل، كما يستند إلى الإيمان بوحدة الوجود الأفريقي. لكن يجب الانتباه إلى أن «عودة» الأفروأمريكان عودةٌ رُوحيَّةٌ فحسب؛ لأنه يُتقبل وجوده كعضوٍ في المجتمع الأمريكي، ويحاول أن ينمِّي ذاته الفريدة داخل ذلك المجتمع وليس خارجه، على عكس التصوُّر الصُّهيوني الذي يرفض أيَّ وجودٍ يهوديٍّ خارج أرض الميعاد.

ولأن الفكر الأسود الجديد نحى منحىً قوميًّا، كان لا بُدَّ أن يصطدم بالفكر الصُّهيوني في الولايات المتحدة؛ فالصَّهاينة يرون الفَرادة حِكْرًا على اليهود دون الأغيار، وأن الاضطهاد الدائم والحقيقي مُوجَّهٌ نحو اليهود وحدَهم، برغم النجاح العملي والحضاري المذهل الذي أحرزته الأقلية اليهوديَّة في الولايات المتحدة. وهو ما يفسِّر لماذا تؤيِّد المنظمات الصُّهيونية واليهوديَّة الجماعات الاندماجية بين

السُّود، ولماذا تمدُّها بالمعونة الماليَّة وتحجبها عن الجماعات الثوريَّة؛ الأمر الذي يُسعِّر العداوة بين اليهود والثوريين السُّود. أضف إلى ذلك أن مالكي المحلات والمنازل في الأحياء السوداء هم عادةً من اليهود؛ لأن معظم هذه الأحياء كانت في الماضي «جيتو» يهودي للمهاجرين اليهود الفقراء، الذين فتح الله عليهم في أرض الميعاد الأمريكيَّة الحقيقيَّة، فانتقلوا خارج الجيتو وإن ظلوا محتفظين بمحالهم التجارية ومنازلهم الخربة البالية التي يستأجرها السُّود نظير أجورٍ عاليةٍ؛ لأنه ليس من السَّهل عليهم السُّكني في أيِّ مكانٍ آخرَ. ومما يُساعِد على تعميق هذا الاتجاه، أن رأس المال اليهودي بتراثه الجيتوي الطويل، واليهود المعاصرين بعقليتهم وخبرتهم الجيتوية؛ ينجذبون إلى الأعمال والاستثمارات الهامشية في المجتمع، وهي على أيَّة حالٍ الأعمال والاستثمارات الوحيدة المتاحة لهم في مجتمعٍ مستقرٍّ ومُتكاملٍ اقتصاديًّا مثل المجتمع الأمريكي.

لكل تلك الأسباب صار اليهودي هو العدوُّ المباشر المرئي للجماهير السَّوداء المضطهدة، لتتزايد حدَّةُ الصِّراع بين أهم أقليتين عُنصريَّتين في الولايات المتحدة، ويزيد ذلك من وعيها بذاتها القوميَّة؛ الأمر الذي أدى للتصدُّع الكامل للبوتَقة إيَّاها، ومن هنا سرى الوعي العِرقي بين الأقليَّات القوميَّة الأخرى سَرَيان النَّار في الهشيم. فظهرت جماعاتٌ للدِّفاع عن حقوق الإيطاليين (يرأس الممثِّل فرانك سيناترا إحداها) مهمَّتها الدِّفاع عن الأمريكيين المتحدِّرين من أصل إيطاليٍّ، ومنْع أيِّ محاولةٍ للتَّشهير بهم أو تشويه صورتهم كجماعةٍ قوميَّةٍ، وقد نجحت هذه الجماعات بالفعل في أن تضع حدًّا لتصوير المواطن الأمريكي-الإيطالي في التلفزيون الأمريكي على أنه شخصٌ تافهٌ لا ضمير له، يهتم بمظهره أكثر من اللازم، وينتمي عادةً إلى تنظيم المافيا الإجرامي. وقد بدأ الأيرلنديون هم الآخرون في حشر قواهم لتأييد جيش التحرير الأيرلندي. وقد التقيت أحد زملائي السابقين في الجامعة، فوجدته مُتحمِّسًا بشكل مضحكٍ لهذا الجيش ويُرسل له بكل مدَّخراته، ويدرس التُّراث الأيرلندي واللغة الأيرلندية (الجاليك) بحماسٍ يُذكِّرني بحماس الصَّهاينة تجاه كل ما هو يهودي،

ويتحدَّث باحتقارٍ شديدٍ عن الكُتَّاب والشعراء الأمريكيين. أقول بشكل مُضحكٍ لأن ذلك الصديق لم يكن له أيُّ اهتمامٍ سياسيٍّ قبلها بثلاث سنواتٍ، كما أنه لم يكن يفكِّر حتى في زيارة أرض ميعاده الأيرلندية.

حينما ذهبت إلى نيويورك عام ١٩٧١م لم أقابل بشرًا أو أفرادًا، كما لم أجد بوتقةً أو أتونًا؛ بل قابلت جماعاتٍ قوميَّةً متنافرةً أو مواطنين حُدِّدت هويَّتهم بشكل قوميٍّ ضيِّقٍ، فهم إما سودٌ أو يهودٌ أو أيرلنديُّون. لقد قابلت أفرادًا يبذلون قُصارى جهدهم لتحديد ذاتهم خارج الدائرة الحضارية الأمريكيَّة، ويرفضون فكرة بوتقة الصَّهر التي يقبع فيها «الواسب» وحيدًا، لكنه يُمسك بكل خيوط الاقتصاد الأمريكي ويصفر في سعادةٍ واضحةٍ برغم كل أحزانه القوميَّة والحضاريَّة؛ فهو لا يزال يملك كل الاحتكارات الأمريكيَّة الأساسيَّة، كما أنه لا يزال المورد الرئيسي المعتمد لرؤساء الجمهورية.

وقد شاهدت عددًا من الأفلام الأمريكيَّة الجديدة التي تبدو فيها هذه العنصريَّة واضحة، وتؤكِّد الانتماء القوميَّ لشخصياتها. ومنها بالطَّبع الأفلام التي تؤكِّد فرادة اليهود، مثل فيلم «عازف فوق السطوح» الذي يُعالج الدائرتين: دائرة اليهود الصغيرة، وهي هذه المرة جيتو ريفي في روسيا؛ تحيطها دائرة الأغيار الواسعة. واليهود داخل دائرتهم يعزفون الموسيقى ويتزوَّجون ويتناسلون في سعادةٍ واضحةٍ، وإن كان وجودهم المتناسق مُهددًا دائمًا بالانهيار، ومن هنا كان العازف على السطوح رمزًا لهذا الوجود. وحينما تظهر أول شخصيةٍ غير يهوديَّةٍ في صورة جنديٍّ روسيٍّ، يقول نكتةً مُعاديةً للسامية؛ فإننا نعرف للتوِّ لمَ لا يمكن أن يُكتب للوجود اليهوديِّ الثبات والدَّوام. ويرقص اليهود رقصاتٍ رومانتيكيةً إنسانيَّةً، أما الرَّقصات الروسيَّة الشعبيَّة فتبدو في هذا الفيلم كأنها إحدى رقصات الحرب، واليهود يقفون وسط دائرة الراقصين لا حول لهم ولا قوَّة. حتى قديسو الكنسية الروسيَّة، ذوو الوجوه البيزنطية النحيفة المستطيلة؛ هم أيضًا عيونهم قاسيةٌ لا رحمة فيها باليهود. والفيلم (عن عمدٍ أو عن غير قصدٍ) يكشف عنصريَّة اليهود الراسخة الجذور؛ فبطل الفيلم

بائع لبن يهودي يغفر لاثنتين من بناته تزوَّجت إحداهما بخيَّاطٍ يهوديٍّ فقيرٍ مُفضلةً إيَّاه على خطيبها الغني، وتزوَّجت الأخرى بثَوريٍّ يهوديٍّ بدون عِلم أبيها، يغفر لهما الأب لأنَّ الزَّوج في كلتا الحالتين يهوديٌّ يتحرَّك داخل الدائرة الصغيرة. أما الثالثة فلا غُفران لها ولا صَفح؛ لأنها تزوَّجت مسيحيًا. ورغم أن هذا المسيحي يُعلن استنكاره للعنف الموجَّه ضد اليهود، إلا أن ذلك لا يغيِّر في موقف الأب شيئًا، فالانتقال من الدائرة الصغيرة إلى الدائرة الكبيرة هو الموت بعينه (وبالفعل تؤدي بعض العائلات اليهوديَّة مراسم دفن بناتها اللائي تزوَّجن من غير اليهود).

ومن الأفلام العنصريَّة الأخرى التي شاهدتها فيلم «القط فريتز»، وهو فيلمٌ جميع شخصياته من الحيوانات؛ ومن بين القطط التي تلعب الأدوار الرئيسية يُوجَد قطٌّ بروتستانتي وقطَّة يهوديَّة (كلمة قِطٌّ في العاميَّة الأمريكيَّة تعني أيضًا رجلًا). وشاهدت أيضًا فيلم «بتي سووب»؛ الذي يروي قصة استيلاء الزُّنوج على شركة إعلاناتٍ أمريكيَّةٍ والمفارقات التي تنتج عن ذلك. أما فيلم «شيئنا اللاتيني» فيحتفي بالأقليَّة البورتوريكية وتراثها الكاثوليكي اللاتين-أمريكي. وفيلم «مارجو» الذي يسخر من الكنائس البروتستانتية في جنوب الولايات المتحدة. بل إن هذه العنصرية زحفت أيضًا على أفلام الجنس، التي تحاول معالجة عالم الجنس مُنفصلًا عن التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية؛ ففيلم «فيكسن»، الذي يروي قصة امرأة شبقة لا يسلم منها أحدٌ؛ يظهر فيه زنجيٌّ ثوريٌّ وكنديٌّ ماركسيٌّ!

نخلص مما تقدم إلى أن الكل الأمريكي المتجانس لا وجود له، فالإنسان الجديد البريء من الشر والتاريخ والمعرفة لم يُقدَّر له أن يخرج من البوتقة مُبتسمًا كأنه في إعلانٍ تلفزيوني. وخرج بدلًا منه الصُّهيوني مزدوج الولاء، والأفروأمريكي يحمل لواء قارَّته السوداء مع المدفع الرشاش، والأيرلندي الكاثوليكي الذي يرفع علم بلاده الأصلية، ويحاول التفوُّه ببضعة حروفٍ من لغتها وكأن كل حرفٍ يحمل رسالةً ذات مغزًى عميقٍ. وإذا كان هذا هو الحال مع الولايات المتحدة، فكيف بصهيون الإسرائيلية الجديدة، وهي صهيون لا يزيد عمرها الرسمي على عشرين

عامًا تقريبًا[1]، ولا يزيد وجودها التاريخي عن ذلك كثيرًا؟ إذ من المعروف أن ظاهرة التفتُّت القومي (التي يواجهها المجتمع الأمريكي الآن بصورةٍ مُخففةٍ) هي أخشى ما يخشاه حُكَّام إسرائيل، وهي ظاهِرةٌ تُطل برأسها في فتراتِ السِّلم النِّسبيَّة التي تعيشها إسرائيل (مثل الفترة بين ١٩٥٦ و١٩٦٧م)، وتعبِّر عن نفسها فيما يُسمَّى بالأمتين الإسرائيليتين: إسرائيل اليهود الشرقيين وإسرائيل اليهود الغربيين. فداخل «إسرائيل» تُوجَد جماعاتٌ قوميَّةٌ صغيرةٌ لا تزال إلى حدٍّ ما مزدوجة الولاء؛ فالإسرائيليون المتحدِّرون من أصل ألمانيٍّ يكتشفون أنهم ألمان، والإسرائيليون الفرنسيون فرنسيون، مما يدل على أنهم لم يكتسبوا الهويَّة الإسرائيلية اليهوديَّة «الخالصة»، وهو ما يُذكِّرنا بالفشل الذي لاقته بوتقة الصَّهْر الأمريكيَّة.

ولكن ثمة فروقٌ أساسيَّةٌ بين البوتقتين؛ فالحِصار الحضاريُّ العربيُّ المستمرُّ يساعد الجماهير اليهوديَّة المهاجرة إلى إسرائيل على الذَّوبان في فابريكة الصَّهر الإسرائيلية، خاصَّةً وأن هذه الفابريكة ليست ديمُقراطيَّة أو ليبراليَّة أو تلقائيَّة، بل هي أمريكيَّةٌ واعيةٌ بذاتها، تعمل حسب خطَّةٍ وبرنامجٍ محدَّدٍ. بالإضافة إلي أن فبركة تراثٍ يهوديٍّ خالصٍ، من تُراث الدياسبورا المتنوِّع؛ أمرٌ أيسر كثيرًا من خلق التُّراث الأمريكي من نقطة الصفر. ولعل بعث اللغة العبرية في العصر الحديث من أهم الأدلة على أن بوتقة الصَّهر الإسرائيلية قد تُصيب من النَّجاح ما لم تُصبه أختها الأمريكيَّة. وبرغم ذلك تظل العديدُ من الأسئلة بحاجة إلى إجابةٍ: هل سيُصاب المجتمع الإسرائيلي بمرض التَّفتُّت القومي، أم أنه سينجح في البقاء متماسكًا رغم أنه دخيل؟ وما هو الدَّور الذي تلعبه طبقة «الواسب» اليهوديَّة في إسرائيل؛ يهود شرق أوروبا الذين يشغلون معظم القيادات الفكريَّة والسياسية والحزبية؟ هل سيندمجون في المجتمع الإسرائيلي حتى تصير له حركته المستقلة عن أوروبا والغرب، أم أن بوتقة الصَّهر الإسرائيلي ستُنتج مواطنين موزَّعي الولاء بين واقعهم الإسرائيلي ووطنهم الأصلي؟ وما هي إمكانيات الاستفادة من التناقُض العرقي في إسرائيل، وهو تناقضٌ له فعاليَّةٌ تفوق أحيانًا فعالية التَّناقضات الاجتماعية والطبقيَّة المختلفة؟

---

(١) لاحظ تاريخ تأليف الكتاب؛ أوائل سبعينيات القرن العشرين. (الناشر)

هذه هي بعض التساؤلات التي أثارتها رؤيتي للتفتُّت العرقي في الولايات المتحدة، وهي تساؤلاتٌ قد يكون من المفيد أن يحاول بعض باحثينا الإجابة عنها.

ثالثًا: لغة التعامل مع الواقع

حينما يتناول المصري طعامه، فهو يتناول وجبةً ساهمت آلاف السنين من التَّاريخ المصري في طهوها. ولهذا السبب لا تُقدَّم الكوسا المسلوقة (والعياذ بالله) إلا للمرضى، أما الأصحاء فهم يأكلونها إما بالبشملة، أو محشيةً بالأرز أو اللحمة المفرومة أو كليهما، أو قد تُقدَّم مطبوخةً بالصلصة والسمن البلدي، وهذا أضعف الإيمان. على العكس من ذلك؛ حينما يُقرِّر المواطن الأمريكي تناول طعام العشاء (الوجبة الرئيسية في الولايات المتحدة)، فزوجته عادةً ما تُقدِّم له كمِّيَّةً لا بأس بها من البطاطس المسلوقة أو المقلية مع شريحةٍ كبيرةٍ من اللحم المشوي على الفحم (على طريقة آبائنا الأوائل)، أو المطبوخ على نيران البوتاجاز (دون الإخلال بالبنية البدائية لعملية الطهي). فإذا أراد الأمريكي التنويع فإنه قد يأكل الهامبرجر؛ وهو نوعٌ من اللحم المفروم المحمَّر والمخلوط بالحدِّ الأدنى من الخضروات والتوابل، وهو عادةً يُؤكَل إما بالخبز أو البطاطس الحتمية. وحين يسأم الأمريكي رتابة حياته الغذائية ويفكر في تناول طعامٍ جيِّدٍ له مذاقٌ خاصٌّ؛ فهو عادةً يتناول وجبةً أجنبيَّةً (صينية أو فرنسية) نِتاج تاريخ بلدٍ آخر، ولذلك فمن أيسر الأمور تناول طعامٍ أجنبيٍّ بل وشراء موادِّه الخام في أيِّ مدينةٍ أمريكيَّةٍ.

وأنا لا أبحث هنا عمَّا إذا كان الأكل المصري أفْيَد أو أصَح من الأكل الأمريكي أم لا، وإنما أشير إلى طريقة «صُنْع» هذا الأكل، وإلى أن الطريقة المصرية في الطهي أكثر تركيبًا من الطريقة الأمريكيَّة. وهو ما ينطبق حتى على الفول المدمس الشهير؛ الذي يُترَك على نارٍ دافئةٍ طوال الليل حتى ينضج، ثم يُضاف له بعد ذلك الزيت والملح والليمون.

وإذا ما نظرنا إلى علاقة الرجل بالمرأة وبالأسرة في المجتمعين المصري والأمريكي، للاحظنا نفس الاختلاف؛ فالرجل الأمريكي حينما ينظر إلى امرأةٍ فإنه يرى امرأةً وحسب على قدرٍ ما من الذَّكاء والحسن. فإذا أراد التعرُّف عليها فلا داعي للمؤامرات والمناورات والتلميحات، وإذا قرَّر الزَّواج منها فهو يتزوَّجها -إن هي وافقت- دون ضجيجٍ أو صخبٍ (ويطلقها بنفس البساطة). وهو عادةً ما يذكر هذا الأمر لأسرته (الأب والأم والإخوة والأخوات فالأعمام والأخوال وأولادهم ليسوا من الأسرة). وقد يدعوهم لحفل زفافه، لكن هذا لا يتم إلا من باب العلم بالشيء وحسب؛ لأنه لا يبغي رضاهم ولا يخشى سخطهم، فعلاقته بأسرته قد انقطعت بعد بلوغه السادسة عشرة واقتصرت على اللقاء في الكريسماس. ثم تظل العلاقة تضمُر إلى أن تقتصر على تبادُل بطاقات المعايدة الخالية من أي محتوًى إنسانيٍّ شخصيٍّ؛ فالرسالة المكتوبة على البطاقة عادةً ما تكون مطبوعةً، بمعنى أنها ليست رسالةً شخصيَّةً تُعبِّر عن علاقةٍ خاصَّةٍ، وإنما هي أقرب إلى التقرير العائلي العاطفي. لقد أُصبت بالغثيان حينما تسلمت تقريرًا عاطفيًّا عائليًّا من هذا النوع؛ أرسله لي أحد أصدقائي يخبرني فيه (ويخبر مائة شخصٍ آخر) أنه وزوجته وأولاده يرفلون في حلل السعادة، وأنهم يخصُّونني بالسلام! إن علاقات الأمريكي الاجتماعية من البساطة إلى درجة أنه يمكنه الاكتفاء بالتقرير بدلًا من الخطاب الخاص التقليدي. وكم كنت أُصاب بالذُّعر الشديد لرؤية هؤلاء الأمريكان «المرنون» وهم يودِعون أمهاتهم وآباءهم في بيوت العجزة، وهي بيوتٌ شُيِّدت لتسدَّ حاجةً نشأت في المجتمع نتيجةً لتفكُّك الأسرة الأمريكيَّة. فعندما تبلغ سن الخامسة والخمسين لا تقطن مع ابنٍ من أبنائك، كما لا يمكنك العيش في منزل بمفردك؛ لأنه سيكون كبيرًا ومُكلفًا؛ ولذا تنتقل إلى أحد هذه المنازل المزوَّدة بكل وسائل الراحة العصريَّة من سرائر نظيفةٍ إلى أجهزة تكييف هواءٍ، وأسطواناتٍ موسيقية، وحجراتٍ فسيحةٍ تجلس في إحداها لتنظر إلى التلفزيون بقيَّة أيامك الأرضية (لقد تحقَّق الفردوس الذي هو في صميمه جهنم السوداء).

أما المصري فإنه حينما ينظر إلى امرأةٍ فهو يرى امرأةً ويرى طبقةً اجتماعيَّةً وتاريخًا طويلًا. فإذا قرَّر التَّعرُّف على المرأة – الطبقة، فيجب عليه أن يعرف خلفيَّتها العائليَّة؛ لأن هذا سيُحدِّد تِكتيك واستراتيجية الهجوم. وإن قرَّر الزَّواج، فالزَّواج لا يتم على سُنَّة الله ورسوله فحسب، بل وفق ما تقتضيه الطقوس الاجتماعية من شَبْكةٍ ومهرٍ ومُقابلاتٍ بين الأُسَر للتعارُف والتَّباهي. وهذا المصري بعد تزوُّجه يُبقي على علاقته بأمِّه وأبيه وأخيه وبأمِّ زوجته وأبيها وأخيها، وعلى الزَّوج والزوجة أن يقسما وقتيهما بالعدل والقسطاس في زيارة الأقارب، أقاربها وأقاربه؛ والويل كل الويل لمن لا يحفظ الموازين الدولية الدقيقة. فإن أراد المصري أن يطلق زوجته –لا قدَّر الله– فإنه يكتشف أن الطلاق هو أبغض الحلال عند الله، وأن المجتمع لن يتركه وشأنه قبل أو بعد الطلاق؛ فرُسُل الصُّلح وفاعلو الخير كثيرون ولله الحمد. وحينما تهرم الأمُّ أو الأب، فإننا لا نرسلهما إلى أيِّ فردوسٍ أرضيٍّ (فهذه المؤسسة العلمية المعروفة باسم «بيوت العجزة» غير معروفةٍ بعدُ في مجتمعنا المتخلف)؛ بل على المصري أن يُبقي على علاقته بأبويه، يرسل لهما النقود ويحارب ضدَّ زوجته التي ترى أنه يُبالغ بعض الشيء في كرمه، كما تحارب هي ضده حتى تبقى على علاقتها الوثيقة مع أمِّها (حماته المصرية الشهيرة) التي تُنغِّص عليه عيشته دائمًا. إن الفرد المصري لا وجود له خارج هذه الشبكة الهائلة من الطقوس الاجتماعية والقيم الدينية؛ فوجوده اجتماعيٌّ تاريخيٌّ بالدرجة الأولى، ووجودٌ فرديٌّ بالدرجة الثانية.

ولعل هذا البُعد التاريخي للوعي المصري، هو ما يُفسِّر غرام السيدات المصريات الزَّائد بالماكياج (بغض النَّظر عن انتمائهن الطبقي). فالماكياج هو محاولةٌ للبُعد عن البساطة الأولى؛ إنه ارتداءٌ لقناع الفن فوق وجه الطبيعة، وهو ضربٌ من الطقوس الاجتماعية التي تحوِّل الظَّواهر البيولوجيَّة إلى ظواهر اجتماعيَّةٍ وتاريخيَّةٍ وإنسانيَّةٍ. أما السيِّدات الأمريكيَّات، فنادرًا ما يضعن هذه العطور والمساحيق السَّاحرة بهذا السخاء، وإن وضعنها فذلك لا يتم إلا في مناسباتٍ خاصَّةٍ جدًّا (وليس لمجرد حضور المحاضرات في الجامعة مثلًا). وقد لاحظت في زيارتي الأخيرة ضِيقًا شديدًا

بالثياب من أيِّ نوعٍ، ورأيت في الطُّرقات شُبَّانًا وشابَّاتٍ يرتدون بالفعل الحدَّ الأدنى من الملابس (الأمر الذي يذكِّرنا مرةً أخرى بآبائنا الأوائل). فالتخفُّف من الثياب في أمريكا ليس الغرض منه إثارة الفتنة (كما هو الحال في بعض الحضارات!) وإنما الغرض منه هو التبسيط، ولذلك فالمرء يفزع من منظر الفتيان والفتيات منكوشي الشعر المرتدين الهلاهيل والخِرَق.

وبحث المواطن الأمريكي العادي عن البساطة الطبيعية الأولى، قبل تحوُّلنا إلى مخلوقاتٍ اجتماعيَّةٍ تاريخيَّةٍ؛ يتَّضح أيضًا في كُرهه العميق للمدينة وزِحامها. وحينما كنت أذكر لأصدقائي أنني لا يمكنني أن أحيا إلا في مدينةٍ مثل نيويورك، أو على الأقل بالقرب منها؛ كانوا لا يفهمون ما أعني على وجه الدِّقَّة، فالحياة المثْلى بالنسبة للأمريكي العادي هي الحياة بجوار الطبيعة أو في «الريف»، بهدوئه الفردوسي على حدِّ قولهم. وعلى الرغم من أن ذلك الأمريكي العادي يعيش عادةً في منزل من دورين تحيطه حديقةٌ صغيرةٌ مُحاطةٌ بالسِّياج والأشجار، وعلى الرغم من أن مراكز التبضُّع تبعُد عادةً عن مناطق السُّكنى بضعة كيلومترات (وهذا هو الجنون بعينه في نظري)، إلا أن ذلك الأمريكي دائم التَّململُ والشكوى من الزِّحام؛ لأنه يودُّ الحياة بمفرده إن استطاع، مثل إنسان روسو الذي يعيش على الفطرة والطبيعة؛ دون أن تفسده الحضارة والمدنيَّة. وقد يُقال إن الأمريكي العادي الذي يودُّ أن يحيا على الفطرة يرغب في امتلاك عربتين وثلاجة وغسالة أوتوماتيكية وجهاز تسجيل وفتَّاحة علب كهربائية؛ وفي ذلك بعدٌ عن الطبيعة. لكن وجود تلك الأشياء لا يُفسد بساطة حياته، فالتَّاريخ والمجتمع، وليس الآلات؛ هما اللذان يأتياننا بالخبرة التي تفسد علينا فردوس البراءة الأولى.

وإذا قارنَّا سلوك الأمريكي بسلوك المصري في هذا المضمار، للاحظنا مرَّةً أخرى الفروق الواضحة؛ فطموح الإنسان المصري يتلخَّص في أن يقطن بالقرب من أهله وعشيرته وأسرته، ويا حبَّذا لو كان الجميع في القاهرة: قلب العروبة النابض!

ولأن الوجدان الأمريكي يمرح في براءته الأولى غير مُثقل بالتاريخ؛ نجد أن الأمريكي لا يؤمن بأيَّة مقدَّساتٍ أو حرماتٍ أو طقوسٍ، فكل شيءٍ بالنسبة له خاضعٌ للبحث بل والتجزؤ، كأن الكل الحي يُعادِل جِماع أجزائه الميتة. بل إن التاريخ نفسه (أو ما هو موجودٌ منه) يتحول إلى شيءٍ أو موضوعٍ للتأمُّل أو إلى لحظاتٍ زمنيَّةٍ مُتتاليةٍ، وليس كيانًا حيًّا مُركَّبًا يمتزج فيه الحاضر بالماضي بالمستقبل؛ ولعل هذا يفسِّر ولع الأمريكيين بالتصنيف وتقسيم التَّاريخ إلى مراحل متمايزةٍ أو خاناتٍ ضيِّقةٍ. فالقرن العشرون يُقسَّم إلى أوائل القرن، ثم العشرينيات الرومانتيكيَّة، فالثلاثينيات الثوريَّة، فمرحلة الحرب العالمية الثانية، فعصر أيزنهاور والماركسيَّة، فعصر كاميلوت (بِلاط الملك آرثر المشهور بجون كنيدي!)، بل إنني فوجئت حينما شاهدت فيلم «القط فريتز» في زيارتي الأخيرة؛ أن الفيلم يُعالِج أواخر الستينيات وكأنها جزءٌ من الماضي السحيق الذي انقطعت كل وشائجه بالحاضر؛ عصرٌ كانت تعيش فيه شخصيَّاتٌ يفتِرض الفيلم أنها مختلفةٌ تمام الاختلاف عن شخصيَّات أوائل السَّبعينيَّات! إن الوجدان الأمريكي هو حقًّا وجدان الرَّفض للتَّاريخ والتُّراث، بل وأي فكرٍ مُسبَقٍ عن الواقع؛ وجدانٌ تُسيطر عليه الفلسفة البراجماتية أو الذرائعية سيطرةً كاملةً.

وتنطلق هذه الفلسفة من افتراض أن العالم ليس فيه نظامٌ واضحٌ، إذ إنه شيءٌ نسبيٌّ مُتغيِّرٌ (وهذه الفلسفة تذكِّرنا بالسفسطائي القديم الذي كان يعلم الناس، نظير مبلغٍ يدفعونه؛ أن العالم في حالة سيولةٍ دائمةٍ، وأنك لا تستطيع أن تستحمَّ في نفس النهر مرتين). هذه السيولة التامَّة جعلت من المجتمع الأمريكي مجتمعًا علمانيًّا بمعنى الكلمة؛ فلا تُسيطر عليه أية تصوُّرات كليَّة عن طبيعة الإنسان والكون. وعلمانيَّة المجتمع الأمريكي الكاملة، وتحرُّره من الوعي الأخلاقي التاريخي؛ جعلت العقل الأمريكي ديناميًّا ومتحررًا إلى أقصى الحدود، ومُتطلعًا إلى معرفة كل شيءٍ، بغضِّ النظر عن الاعتبارات الخلقية أو الجمالية، أو حتى النتائج العملية أو الإنسانية لهذه المعرفة. وعلى سبيل المثال، كتب مؤلفٌ أمريكيٌّ دراسةً عن «حسابات» جورج

واشنطن، مؤسس الدولة الأمريكيَّة؛ ليثبت أنه كان مُختلسًا. وكنت أعرف صديقًا ماركسيًّا يكتب كتابًا عن حياة فلاديمير إليتش الجنسية، وصديقةً تكتب بحثًا عن الشذوذ الجنسي بين البلاشفة، وصديقًا ثالثًا يكتب عن عدد صور الدَّم في المسرحيَّات الشعرية الإنجليزية في القرن السابع عشر. وقد يكون من المفيد معرفة ما إن كان واشنطن مختلسًا أم لا، وإن كانت حياة فلاديمير إليتش الجنسية سوية أم لا، ومدى شيوع الشذوذ الجنسي بين البلاشفة، وصور الدَّم في المسرحيَّات الشعرية الإنجليزية في القرن السابع عشر، ولكن كل الاستنتاجات التي سنصل إليها ستظل مجرد تفاصيل مُبعثرة، إن لم تُوضَع داخل إطارٍ تاريخيٍّ فلسفيٍّ شاملٍ.

ولكن الأمريكي لا يشغل باله بهذا الإطار، لأنه لا يحبُّ أن يصدِّع رأسه بالتفكير في الحقيقة؛ وإنما يحاول دائمًا فعل ما يريد، وما تمليه عليه الاعتبارات النفسية الذاتية أو العملية المباشرة («اعرف نفسك»؛ كان هو شعار سقراط والفلسفة القديمة، أما إمرسون الكاتب البورجوازي الأمريكي وآبي هوفمان زعيم «اليبي Yippie»؛ فهُما يُناديان بأن تفعل الشيء الذي يُرضيك، فتحقيق الذَّات وليس معرفتها هو الخير الأسمى).

إن المجتمع الأمريكي مجتمعٌ ذرائعيٌّ لا يشغل نفسه بالحقيقة النسبيَّة التاريخية، ولا يبحث إلا عمَّا يزيد من راحته وهنائه الماديين. والباحث عن الحقيقة سيجدها في كل ما يزيد الإنتاج وما يثبت كفاءته بغضِّ النَّظر عن قيمته الإنسانية، وهذا تعريفٌ كمِّيٌّ للحقيقة يحوِّلها إلى حكمٍ يمكن تجزئته وقياسه، وهو تعريفٌ «ديمقراطي» لأنه يساوي بين كل الأشياء، وينفي كل تدرُّجٍ في عالم المعرفة والقيمة. فليس هناك أعلى ولا أسفل، ولا يمين ولا يسار، والماديَّات تساوي المعنويات، والرُّوح تساوي الجسد، والجميل لا يختلف عن القبيح، والجاهل لا يختلف في عمله وحكمته عن العالم، فالمعيار الوحيد هو النجاح. ويتغنَّى ويتمان، شاعر الذات الأمريكيَّة الديمقراطيَّة؛ بهذه المساواة قائلًا:

أنا شاعر الجسد وأنا شاعر الروح،
ملذَّات الفردوس معي وآلام الجحيم معي.

إنه لا يفرق بين الموت أو الحياة، أو حتى بين الإنسان والحيوان؛ لأنه حينما ينظر إلى الحيوانات، فهو يرى نفس القانون يسري عليه وعليهم، وهذا هو مُنتهى المساواة الكونيَّة!

ولكن رغم كل هذه «الديمقراطيَّة»، فإن الدَّارس للحياة السياسيَّة الأمريكيَّة يلاحظ أنها تسودها روحٌ من المحافظة والرجعيَّة؛ فاليسار الأمريكي رغم نشاطه لا يزال واقفًا على الهامش سجين أسوار الجامعات. أما الحياة السياسية الحقيقية، فيسيطر عليها حزبان ليس لهما برنامجٌ سياسيٌّ واضحٌ، ولا يختلف الواحد عن الآخر اختلافًا ذا بال. على عكس الحياة السياسية في البلاد الرأسمالية الغربية، حيث اليسار قويٌّ نسبيًّا وله وزنه الذي يحسب له حسابٌ كما في إيطاليا وفرنسا، وهي بلادٌ تتَّسم بالتنوُّع الحزبي كما في إنجلترا وألمانيا الغربية.

وتتضح رجعيَّة الحياة الحضاريَّة الأمريكيَّة في موقف الكنائس التي لا تزال مواقع ارتكاز لليمين الأمريكي، خاصَّةً كنائس الجنوب، بينما نجد حوارًا دائرًا بين بعض الفِرق المسيحيَّة في أوروبا وبعض المفكرين الماركسيين. وقبل الستينيات كان من المستحيل تقريبًا أن تجد أستاذًا جامعيًّا في أمريكا يعتنق الفكر الماركسي علانيةً. وأذكر في عام ١٩٦٤م، حينما كنت أدرس للدكتوراه في جامعة رتجرز؛ ألقى البروفسور جينوفيزي، أستاذ التاريخ الأمريكي؛ محاضرةً استنكر فيها التدخل الأمريكي في فيتنام، فقطع برلمان الولاية كل المعونات المالية عن الجامعة، التي اضطرت إلى إنهاء عقده على إثر ذلك (يجب الإشارة إلى أنني لاحظت في زيارتي الأخيرة أن عدد الأساتذة اليساريين الذين يشغلون وظائف دائمةً؛ قد زاد بشكلٍ ملحوظٍ، لكن هذا لا يُغيِّر من الصورة العامَّة للمجتمع الأمريكي).

فما هو سرُّ هذا التناقض بين العلمانية والديمقراطية من جهةٍ، والرجعيَّة والمحافظة من جهةٍ أخرى؟ أعتقد أنه من الممكن فهم هذا التناقض إذا ما تفحَّصنا الرؤية البراجماتيَّة ذاتها. فالرؤية البراجماتيَّة بجعلها «النجاح» المعيار الوحيد للحكم على أي شيءٍ، وبإلغائها التاريخ والتراث؛ جعلت الحقيقة الوحيدة المقبولة هي الحقيقة السائدة، أو الحقيقة التي تُسهِّل لنا التَّعامل مع الواقع كما هو، وليس كما ينبغي أن يكون، وهي لهذا رؤيةٌ مُغاليةٌ في المحافظة. أما الرؤية الثورية فهي على العكس من ذلك؛ لا بد وأن تطرح تصورًا جديدًا للواقع مخالفًا لما هو قائمٌ، وإلا فيمَ ثوريتها؟ هذا التصوُّر يجب أن يستند إلى تحليلٍ علميٍّ للواقع وللتاريخ، ولكنه يتخطاهما في الوقت ذاته؛ لأن الفكر الثوري يحاول تزويد المجتمع بإطارٍ جديدٍ يسمح للإنسان بتحقيق إمكانياته بشكلٍ أفضل. والمنطق الثوري يفترض دائمًا وجود تناقضٍ جدليٍّ بين ما هو كائنٌ، وما ينبغي أن يكون. فالقديم يحتوي جرثومة فنائه التي هي نفسها بذرة الميلاد الجديد، والعقل الإنساني الواعي الخلاق يحتوي الواقع والأشياء ويتخطاهما. هذا الجدل قد صُفِّي تمامًا في الفكر البراجماتي، وحل محله جدل دائريٌّ زائفٌ تُسيطر فيه الأشياء والماديَّات المصمتة على عقل الإنسان؛ فالمطلوب في الإطار البراجماتي الضيِّق هو أن يتعامل المرء بنجاحٍ مع الواقع. ولكن التَّعامل مع الواقع الماديِّ بالشُّروط التي يُميلها هذا الواقع لا يؤدِّي إلى تحوُّلاتٍ راديكاليَّةٍ، وإنما ينجم عنه تقدُّمٌ أو تمدُّدٌ أفقيٌّ كَمِّيٌّ دائريٌّ لا تختلف فيه نقطة البداية عن نقطة النهاية. إن البراجماتية رؤيةٌ ماديَّةٌ لا روح فيها ولا حياة، فهي تفترض خضوع عقل الإنسان للأشياء وحدودها، ولا تسمح لهذا العقل بتخطيها، وتفترض عدم وجود ذاتٍ إنسانيَّةٍ مُركَّبةٍ تحمل عبء وعيها التاريخي في مُقابل موضوعٍ يكتسب فحواه ودلالته من الإدراك الإنساني المركَّب له، وإنما يُوجَد شيء يخشع له الإنسان في صمتٍ كأنه أمام وثنٍ أو صنمٍ.

ومن أصدق الأدلة على فشل الرؤية البراجماتية ورجعيَّتها حرب فيتنام؛ فرجال الحرب الأمريكيون في البنتاجون لديهم أدقُّ عقول إلكترونيَّة في العالم (أو أدق آلات

حاسبة إلكترونيَّة؛ لأن العقل من هبات الله للإنسان)، كما أن لديهم تفاصيل تخصُّ كل كبيرةٍ وصغيرةٍ في فيتنام وجنوب شرق آسيا. وهم يغذون الحاسب الإلكتروني بهذه التفاصيل، فيلفظ لهم نتيجته العلمية الآلية بسرعةٍ باهرةٍ. استمروا في الحرب، فاحتمالات النجاح أعلى من احتمالات الفشل. فتتحرك آلة الحرب الضخمة وتدك القرى الفيتنامية في دقَّةٍ آليَّةٍ مُتناهيةٍ وحماسٍ براجماتي شديدٍ، ولكن الأرنب لا يخرج من القُبَّعة ولا يتحقق الفردوس، ويظل النجاح في فيتنام حلمًا يعذب الوجدان الأمريكي. إن ما ينقص الكمبيوتر هو ما ينقص البراجماتية؛ الرؤية التاريخية الشاملة، وهي رؤيةٌ لا يمكن إلا للعقل البشري الواعي الخلاق الوصول إليها، فهو وحده القادر على إدراك الرؤى المركَّبة والمختلفة كيفيًّا عما هو كائنٌ. هذه الرؤى، التي يسري فيها نبض التَّاريخ والحياة؛ تختلف اختلافًا جوهريًّا عن الأجزاء المفتتة الميتة التي يلتهمها الكمبيوتر في نهمٍ وشراهةٍ. وهي رؤى تساعد الإنسان على الانسلاخ من واقعه المباشر المبعثَر، وعن الحركة الدائرية المتكررة التي لا معنى لها؛ حركة عالم السلع والأصنام.

رابعًا؛ فلسفة الكاوبوي والحالوتس، دراسة في العنف البراجماتي

كان أستاذي البروفسور ديفيد وايمر يطلب مني دائمًا أن أقرأ أعمال الفيلسوف وليم جيمس؛ فيلسوف البراجماتية الأمريكيَّة. وحينما عُدت إلى أمريكا في عام ١٩٧١م أعطاني مختارات من كتاباته كي أقرأها. وكانت مفاجأةً لي أن من انتقى المختارات وقدَّم لها هو: هوراس ماير كالن، تلميذ وليم جيمس والمفكر الصُّهيوني مؤلف كتاب: «Utopians at Bay»؛ فقرَّرت في التوِّ قراءة كلًّا من المختارات والكتاب، لأدرس كيف يفكِّر البراجماتي الصُّهيوني وكيف يدرك الواقع. لكن تعاملي مع البراجماتية لم يبدأ من خلال صفحات الكتب، وإنما في فناء جامعة كولومبيا عام ١٩٦٣م، حينما كنت أجلس ذات مرةٍ بمفردي أمام المكتبة تحت تمثال «الألما ماتر Alma Mater»، وإذا بفتاةٍ تأتي وتحييني وتسألني عن جنسيتي؛ فأخبرتها:

عربيٌّ مصريٌّ، فابتسمت وقالت إنها خمَّنت ذلك من البداية، فسألتها عن جنسيَّتها، فأخبرتني أنها يهوديَّةٌ، ودهشت لأنها أخبرتني عن دينها وليس عن جنسيَّتها. ثم استمر الحديث إلى أن وصلنا بطبيعة الحال للمسألة الفلسطينية واللاجئين، وساعتها كان تحفُّظي إزاء إسرائيل ليس تحفظًا سياسيًّا (باعتبارها قاعدة للإمبريالية) وإنما أخلاقيًّا (باعتبارها الدولة التي طردت الفلسطينيين)، ولذا أخبرتها أنه يمكن حلِ المشكلة بإعادة اللاجئين لديارهم، ففوجئت بزميلتي ثِلما شنِكل تتحدث عن تخلُّف العرب العلمي والتكنولوجي، وإنه لا أحقية لهم في فلسطين. لقد سقط الحقُّ التاريخي والإنساني فجأةً، وحل محلهما السِّلاح وفكرة البقاء للأصلح. وبعدها أينما سرت وأينما تحدثت عن فلسطين؛ كان الشعب الأمريكي البراجماتي لا يتحدث إلا عن فوَّهة المسدس، ومَن أسرع مِن مَن، ومَن قَتَل قبل مَن! حقًّا هذا زمن الحق الضائع كما يقول الشاعر المصري.

لهذا ترتبط البراجماتية في ذهني بالعُنف الذي لا عقل له، وحينما قرأت في كتاب المختارات، تحقَّقت كل قناعاتي من أن فلسفة جيمس، رغم غطائها الإنساني المرن البرَّاق؛ تُخفي الحدَّ الأقصى من العنف. والفلسفة البراجماتية اشتقَّت اسمها من الكلمة الإغريقية «براجما»، أي فَعَل؛ فهي فلسفةٌ تدَّعي دراسة السلوك الإنساني دون أوهامٍ نظريَّةٍ عن التَّاريخ أو الحقيقة، وأنها تشجِّع الفعل وتقلِّل من أهمية التنظير. وبالفعل يبدأ هذا الفيلسوف الرقيق المؤمن بطرح التقاليد جانبًا، التقاليد الخاصة بطرق التفكير وعادات الحياة؛ وذلك حتى يؤكد استقلالية الفرد وحقه في إحراز النَّجاح ودرجة التميز والامتياز التي تقع داخل مجاله، حسب تصوره، وبالطريقة التي تُناسبه، وبجهوده الخاصة، وحسب درجة المخاطرة التي يخوضها أثناء صراعه، الذي لا نهاية له؛ في أن يعيش في عالمٍ متغيرٍ لم يخلق من أجله، العالم الذي لا ضمان فيه لأيِّ شيء. لقد كان جيمس يؤكد في مذكراته وأحاديثه أنه سيقوم بأداء واجبه، مؤملًا أن الأشياء الخارجية هي الأخرى ستقوم بأداء واجبها حتى يَعُمَّ التَّناسق. ولكن دون أي ضمان أنها ستفعل. وغياب الضمان، حسب تصوره؛ هو

جوهر التجربة الإنسانية الحقَّة، إذ لابد وأن ينطوي موقف الإنسان في الحياة على عنصرٍ من التوتُّر النشط.

هذا عالمٌ تحفُّه المخاطر إذن، لا قوانين فيه ولا روابط، وهنا تبرُز أهمية الإرادة الفرديَّة المتحرِّرة من أيَّة قيودٍ أو أغلال. فالحقيقة هي ما تعرفه أنت عن الواقع، والحياة اليومية نراها ونلمسها ونشمُّها ونتذوَّقها، والتي نُكافح ضدَّها ونعمل معها ليست سوى تجربتنا لها. بل إن الأمر أعمق ذاتيةً من ذلك، فنحن، حسب تصور جيمس؛ لو آمنا بفكرةٍ ما لأننا شئنا ذلك، فهذا ليس بالضرورة «خداعًا»، فالواقع هو رؤيتي وقناعتي (تزعم البراجماتية أنها فلسفةٌ عمليةٌ واقعيةٌ)، وما العالم سوى تيارٍ من التغيُّر الذي لا نهاية له، ونحن الذين نقرِّر هذا أو ذاك. والمعرفة، كل المعرفة حسب تلك الفلسفة؛ نسبيَّةٌ وذاتيَّةٌ لا وجود لها خارج أذهاننا، والحقيقة ليست شيئًا موجودًا في الأفكار والرؤى ذاتها، وإنما هي شيءٌ يحدث لها أثناء استخدامنا إياها في المواقف العملية المختلفة؛ وبذا يُصبح الإنسان حرًّا في أن يصدق أي شيءٍ، طالما أن تصديقه أو عدم تصديقه لا يتناقض مع تجربته ومعرفته العمليتين (وهما مختلفتان اختلافًا بيِّنا عن وعيه الاجتماعي التاريخي).

أما القيم الإنسانية العالمية الشاملة، التي تتسم بشيءٍ من الثبات؛ فهي في الواقع قيمٌ اتفقنا نحن وضعيًّا على أنها عالميةٌ وشاملةٌ، بينما هي في حقيقة الأمر ليست كذلك. فكل شيءٍ نسبيٌّ متغيِّرٌ، والشيء الحقيقي ليس هو الشيء العقلاني (المطلق) كما يذهب هيجل، وليس هو ما يتَّفق مع القِيَم الأخلاقيَّة والدِّينيَّة كما في معظم الأديان السماويَّة، وليس هو ما تُعبِّر عنه القوى الكامنة الوليدة داخل المجتمع الإنساني كما ينادي ماركس، وإنما الحقيقي هو ما ينجح. إن أي شيءٍ ينجح في إحراز مكانةٍ خاصَّةٍ به ويفرض نفسه على تيَّار التَّغيُّر؛ تصبح مكانته قائمةً وثابتةً، فالطبيعة تلد كل شيءٍ ولا تتحيَّز لأيِّ شيءٍ، ولا يُوجَد أيُّ شيءٍ أحق من أيِّ شيءٍ آخر، أو فضيلةٌ أهمُّ من فضيلةٍ أو رذيلةٍ أخرى. وكل شيءٍ لا يزال في طور التكوين، والتغيُّر والنُّمو هما سمة كل شيءٍ سواء في حياة الإنسان أو في الشيء العابر الذي لا يعيش إلا

لعدة ثوانٍ. وليست الطبيعة الخارجية وحدها هي المتغيرة المتقلبة، فالطبيعة الإنسانية هي الأخرى ليست أقل تغيرًا ... والخير والحقيقة والجمال والعقلانية ليست أمورًا أساسيَّةً، فهي ليست أمورًا مُعطاةً؛ وإنما هي مرتبطةٌ بالنتائج. إنها أمورٌ تظهر في النهاية بعد أن نكون قد مارسنا ما أردنا ممارسته.

على قمَّة هذا التغيُّر الدَّائم وعلى قمَّة هذه الحرِّيَّة الكاملة يقف «العبقري». ويميز الفيلسوف البراجماتي بين البشر والعباقرة، فبينما يقوم المجتمع بصناعة الأفراد العاديين، عليه تقبُّل العباقرة باعتبارهم «مُعطى»؛ تمامًا كما يتقبل داروين «الطَّفرات» في الطبيعة، فهي ليست جزءًا من التطور العادي. وحتى إذا كانت مرتبطةً بالطبيعة ونابعةً منها، فهي على الأقل مرحلةٌ مختلفةٌ كيفيًّا عن بقيَّة المراحل التي سبقتها. وعلاقة العبقري بالبيئة تكاد تكون علاقةً غير جدليَّة، فهو بمثابة الخميرة التي تقوم بتغيير البيئة تمامًا؛ كما يغير وصول نوعٍ طبيعيٍّ جديد التربة الطبيعية، ويغير اتِّزانها النباتي والحيواني.

إن العبقري هو الحجر الصلب الوحيد الذي يقف أمام التيَّار المتغير، بل إن العباقرة يعيدون صياغة العلاقات الاجتماعية السَّائدة على نطاقٍ كبيرٍ أو صغيرٍ، و«ثروة الأمم» ليست في كفاح جماهيرها ضد الطبيعة ذاتها، وإنما هي: «عباقرتها».

هذا العالم البراجماتي الهادئ العملي، إن هو إلا عالمٌ نيتشويٌّ داروينيٌّ يمور بالتَّغيُّر الذي يعمي الأبصار، ويجرف كل شيءٍ في طريقه إلا العبقري؛ إنه ولا شكَّ عالم البقاء فيه للأكثر عبقريةً أو للأصلح. ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن هذا هو جوهر رؤية جيمس للإنسان، فالإنسان حَسَب تصوُّره هو الحيوان الوحيد الذي يفترس أبناء نوعه؛ فقد تكيَّف إلى الأبد مع حالة الحرب، ولا يمكن لسنوات السَّلام، مهما طالت؛ أن تمحو من الوجدان الإنساني الرغبة في الحرب. *«لقد وُلدنا كلنا لنحارب»*، بل إن الحرب هي الطبيعة البشرية في ذروتها. وسيُصاب المجتمع حتمًا بالعفن دونها، دون ذلك *«البذل الصوفي للدم»* كما يُسميه جيمس؛ وما سموُّ العقل بين سائر البشر إلا نتيجة الرغبة في السيطرة، أن تَذبح الآخرين أو تُذبح. يا إلهي! ماذا حدث

للهدوء البراجماتي العملي المرن الذي يتباهى به البراجماتيون ويتفاخرون؟ لقد ظهر نيتشه وداروين والسفك الصوفي للدماء، نعم «الصوفي»؛ في كتابات البراجماتي كما لو كنّا في عالمٍ بدائيٍّ رهيبٍ؛ عالم روسو بعد أن سقطت أقنعته المتحضِّرة. نقول نيتشه وداروين، ولكن في تصوري أن داروين هو البنية الحقيقية الكامنة، والتعبير الفلسفي عن رؤية نيتشه وجيمس. إذ إن داروين، أو لكي نتوخَّى الدِّقَّة، الدَّارونيون؛ حينما ينظرون إلى ظاهرة الإنسان، فهم لا يُضفون عليها أي خصوصيَّةٍ، وإنما يرون الإنسان على أنه كائنٌ طبيعيٌّ/ مادي تنطبق عليه كل القوانين الطبيعية؛ شأنه في ذلك شأن أيِّ كائنٍ آخر دون أي تمييز خلقي أو تاريخي أو جمالي. والقانون الذي يحكم الجميع هو قانون «البقاء للأصلح». وقد ورث نيتشه هذا المفهوم وطوَّره، وجعله أساس تطور المجتمع الإنساني وليس الوجود الطبيعي وحسب.

وجيمس ينتمي لنَمط من المفكِّرين البورجوازيين الذين يضعون الإنسان أمام خلفيَّةٍ طبيعيَّةٍ؛ مُسقِطين الخلفيَّة التاريخية تمامًا، أو إذا أبقوها فهي تظل في حدها الأدنى، قشرة؛ أو من قبيل الديكور ليس إلا. ونحن إذا استعرضنا آراء جيمس التي عرضنا لها من قبل، لوجدنا أن الخط الرئيسي فيها هو نزع الإنسان من سياقه التاريخي. فهذا الإنسان الذي يعيش في خطرٍ، في عالمٍ دائم التغيُّر لا ضمان فيه؛ هذا الفرد الذي يفعل ما يشاء، ولا يعرف إلا ما يجرِّب، ولا يُوجَد داخل نسقٍ متكامل من القِيَم والافتراضات، والذي يتطوَّر حسب قوانين تشبه قانون تطور الطبيعة؛ من مساواةٍ عمياء بين كل الأفراد إلى طفراتٍ كيفيَّةٍ تفرِّق بينهم، هذا الفرد هو بلا شكٍّ إنسان الطبيعة الذي لا تُوجَد عليه أيُّ قيودٍ، ولكنه في الوقت ذاته لا يمارس أيَّة حرِّيَّاتٍ؛ لأنه يعيش في عالم الصُّدفة. والحريَّة المطلقة والصُّدفة هما نفس الشيء. ذلك الاستقطاب الحادُّ لا يحسمه إلا شيءٌ واحدٌ: العُنف، البقاء للأصلح، المسدس، الرَّدْع التُّكنولوجي، أسعار البورصة، أو العبقري باعتباره مُعطى طبيعي ... إلخ إلخ.

في داخل هذا الإطار الفلسفي لابد وأن يظهر نمطٌ إنسانيٌّ يجسِّد تلك الفضائل، أو تلك الرذائل، أو تلك الصِّفات التي لا هي بالفضائل ولا بالرَّذائل؛ لأنها قانونٌ طبيعيٌّ يعلو على الخير والشرِّ، إن أردنا استخدام المصطلح النيتشوي. هذه الشَّخصيَّة في كتابات جيمس هي الرائد الأمريكي أو الكاوبوي المؤمن بقدراته الخارقة للعادة على إخضاع أيِّ شيءٍ، وعلى غزو البريَّة العذراء (ولاحظ الخلفية الطبيعية لسلوك الرَّائد، فهو يتحرَّك دائمًا خارج التَّاريخ أو على هامشه).

ويؤكِّد كالن، محرِّر مختارات جيمس وتلميذه الصُّهيوني؛ أن موقف أستاذه من الواقع، بل والوجود الأمريكي ككل؛ يشبه موقف الرائد الأمريكي من عِدَّة وجوهٍ، فالشعب الأمريكي يستجيب للواقع استجابةً حرَّةً لم تقرِّرها من قبل عاداتٌ اجتماعيَّةٌ، أو أية عاداتٍ خاصَّةٍ استجلبوها من أوروبا معهم، فهم قد طرحوا هذا التَّاريخ جانبًا ليدخلوا في علاقةٍ مع عالمٍ لم يسبق له مثيل؛ عالمٍ محفوفٍ بالمخاطر ولا يمكن التنبؤ به. الدُّخول في تجربةٍ لا تُعرف نتائجها مُقدَّمًا؛ هذا هو جوهر تجربة الرَّجل الأبيض في أمريكا. إن الرَّجل الأبيض في أمريكا هو الرجل البراجماتي بالدَّرجة الأولى، والسوبر مان الحق، والكاوبوي الذي لا يهاب شيئًا ويبني بيته بجوار البركان، كما يخاطِر بكل شيءٍ، فيفقد كل شيءٍ أو يربح كل شيء. الصُّدفة والحرية المطلقة مرةً أخرى (وليس الحرِّيَّة النسبيَّة المقيَّدة بمعرفة قانون الضَّرورة).

لكننا لو تعمَّقنا قليلًا في هذه البِنْية الدَّارونيَّة النيتشوية، لنصل إلى أساسها الاقتصادي؛ لوصلنا إلى شخصيَّة التَّاجر، فالرَّائد هو التَّاجر الأعظم الذي يُتاجر بكل شيءٍ، ويخاطِر بكل شيءٍ حتى حياته وجسده. بل إنه يكاد يقترب من العاهرة في ذلك، فالعاهرة هي الإنسان-السِّلعة التي تصل إلى منتهى التموضع والانحراف الكامل عن الذَّات الإنسانية، حيث يدخل الإنسان في علاقةٍ موضوعيَّةٍ كاملة مع الآخرين، علاقة ليس فيها خيرٌ ولا شرٌّ، فيكون هو نفسه (الذَّات الخلاقة) الموضوع الذي يُستهلَك، والذَّات الأخرى موضوعًا آخر ومصدرًا للمال فحسب. إن الرَّائد يترك تاريخه وتُراثه وقِيَمه وأسرته، ويحمل مسدسه وجسده ليدخل في صراعٍ مع

الآخرين يكون هو الصَّائد أو الفريسة. وفي هذا الإطار يمكننا إدراك الجوهر الرأسمالي الكامن وراء عباراتٍ براجماتية نشطةٍ مثل «المخاطرة»، «الممارسة الحرة»، «عالم بلا ضمان»، «الصُّدفة»، «الحرِّيَّة الكاملة»، «مشروعٌ لا تُعرف نتائجه مُقدَّمًا».

ولعل الفارق الوحيد بين الرَّائد والعاهرة، يكمن في أن الأوَّل يحمل مسدسًا ويرتدي ملابسه (والرَّدع المسلح هو أدنى مستويات الحضارة، فقد فصل الإنسان نفسه عن الطبيعة، وتحوَّل من فريسةٍ إلى صيَّاد حينما اكتشف السلاح)، أما العاهرة فهي تعود للطبيعة بالفعل؛ فلا تحمل سلاحًا ولا ترتدي ملابسًا. ولكن يظل الفارق بينهما طفيفًا، على مستوى الحدِّ الأدنى، الذي يفصل بين الطبيعة والتاريخ. نحن هنا في سوق الأوراق الماليَّة؛ في السوق الذي لا نُقابِل فيه بشرًا، وإنما نتصارع معهم فنصرعهم أو يصرعوننا. إن الرائد حقًّا هو التَّاجر الأعظم أو البورجوازي دون أقنعةٍ.

وقد نشأت البراجماتية في تربة الرأسماليَّة النَّاهضة الواثقة بنفسها والمؤمنة بأخلاقيَّاتها، أو لا أخلاقيَّاتها؛ المبنية على التنافس والصِّراع والفردية. ومن هنا كانت مثاليتها وعمليتها المفرطة؛ فهي مثاليةٌ مفرطةٌ بسبب عُمق إيمانها بمقدرة الرأسمالي الفرد على أن يأتي بالعجب العُجاب، وأن يخلق فائض القيمة من العدم بأفكاره الذَّكية ومقدرته على المناورة والبيع بأسعارٍ مرتفعةٍ. وهي مثاليَّةٌ في التزامها بفكرة الفرد الحرِّ الرُّوسوي؛ الذي يتحرك بمفرده ويوقِّع على ورقةٍ تعاقُديَّةٍ هي كل ما يربطه بالمجتمع أو الدولة، فالدولة هي القيد الوحيد الذي ارتضاه لنفسه، ليحقِّق لنفسه الأمن؛ أي إنه حتى بعد أن يوقِّع العقد، يظل هو المحور والمركز (ولنقارن ذلك بفكرة الممارسة الجماعيَّة عند ماركس، أو فكرة العمل الإنساني الجماعي كمصدرٍ لكل قيمةٍ، فالإنسان كجماعةٍ قد خلق نفسه ولا وجود له خارج هذه الجماعة؛ ولذا تظل فكرة الحدود التاريخية من صميم المفهوم الماركسي للحرية).

والرأسماليَّة رغم مثاليتها المفرطة عمليَّةٌ مفرِطةٌ، لأنها ترتكز على السُّوق الذي يحدِّد كل القِيَم حسب دوراته اللامُتناهية، وحسبما تمليه قوانين العرض والطَّلب، التي لا

يمكن لإنسانٍ التَّحكُّم فيها. أي إن الإنسان صانع كل شيءٍ، لا يملك في الوقت ذاته من أمره شيئًا. لتظلّ الرأسمالية في مثاليتها وعمليتها، أي في حدَّيها الأقصى والأدنى؛ منفصلةً عن فكرة القيمة ومرتبطةً بفكرة الثمن، والعرض والطلب، والشّراء بأرخص الأسعار والبيع بأغلاها. ولعل هذا يفسّر إيمان المجتمعات الرَّأسماليَّة المجنون بفكرة التَّقدُّم، التَّقدُّم دائمًا وبأيِّ ثمنٍ ونحو أيِّ اتجاهٍ وبِغضِّ النَّظر عن مقدار السَّعادة أو البؤس الذي يحيق بالبشر؛ التقدُّم والحركيَّة اللذين يُصبحا هدفًا في حدِّ ذاتهما، تمامًا مثل دائريَّة الطبيعة العبثية التي تتحرك دون توقُّفٍ. هذا الاستقطاب العميق، والمزج الخرافي بين الحريَّة والحتمية، والمثالية والعملية، هذه العودة للطبيعة، الروسوية – الداروينية – النيتشوية؛ وهذا التعالي الكامل على الأخلاق، والالتزام اللاعقلاني بالحركة «الطبيعة»؛ هو أيضًا البنية الكامنة في الفكر الصُّهيوني. فالصُّهيونيَّة في جوهرها محاولةٌ لتعرية فلسطين من تاريخها وتحويلها لمجرَّد «أرضٍ»؛ شيءٍ ينتمي إلى عالم الطبيعة أكثر من انتمائه لعالم التاريخ. وهي أيضًا محاولةٌ لإسقاط حقِّ الإنسان الفلسطيني التاريخي في أرضه (باسم التقدُّم) حتى يصبح مثل الهنود الحمر، إنسانًا طبيعيًّا كونيًّا لا تحدُّه حدودٌ؛ وبذا يمكن اصطياده كالفريسة دون أيِّ هلعٍ أو وجلٍ أخلاقيين. بل وتحوِّل الصُّهيونية اليهود أنفسهم إلى مخلوقاتٍ مثاليَّةٍ لا تاريخيَّةٍ آليَّةٍ في بساطة الظواهر الطبيعية وتحددها (وإن كانت الصُّهيونية تحوِّل فلسطين إلى أرضٍ، أي أرض، وإلى «آرتس إسرائيل» في ذات الوقت، لذا فالفلسطينيون يُذبحون باسم التقدُّم التكنولوجي والتلمود في ذات الوقت).

ويرى بعض دارسي البراجماتية أن إنكار الأمريكيين لقيمة التاريخ مردُّه أنهم نشئوا في العالم الجديد وليس في العالم القديم، وأن الهنود الحمر كانوا يعيشون في اتِّساقٍ مع الطَّبيعة وأن حضارتهم ذاتها لم تصل إلى وعيٍ تاريخيٍّ بذاتها، ولذا كان من الحتمي على اليانكي أن يُنكِروا التاريخ في بلدٍ لا تاريخ له. ولكننا نعتقد أن لا تاريخية الوجدان الأمريكي تعود إلى بناء البراجماتية الكامن ذاته، فالهنود الحمر رغم أنه لم يكن عندهم وعيٌ بالتَّاريخ؛ إلا أنهم كانوا يشكِّلون نوعًا من الوجود التاريخي،

كما أن الاستيطان الأسباني البرتغالي (الكاثوليكي) في أمريكا اللاتينية لم يكن مبنيًّا على إنكار التَّاريخ. ولعل الاستيطان الصُّهيوني في فلسطين أكبر دليل على أن إنكار التَّاريخ جزءٌ من بناء البراجماتية ذاته، فالصُّهيوني لم يكن عنده عذرٌ، ففلسطين كانت عربيةً وجزءًا من تاريخٍ عربيٍّ قديمٍ متماسكٍ. ومع ذلك نجده يصرُّ على القول بأنها أرضٌ بلا شعبٍ (وإنْ كان وضعُ أمريكا الخاص قد ساعد ولا شك على تدعيم أسطورة الفردوس اللاتاريخي).

هذه النزعة اللاتاريخية اللاأخلاقية المثالية/ العملية التي تُسمَّى البراجماتية والصُّهيونية تظهر في صفحات كتاب البروفسور البراجماتي الصُّهيوني؛ كالن: المثاليون في مأزق. إذ يلاحظ كالن العلاقة الوجدانية الوثيقة بين إسرائيل والولايات المتحدة، بل والتشابه البنيوي بينهما. فهو في بداية كتابه يؤكِّد لقارئه أن كلًّا من إعلان استقلال إسرائيل والولايات المتحدة، هما تعبيرٌ عن مسيرة الإنسان نحو الحريَّة، ونحو مزيدٍ من التقدُّم. وهو في كل صفحةٍ من صفحات الكتاب يعرفنا بنفسه على أنه «أمريكيٌّ» يلاحظ بعيونٍ أمريكيَّةٍ، ونجده أمام إحدى مستعمرات الناحال يتذكَّر كتابات جيمس. وهو في أول صفحةٍ من صفحات الكتاب يذكر لنا قصةً طريفةً لا بد وأنه، مثلنا؛ يعرف مغزاها العميق. فقد قابل البروفسور الصُّهيوني مهاجرًا من البلاد العربيَّة يعرف التِّلمود معرفةً كاملةً ويتحدث العبرية بلكنةٍ عربيةٍ أفريقيَّةٍ! وقد أصر عالمنا التلمودي أن يمسك بيد البروفسور الصُّهيوني اليُمنى، وليست اليُسرى؛ لأسبابٍ تلموديةٍ لا أعرفها، ثم يتحدث كالن عن أسباب هجرة التلمودي الإسرائيلي: *«وبغضِّ النَّظر عن الأفراح والأتراح؛ ترك الرَّجل وأسرته المنفى والأسر (بلاده العربية) وهاجر إلى الحرية في إسرائيل ... ومما لا شك فيه أن الماشيح سيأتي بعد هذه الخطوة (تجميع المنفيين)»*[1]، وحينما عرف التلمودي إياه أن البروفسور أمريكي الجنسية، حاول تقبيله على حاجبه (لأسبابٍ تلموديةٍ لا أعرفها أيضًا)، وقد تسببت مقاومة البروفسور لهذه الهجمة في اكتفاء التلمودي بتقبيله على

(١) لا يخبرنا البروفسور الصُّهيوني اليانكي عن رأيه في هذه الأحلام التلمودية.

كتفه فحسب، واستمرَّ في تقبيله عدَّة قُبلاتٍ. وفي غمار تلك العواطف التلمودية البراجماتية، نكتشف أننا نشهد قُبُلات زواج الأيديولوجيتين البراجماتية الصُّهيونية والبراجماتية الأمريكيَّة. فقد أخبر العالم التلمودي البروفسور اليانكي، والدموع تترقرق في عينيه؛ أن يهود الولايات المتحدة هم وسيلة الله التي أدت إلى خلاصه. إن تمويل يهود الولايات المتحدة للصهيونيَّة هو البناء التحتي البراجماتي للبناء الفوقي التلمودي، الذي أخرج للوجود بِنية مُدهشة تُسمَّى صهيون أو يسرائيل أو الدولة الصُّهيونية أو مدينة إسرائيل أو الدولة اليهوديَّة أو دولة اليهود، سمِّها ما شِئت؛ فإن ما يهمنا هو تلاقي العقليتين.

لا يكفُّ كالن عن التفلسُف في كتابه، فهو أستاذ فلسفةٍ لا يمكنه ملاحظة الأشياء دون وضعها في نَسَقٍ فلسفيٍّ كامل. وعالم كالن مثالي/ عملي براجماتي حتى النخاع، فحقُّ اليهود في فلسطين أمرٌ منطقيٌّ للغاية، بسبب شعورهم القوي والجارف بمركزية إسرائيل في حياتهم. فأينما ذهبت تجد اليهود يتطلعون لآرتس يسرائيل ويحلمون بها، وهم في الوقت ذاته يذكِّرونك بأن وجود هتلر قد يتكرر في أيِّ مكانٍ. وبسبب هذه «الحالة الشعورية»؛ تصبح فلسطين من حق اليهود وليس العرب. ومما أدهشني، أنا الأيديولوجي المتعنِّت؛ رفض البروفسور البراجماتي لاستخدام بعض المقاييس البراجماتية ليتحقق من مدى قوَّة هذا الشعور وهل هو حقيقيٌّ أم زائفٌ. أليس من الواجب أن تخضع كل الأحاسيس للقياس، فإذا كان شعور اليهود في المنفى والأسر حقيقيًّا وقويًّا فعلا؛ فلمَ يمكُث غالبيَّة يهود العالم في ديارهم المهدَّدة بالهتلرية؟ وإذا كان حق العودة يستند إلى قوة الشعور، فأعتقد أن الفلسطينيين أيضًا أثبتوا قوة شعورهم!

وفكرة الحقوق التي تستند إلى حالةٍ شعوريَّةٍ تصدُر عن رؤيةٍ غريبةٍ للتَّاريخ، فالتَّاريخ بالنِّسبة للبروفسور حالةٌ شعوريَّةٌ وإيمانٌ فحسب. ومن المثير للدَّهشة أن البروفسور البراجماتي يتَّفق في ذلك مع صديقه التلمودي، فالتلمود قد ساوى بين عقائد اليهود وتاريخهم المقدَّس وتاريخهم الحقيقي. فإن أخبر الله اليهود في التوراة أنه

وعدهم آرتس يسرائيل، فقد أصبحت هذه الرقعة من الأرض أرضهم عبر التاريخ. إن التاريخ، كما يقرِّر البروفسور كالن؛ *«هو الماضي كما يتذكره الإنسان»*. ولكن التاريخ كوجودٍ ذاتيٍّ أو كذِكرى فحسب، هو الأسطورة بعينها. فالتَّاريخ ليس مجرد تذكرنا إياه، وإنما هو كيانٌ موضوعيٌّ نحاول نحن استرداده من الماضي، واسترداد الماضي شيءٌ ووجوده في الذِّهن شيءٌ آخر. وإذا كان التَّاريخ هو الأسطورة التي نتذكَّرها أو الكتاب المقدَّس الذي نؤمن به، فالعالم الخارجي يختفي وندخل في عالم الرؤى والفردوس والمثُل العليا التي لا تقوم بسند. ويقتبِس كالن من أعمال هنري ديفيد ثورو، المفكِّر الأمريكي الترانسندنتالي البورجوازي؛ الذي يقول: *«إن بنيت قِلاعك على الرمال، فلا تندم على ما فعلت؛ فهذا هو المكان الذي يجب أن تبنيها فيه، وما عليك الآن إلا أن تضع قاعدةً تحتها»*، تمامًا مثل الجدل الهيجلي الذي يقف على رأسه. ولو نقَّب عالمنا الصُّهيوني قليلًا في كتابات ثيودور هرتزل، لوجد عشرات العبارات التي لا تختلف من قريبٍ أو بعيدٍ عن عبارة ثورو. فالزعيم الصُّهيوني كان دائم الحديث عن المثل الأعلى؛ عن الفكرة التي سيضع تحتها أساسًا راسخًا فيما بعدُ.

ويحاول كالن أن يشرح لنا فكرته، عن التاريخ كذِكرى؛ في إحدى عباراته التي لها جرسٌ يُذكِّرنا بأقوال الأنبياء في العهد القديم: *«تحوَّلت الرغبة إلى نبوءةٍ والنبوءة بدورها تحوَّلت إلى ذكرى، والذكرى أُعيد تشكيلها في وعدٍ والوعد تحوَّل إلى مشروعٍ»*. وبغضِّ النَّظر عن موضوع الرَّغبة، فإنَّ كل ما يهمنا هو طريقة إدراك الواقع والتعامل معه، فالرَّغبة تحوَّلت إلى نبوءةٍ وتاريخٍ، باعتبار أن الذكرى هي التَّاريخ، الذِّكرى والوعد والمشروع ترجمت نفسها إلى مشروع استيطان فلسطين، أو تعميرها، أو تفريغها من سُكَّانها.

يذوب التاريخ إذن في وجدان مَن يرغب ويصبحُ بلا حدودٍ. ثم يظهر جيلٌ من حَمَلة التُّراث اليهودي، «المثاليون»؛ الذين يحلمون ويفرضون حلمهم دون أيِّ اعتبارٍ لأيِّ تاريخٍ، فالتَّاريخ هو ما تشاء (لنذكُر أنفسنا دائمًا أن البراجماتية تُعتبر فلسفةً عمليَّةً!). والطوباويون الذين يشير إليهم عنوان الكتاب هم الإسرائيليون؛ كل

الإسرائيليين. ويخبرنا كالن أن اليوتوبيا حالةٌ عقليَّةٌ، وهذا أمرٌ لا جِدال فيه؛ ولكن ما ينساه البروفسور هو أن اليوتوبيا – مثل الحالات العقليَّة – أنواع: فهناك الفردوس السماوي الذي نحلم به ونحمله في قلوبنا أينما سِرنا ولا نتوقَّع أبدًا تحقيقه هنا، ولذا فنحن نضع فيه آمالنا؛ كل ما لم ولن يتحقق «الآن» و«هنا»، إنه حلمٌ فردوسيٌّ كامل نحن في أمسِّ الحاجة إليه رغم استحالة تحقيقه ... وهناك اليوتوبيا الثورية التاريخية، وهي أيضًا تستند إلى حلمٍ ولكنه حلمٌ ينبع من الواقع ويعود إليه، محدودٌ بحدوده الزمانيَّة والمكانيَّة وبإمكانياته الحقيقية، وحيث إنه حلمٌ نابعٌ من الواقع ليعود إليه، فلا يحقُّ لي إطلاق العنان لوجداني، وإنما يجب البقاء داخل حدود الزمان والمكان. فاليوتوبيا إذن حالةٌ عقليَّةٌ في بعض وجوهها، والحالة العقليَّة درجاتٌ. لكن كالن البراجماتي (نعم البراجماتي) لا يعرف حدودًا، فاليوتوبيا هي مادة الأشياء التي نأمل فيها، وهي تقوم شاهدًا على أشياء غير منظورةٍ دون أن تحدَّها الحدود. وفي إسرائيل الموعودة يكتشف هذا اليانكي الصُّهيوني أن كل الرِّجال والنساء هنا طوباويون، وأن أرض بيولاه (الفردوس): *«هي الرؤية التي لم تتجسَّد بعدُ في أيِّ مكانٍ ولا أيِّ زمانٍ، ولن تتحقَّق في الواقع في أيِّ مكانٍ ولا في أيِّ زمانٍ على الأرض، ولكنها دائمًا على وشك التجسُّد في هذا المكان: هنا، وفي هذا الزمان: الآن»*. إن الفردوس الذي يريده كالن هو فردوس الآن وهنا؛ وهو بذلك يكون أمريكيًّا حقًّا، وحتى النُّخاع. وإذا كان هناك أي شكٍّ في مكان الفردوس الذي يحلم به كالن، فإنه يُزيله تمامًا بقوله إن بعض الأديان قد حددت اليوتوبيا على أنها «غدٌ» سماويٌّ لن يلحق به الإنسان بتاتًا في يومه الذي يعيشه. ولكن تُوجَد أديانٌ أُخرى ترى أن «غدًا» ما هو إلا يومٌ يعمل ويحارب من أجله المؤمنون، ويحاولون تحقيقه في أيامهم الأرضية ليستمتعوا بحاضرٍ فردوسيٍّ. هؤلاء المؤمنون يحاولون يومًا بعد يومٍ تشييد مدينتهم الفاضلة التي يحلمون بها الآن وهنا. إنهم يريدون أن يحيوا فردوسهم في هذه الدنيا وليس بعد موتهم. الفردوس السماوي، كما يرى الصُّهيوني؛ قابِل للتحقيق إذن!

والطوباويُّون الإسرائيليون يقومون بالفعل بتشييد الفردوس السماوي-الأرضي، بأموال يهود الدياسبورا. وهم في محاولتهم تلك لا يفصلون بين المعجزات الإلهية، ومبادئ وممارسات رجال العِلم في معهد وايزمان أو التخنيون (معهد إسرائيل للتقنية). وعن طريق هذا التزاوج والتداخل بين المقدسات الدينيَّة المطلقة والحقائق العلميَّة النسبيَّة؛ يتحقَّق الفردوس المؤسَّس على جثث الفلسطينيين والنابالم.

ويبدو أن الطوباويين أكثر تواضعًا من البراجماتي الصُّهيوني نفسه؛ فقد أخبره أحدهم: *«إننا بشرٌ عاديُّون، نُحارب مثل أيِّ شخصٍ آخر»، «ولكن»*، أجاب الفيلسوف؛ كلا وألف كلا (العبارة السابقة إضافتي العربية الخطابية) ألا يُوجَد ما يُميِّزكم عن الآخرين؟ هل كفاحكم مثل كفاح المصريين أو الروس أو الهنود أو الأمريكان؟ ويعني هذا أنكم تحاربون من أجل لقمة العيش فحسب؟ كلا وألف كلا (إضافتي الخطابية مرةً أخرى)، صحيح أنكم تحصلون على لقمة العيش، لكنها لا تغذِّي الجسد الذي يكد ويعرق، وإنما تُغذِّي تفرُّد الرُّوح؛ هذا التفرُّد الذي تعبِّر عنه كلمات مثل «يهودي» و«إسرائيلي». ثم يعود مرَّةً أخرى للذِّكريات والرُّؤى اليهوديَّة التي توحِّد هذا الشعب اليهودي، ونكتشف أن هذه الذكريات لها بريقٌ صوفيٌّ خاصٌّ؛ فهي تحوِّل الخبز الذي يتناوله الإسرائيليون إلى ما يشبه الخبز المقدَّس الذي يتناوله المسيحي في صلواته على أنه جسد المسيح. أي أن المجتمع الإسرائيلي تحوَّل إلى ما يشبه التجربة الدينية والفردوس السماوي – آمين. لقد تداخل النسبي والمطلق تداخُلًا كاملًا، وانتهى الجدل والتاريخ. ما يتناساه أو ربما لا يعرفه هذا البراجماتي ذو الحواس الخمس، الفيلسوف الذي يُساوي بين المعجزات الإلهية والمنجزات الآلية وبين الفردوس السماوي والرَّخاء الأرضي؛ أن التجربة الدينية تجربةٌ فرديَّةٌ يمارسها الفرد ولو كان منتميًا لجماعةٍ. كما أن التجربة الدِّينيَّة لا تُغطِّي كل جوانب الحياة، فالحياة ليست صافيةً ولا فردوسيةً ولا مُطلقةً، وادِّعاء مثل ذلك الصَّفاء والفردوسية والإطلاق لإسرائيل هو جوهر الغيبية العلمية؛ فهو يُضفي الإطلاق والكمال على ما هو قائمٌ بالفعل، وعلى قوانين الحركة

السارية في المجتمع، بحيث لا يمكن إخضاعها لأيِّ نقاشٍ. إنها غيبيَّةٌ تخفي الجدل تحت قِناع العلمية.

لقد وصلنا إذن لأرض المطلق البراجماتي الذَّاتي، ولكن قبل أن نستمرَّ في رحلتنا مع كالن، لا بد وأن نعرض للجانب الآخر للمطلق البراجماتي وهو المطلق البراجماتي الموضوعي؛ إذ يبدو أن طريقة الإدراك البراجماتي تؤدي إمَّا إلى هذا أو إلى ذاك في ذات الوقت. فالبراجماتية، فلسفة الإرادة المطلقة؛ تدّعي أيضًا أنها تؤمِن بالحقائق الموضوعيَّة، والحقائق الموضوعيَّة وحدها؛ التي لا تقبل النِّقاش (أكاد أقول والتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها). وقد يبدو أن هناك تباينًا واضحًا بين المطلق البراجماتي المثالي والمطلق البراجماتي الموضوعي، ولكن بقليل من التمحيص نكتشف أن المثالية هي الوجه الآخر للموضوعية الميكانيكية. فالرَّصد البراجماتي للواقع مبنيٌّ على فصل العناصر عن بعضها وعن ماضيها، وبالتالي عن وزنها الفعلي؛ ثم يقوم الدَّارس بعد ذلك بتبويبها. فلو نظرنا للصِّراع العربي الإسرائيلي من منظورٍ براجماتي محضٍ؛ للاحظنا أن هناك طرفين للصِّراع: واحد عربي وآخر إسرائيلي، ثم للاحظنا أن العرب عندهم مطالب في فلسطين وكذلك الإسرائيليين، وأن العرب عندهم بعض الحق وكذا الإسرائيليين. وذلك حتى نصل إلى درجةٍ من الحيادية الرهيبة، فالموجبات هنا تُحيِّدُها الموجِبات هناك، والسلبيَّات تُحيِّدها نظيرتها من السلبيَّات. وإذا نظرنا إلى سيناء بنفس المنظور، فسنصل إلى نفس الدرجة من الحياديَّة والاتِّزان، فإذا قال العرب إن سيناء لنا؛ فالإسرائيليون يدَّعون نفس الشيء، وإذا قالوا إنها تاريخيًّا كانت تابعةً لمصر؛ دلل الإسرائيليون على عكس ذلك بالإشارة إلى أن سيناء كانت تابعةً للإمبراطورية العثمانية حتى أواخر القرن التاسع عشر، وأنهم الآن يمتلكونها. فالرَّصد البراجماتي هو عملية تراكمٍ كمِّيَّة للمعلومات لا رأس لها ولا قَدَم، وإنما ينتج عنها كومٌ هائل لا اتجاه له، وهو لا اتجاه له. لأن مضمونه لم يحدد عن طريق العناصر الكيفيَّة الموجودة خارج البناء ذاته. فالصِّراع العربي الإسرائيلي يتكوَّن حقًّا من عربٍ وإسرائيليين، ولكن العرب هم أصحاب المنطقة تاريخيًّا وفعلا، وهم

الأغلبية السَّاحقة التي كانت تقطُن في فلسطين، ولا يزالون هم الأغلبية الساحقة التي تحيط بفلسطين وتؤيد الفلسطينيين في مطالبهم، إذ لا يمكن فصل فلسطين عن المنطقة، ولذا فالإسرائيليون ليسوا طرفًا في الصراع، وإنما هم العنصر الدَّخيل الذي فرضته الإمبرياليَّة الغربيَّة. إذا نظرنا للقضيَّة بهذا المنظار التاريخي، لاختل التوازن ولتحدد الاتجاه، ولاكتسب كم المعلومات البراجماتية رأسًا وعقلا واتجاهًا. ونفس الشيء ينطبق على سيناء؛ فلو عدنا لمسار تاريخها لاكتشفنا أن المصريين عبر تاريخهم كانوا يهتمُّون بسيناء ويرسلون لها الجيوش والحكَّام، لأنها درع مصر الشرقي. وحتى حينما كانت سيناء تابعةً للإمبراطورية العثمانية، كانت مصر هي الأخرى تابعةً لنفس الإمبراطوريَّة، والوجود الإسرائيلي لا يتعدى ست سنوات، وهو يتمثل في تحصيناتٍ عسكريَّة لا يمكن أن تُقاس بالتاريخ الطويل الممتد. وإذا أدخلنا هذه العناصر اختلت الحياديَّة البراجماتية مرَّةً أخرى، ولكن البراجماتي لا يفعل؛ فهو يريد تحييد الواقع ليفعل به ما يريد ويفرض عليه الاتجاه الذي يروق له، (وقد أدهش العالم السياسي البراجماتي كيسنجر الكثيرين، بالسؤال عن سيناء ومَن الذي يمتلكها).

وبذا نجد أن الرصد البراجماتي الموضوعي للواقع لا يختلف كثيرًا عن التحليق المثالي فوقه، فكلاهما الغرض منه هو تذويب الواقع، وإن شئنا الدِّقَّة هو تذويب الواقع حتى يصبح لا اتجاه له، فنفعل به ما نشاء. والدارس للدعاية الصُّهيونية يجد أنها تستند إلى تبريرين؛ واحد منهما مُغال في المثاليَّة (حق اليهود الأزلي في العودة ورغبتهم في ذلك)، والآخر عمليٌّ مُغال في العمليَّة (سياسة الأمر الواقع)، وكلاهما يتجاهل الوجود التاريخي لفلسطين وشعبها. وطريقة الطَّرح الصُّهيونيَّة-البراجماتية تفتح الباب على مصراعيه للعنف. فإذا كان برنامجك السياسي هو أهواؤك، وإذا كان الأمر الواقع هو المحك، إذن فالبقاء للأصلح؛ الأصلح الذي يطمع في كل شيء، ويفتح نيرانه على كل مَن يجرؤ على الوقوف أمامه. يقول الأخلاقيون إن هذه شريعة الغاب، ويقول المتفلسفون أمثالي إنها داروينية نيتشوية، ويقول النابالم على أجساد الفلسطينيين وخط بارليف إنها الجاهليَّة الأولى عادت من جديد.

والطوباويون كما يبدو هم تجسيد البراجماتية من قديم الأزل، فقد اشتقوا أسماءهم في بداية التاريخ من الصِّراع (الواقعي) والقداسة (المثاليَّة)، فاسم يسرائيل كما يخبرنا البراجماتي المتصوِّف يعني المتصارع مع الرب، فهو شعبٌ يعيش في صِراعٍ دائمٍ مع الطَّبيعة القاسية من رمال وتلال ومستنقعاتٍ يواجهونها بنفس الإيمان الذي يواجهون به الطبيعة البشريَّة المعادية لهم؛ طبيعة جيرانهم (من العرب) الذين يُكنُّون الكُره لهم وينوون تحطيمهم. ولنلاحظ هنا المساواة البراجماتية بين الإنسان والطبيعة، وإسقاط التاريخ، وتحوُّل البشر الأحياء إلى جزءٍ من البيئة الجغرافية حتى يَسهُل اجتثاثهم (وهي حيلةٌ قديمةٌ استخدمها المستوطنون البيض حتى يبرروا أمام ضمائرهم التاريخية الإنسانية - بقايا ماضيهم الأوروبي - مسألة إبادة الهنود الحمر). فالصِّراع هنا يصبح صراعًا ضد جماداتٍ لا حياة فيها، وبالتالي يسهُل اجتثاثها. فحين كان الكاوبوي يقف أمام أعدائه، فإنه يصرعهم؛ سواء كانوا من الهنود أو الذئاب أو رعاة البقر الآخرين. وكذا الحالوتس (الرَّائد الصُّهيوني)، تعين عليه الحرب حتى يمكنه البقاء؛ مجرد البقاء في أراضي فلسطين الجرداء، بين شعبها «المتسلل خِلسةً»!

إن البيئة الطبيعية، بما في ذلك الإنسان؛ تقف ضد الحالوتس الذي لا يحارب ضد طبيعةٍ حجريةٍ مستنقعيةٍ بريةٍ فحسب، بل ضد طبيعةٍ إنسانيةٍ مفترسةٍ أيضًا! ولكن لمَ؟ هذا ما لا يسأله البراجماتي أبدًا؛ فالبراجماتي رجلٌ عمليٌّ مرنٌ يُقدِّر ما هو قائمٌ دون أن يُصدِّع رأسه بالتَّاريخ. ومن ثم، فهو لا يعبأ إلا بالحقائق التي يفرضها بالمسدس ضد الطبيعة الإنسانية العنيدة، حتى تلين وتصبح هي الأخرى براجماتية!

ورؤية كالن للطبيعة البشرية أمرٌ مُخيفٌ؛ فهو مطَّاطٌ، مثل هنري برجسون؛ يرى ألا ثبات في الطَّبيعة البشريَّة، فشخصية الإنسان حدثٌ مستمرٌّ وليس مجرَّد حالةٍ جامدةٍ، وكل شيءٍ يتغيَّر ويتبدَّل دائمًا. ويبدو أن الإسرائيليين الطَّيِّعين المطَّاطين قد استجابوا للنداء البراجماتي وتحوَّلوا إلى جيشٍ مُحاربٍ عظيمٍ، إذ يلاحظ كالن بقلبٍ براجماتي مبتهج عسكرة المجتمع الإسرائيلي عسكرةً كاملةً. إن شعب إسرائيل هو جيش إسرائيل، وجيش إسرائيل هو شعبها والحمد لله، وهذا ليس بالمعنى المجازي

وإنما بالمعنى الحرفي؛ فالجيش الإسرائيلي هو المدرسة التي يتعلم فيها الجميع. ونقطة البدء لهذا التعليم العسكري (العملي) هي العهد القديم (المثالي)، أليست هي يسرائيل؛ المتصارع مع الرب؟ ويوزِّع الجيش «كُتبًا صغيرةً» دينيَّةً يستخدمها في تدريب الجنود! وبعد ذلك يزود الجيش الجنود بمجموعةٍ من الكتب آخرها (ولا ندري أهو أهمها أم لا) مجموعة من الخرائط الخاصة بفلسطين/ إسرائيل (ونحن لا نعرف ما هذا البلد الغريب ذو الرأسين: فلسطين/ إسرائيل!!)؛ تُبيِّن حدودها التَّاريخية والأركيولوجية، كما يدرس الجنود جغرافية إسرائيل (هنا سقطت فلسطين من المتن!). ويُقرِّر أحد مرشدي كالن، من الطوباويين؛ أن الفرق بين أمريكا وإسرائيل هو أن الأولى ذات تاريخٍ صغيرٍ وجغرافيا كبيرةٍ، بينما الثانية لها تاريخ كبير وجغرافيا صغيرة (هنا سرت الرِّعدة في جسدي التاريخي، فالاتِّزان البراجماتي يدعو إلى الاتِّساق بين التاريخ والجغرافيا؛ حتى نصل إلى الحدود الآمنة أو المقدسة، لأنها مُتَّسقة مع التَّاريخ المقدَّس!)

والبراجماتي الصُّهيوني لا يكتفي بالرَّصد البراجماتي، وإنما هو قادرٌ على الألاعيب الدَّيالكتيكية إن كانت في مجال التبرير؛ فهو يُقرِّر أن جيش إسرائيل جيش دفاعٍ فحسب - والله العظيم - ولكن خير دِفاع عن فردوس إسرائيل هو الهجوم على جميع الجبهات بالجوِّ والبرِّ والبحر، ويَا لهُ من دفاعٍ جَهنَّميٍّ ... وهو يفسِّر هذه الحقيقة بصغَر حجم إسرائيل، أي يُفسرها باللجوء للكم (الحقائق الصمَّاء)، وليس بسبب وضعها الكيفي (كيانٍ شاذٍّ يقف ضد اتجاه التاريخ).

ويلاحظ كالن، بقلب براجماتي مبتهجٍ مرَّةً أخرى؛ أنه لم يقابل أي فتى أو فتاةً لا يتطلعون إلى الخدمة العسكريَّة، كما أنه، وهو المرِن العملي؛ يخبرنا أنه يمكن تجنيد الاحتياط في ساعاتٍ قليلةٍ (مقولة براجماتية مشكوكٌ فيها بعد أكتوبر؟) أي إن «إسرائيل القلعة»، كما يُسمِّيها طول الكتاب؛ على أهبة الاستعداد دائمًا لملاقاة العدوِّ برًّا وبحرًا وجوًّا ... ولكننا نكتشف فجأةً أن عدو إسرائيل العربي، عدوٌّ هزيل، وأن الفدائيين، الذين يُشبِّههُم بالديدان؛ لم ينجحوا قطُّ في اقتحام القلعة الإسرائيلية.

وفشل العرب – كما يقول الطوباويون للبراجماتي – مسألةٌ مُقرَّرةٌ محتومةٌ! ولكن يا له من موقفٍ كوميدي! قلعة مسلحة على أهبة الاستعداد دائمًا لملاقاة عدوٍّ هزيل! هل هذا دون كيخوته أم إنه سانخو بانزا، باعتبار أن دون كيخوته شخصيةٌ نبيلةٌ جميلة؟ وحتى نكون مُنصفين مع اليانكي البراجماتي، فلا بد أن نذكر أنه لم يشارك الإسرائيليين إيمانهم بانتصارهم الأزلي، وهذا الخلاف بين الأمريكي البراجماتي والطوباويين التلموديين له مغزاه، وهو اختلافٌ تمتدُّ جذوره إلى الخلاف بين البراجماتية الأمريكيَّة والبراجماتية الصُّهيونية.

الإسرائيليون إذن مرنون واستجابوا لنداء البراجماتية الحارِّ للتغيير. ولكن ماذا عن العرب؟ يرى كالن أن الأمل الوحيد هو تغييرهم أيضًا. وكالن لم يفقد الأمل كُليَّةً فينا بعدُ، فهو يرى أن العرب قد بدءوا بالفعل في التغيُّر بمساعدة الإسرائيليين. ويدلل على ذلك بأن الإسلام آخذٌ في الاختفاء أو في التحوُّل الذي هو بمثابة الاختفاء. وفي أحد المناظر يصف لنا اليانكي الصُّهيوني كيف يُعامل المسئول الإسرائيلي العرب باحترامٍ وحذرٍ شديديْن، تمامًا مِثلما يُعامل العالم الأنثروبولوجي القبيلة البدائية التي يدرسها، وهو باحترامه وحذره يساعد العرب أيما مساعدةٍ.

ولكن ماذا لو حدث وظهر الإنسان العربي الجديد تحت الرِّعاية الصُّهيونية؛ ألن يكون إنسانًا صهيونيًّا مُحاربًا لا عقلانيًّا مؤمنًا بقوميته فحسب؟ يهبُّ ضدَّ إسرائيل ليدقَّ عُنُقها، وليلقي بالنابالم على الأطفال؟ البراجماتي قصير النظر لم يطرح السؤال على نفسه (كُتِب الكتاب عام ١٩٥٦م). واليوم، ونحن في عام ١٩٧٣م؛ يمكننا أن نخبر العالم أن الآدام حاداش عرفي (أي آدم الجديد العربي) قد ظهر ولكنه ليس صهيونيًّا والحمد لله، فهو لا يزال يحمل الغصن الأخضر إلى جوار مدفعه، وهو لا يزال يحاول التَّحاور العقلاني مع عالم براجماتي مجنون!

وعلى الرغم من أن كالن لم يفقد الأمل تمامًا في تغيير الأسباط العربيَّة، إلا أننا لم ننل إعجاب هذا البراجماتي. وقد تعرَّضتُ لإهاناتٍ عنصريَّةٍ كثيرةٍ وأنا في الولايات المتَّحدة، من الصَّهاينة وغيرهم؛ وكثيرًا ما كنت أفاجأ بأن زميلًا لي لا يبادلني

الحديث فجأةً لاكتشافه أنني عربيٌّ، وكنت لا أضيق كثيرًا، فهذه بلدهم ومن حقِّهم أن يمارسوا عنفهم وعنصريَّتهم كيفما شاءوا. وقد اعتقدت لمدَّةٍ طويلةٍ أن جِلدي قد اكتسب مناعةً ضدَّ الإهانات العنصريَّةِ إلى أن قرأت كتاب هذا البراجماتي، وذقت طعم الإهانة مرَّةً أخرى. يؤكِّد صديقنا أنه لا يُوجَد شعبٌ عربيٌّ وإنما شعوبٌ متحدِّثةٌ بالعربيَّة، وما يُسمَّى بالعروبة ليس إلا ردُّ فعل للنَّهضة الصُّهيونية المباركة، ولم يخلق جامعة الدول العربية سوى الرَّشاوى البريطانية، ولا يوحِّد البلاد العربية سوى كراهية إسرائيل. أمَّا الفلسطيني فهو أيضًا لا وجود له، لأنه خليطٌ لا نهاية له من كل الأجناس. والقوميَّة العربيَّة شيءٌ اصطنعته طبقة «الأفنديَّة» وهم يستخدمونها لتحقيق أغراضهم الكريهة. وكل ما يفعله هؤلاء العرب هو تعليم أبنائهم في المدارس كيف يحاربون الصَّهاينة، وكيف يتَّبعون ذلك المهدي المنتظر، الجديد؛ جمال عبد الناصر.

ولكن نُفاجأ بعدم اتِّساق براجماتي في كتابات كالن، إذ نجده فجأةً يقتبس مثلًا إنجليزيًّا يقول: **إذا ضربت عربيًّا في فلسطين، فأنت أيضًا تضرب جَدَّه في الأردن.** ولاحظ الانتقاء غير المحايد للمثل الذي يستخدمه كي يُصنِّف هذا الحيوان العربي، موضع الدِّراسة؛ الذي لا يصلح إلا كموضوعٍ للضرب. نعم أيها البراجماتي، إن ضربت عربيًّا في فلسطين، فأنت تضرب جدَّه في الأردن وأخاه في مصر وأمه في الخليج وأخاه في السودان وأخاه الآخر في اليمن أو الجزائر؛ فلسنا شعوبًا تتحدث العربية كما تدَّعي، وإنما تُوحِّدنا لغةٌ وتراثٌ تاريخيٌّ مشتركٌ وبقعة أرضٍ مشتركةٍ، ومصالح اقتصاديةٌ مشتركةٌ. وماذا كان يضيرك أيها البراجماتي أن تتحدث عن تقديم الخير لعربيٍّ في فلسطين بدلًا من ضربه؟ إن كنت لا تعرف السؤال فأنا أعرف الإجابة؛ لو عاملت عربيًّا بالحسنى في فلسطين، لقوبلت بالعرفان في بغداد والقاهرة ودمشق. ولكن أنَّى لك أن تختار مثلًا كريمًا طيبًا، أنَّى لك التعامُل مع الخير وأنت لا يمكنك أن تتعامل إلا بأصابعك الخمسة؟

وحينما يترك كالن هذا المستوى النظري ويتحدث عن العرب أنفسهم، وليس العروبة؛ فالأمر لا يختلف كثيرًا، فالعرب دائمًا يبحثون عن البقشيش، وحينما يذهب لحيٍّ عربيٍّ فهو يلاحظ أن هذا الحي، قبل مجيء الإسرائيليين؛ كان ملجأً للعاهرات ومدمني المخدرات. وحينما يقدِّم صورةً للعربي، فأول صورةٍ هي لشيخ عربيٍّ من الإمارات البتروليَّة، يضيء قصره بأضواء النيون الحمراء ويستمع للأذان الكريم من جهاز تسجيل. ثم صورة شيخ قبيلة في صحراء النقب يلبس هو وأولاده ساعات أجنبية لا تبيِّن الوقت، ويحملون أقلام حبرٍ في جاكتات غربية يرتدونها فوق جلاليبهم، ويلبسون أحزمة قد أغمدوا فيها خناجر؛ ووظيفة هذا الهجين الإنساني تهريب الحشيش. (ولكن لماذا لم يتحدث هذا البراجماتي عن غسان كنفاني أو محمود درويش أو صديقي تحسين بشير؛ كلهم عرب فخورون بعروبتهم، واستُشهد أحدهم ولم تكتب الصحافة البراجماتية شيئًا عن استشهاده. وما قوله في العمليَّات الفدائية التي تتطلب ذكاءً شديدًا وتوقيتًا متناهيًا في الدِّقَّة؟ هل غيَّر هذا العنف موقفه البراجماتي بعض الشيء؟).

وحينما يصل ذلك البراجماتي لمقدسات الآخرين، مثل الحج إلى مكة؛ فهو لا يمكنه التخلي عن عنصريَّته، إذ يصف الحجَّاج الذين يهرولون ويتعثَّرون نصف عرايا فوق جبل الصَّفا، بينما يضرب جنود ابن سعود هذه الغوغاء بالسِّياط ليلتزموا النظام أثناء تدافعهم نحو الحجر الأسود، ليلمسوه. هذا هو وصف البراجماتي للحج! وهو وصفٌ لا يتَّسم بالحيادية البراجماتية!

ولكن لنترك عنصريَّته قليلًا، ونتأمل الحل البراجماتي الذي يطرحه الفيلسوف اليانكي لقضيَّة الفلسطينيين. الحل هو أن يتحوَّل الفلسطيني إلى «الفلسطيني التائه»؛ يُدفع له بعض المال ويُعطى جواز سفرٍ، ويُصبح العالم كله مجال اختياره! ولكن إذا كان المجال فسيحًا لهذه الدرجة، رحبًا لهذا الحد، فلمَ نحرم منه الإسرائيليين؟! خاصَّة وقد أثبتوا مقدرةً على التكيُّف السَّريع يفتقدها الفلسطينيون العرب؟ والبراجماتية فلسفةٌ مُتعادلةٌ ولا يحسم هذا التعادل إلا فُوَّهة المسدس، ولأنه في عام

١٩٥٦م كانت فُوَّهة المسدس الإسرائيلي قويةً؛ لذا يُعطى جواز السفر للفلسطينيين. لكن الوضع قد تغيَّر قليلا بعد ١٩٧٣م؛ فهل نقترح بأدبٍ براجماتي عنيفٍ أن يُعطى الجواز العالمي للإسرائيليين؟ إن هذه حلول مثاليَّةٌ/ عمليَّةٌ لا علاقة لها بالواقع المركَّب؛ حلول السوق الرأسمالي، وغابة روسو وداروين والمنظمة الصُّهيونية العالميَّة!

إن كل صفحةٍ من صفحات كتاب كالن تنطق بالعُنف البراجماتي تمامًا مثل كتابات جيمس، فكلاهما ينظر للإنسان من منظورٍ دارويني، وكلاهما يرى الإنسان جزءًا من بيئةٍ طبيعيَّةٍ مما يُسقط التاريخ والاتجاه، ويحوِّل كل الظواهر الإنسانية إلى كمٍّ ميِّتٍ (ومن هنا كانت العنصريَّة الفِجَّة). وفي هذا الإطار يظهر الكاوبوي والحالوتس، وتظهر الجيوش والعنف، وتظهر التحالفات الإمبريالية/ الصُّهيونية، وتصبح قوانين الغاب والسوق هي القوانين الوحيدة التي تسود الواقع.

ولكن يظل هناك فارقٌ جوهريٌّ بين براجماتية جيمس الأمريكيَّة، والبراجماتية الصُّهيونيَّة. فالبراجماتية الأمريكيَّة غير مُبرمجةٍ وغير مُثقلةٍ بأيِّ أساطيرٍ؛ ولذا فهي براجماتية مُتَّسقة مع نفسها، تقف ضد التاريخ ولا تاريخ لها. أما البراجماتية الصُّهيونية فهي مُبرمجةٌ مُثقلةٌ بالأساطير والتَّواريخ المقدَّسة.

حينما ينظر البراجماتي الأمريكي، ذو الوجه الأحمر والشعر الذَّهبي والعيون الخضراء الخالية من الخير والشرِّ والتَّاريخ؛ إلى الدولة الصُّهيونية، فإنه سيرى خفيرًا يحرس المصالح الإمبريالية، مفيدًا للغاية طالما أنه يؤدي غرضه وطالما أنه أمرٌ واقعٌ غير مُهدَّدٍ، ولن تغشى الرؤية أي أساطير تلمودية عن الوعد الإلهي وأرض الميعاد. أما الصُّهيوني فإنه يحاول أن يتعامل مع الأمر الواقع، ولكنه يحاول أيضًا خلق «حقائق جديدة» (إن أردنا استخدام عبارة موشيه ديان الطريفة)، صادرة لا عن قراءةٍ للواقع وإنما عن قراءةٍ لكتابٍ أسطوريٍّ. ولذا تتحرك الجيوش البراجماتية لكي تؤمِّن الحدود الواقعية المثالية لآرتس يسرائيل، التي وردت لها خريطتان مختلفتان في التوراة! لكل هذا نجد أن حدود البراجماتية الأمريكيَّة أكثر اتِّساعًا وتحدُّدًا في ذات

الوقت من حدود البراجماتية الصُّهيونية، فالأولى يحكمها قانونٌ واقعيٌّ، هو قانونٌ ضيقٌ غبيٌّ، ولكنه مع ذلك قانون، أما البراجماتية الصُّهيونية فهي مزيجٌ فريدٌ شاذٌّ بين العقليتين العملية والغيبية التلمودية. ولعل هذا يعطينا مؤشرًا على نوعية الصِّراع مع العدوِّ الصُّهيوني. لقد سالت دماء الفيتناميين وأسالوا دم الأمريكان لعدة سنوات، وما أن زادت كمية الدماء والخسائر، انسحب الأمريكيون، فقد ذهبوا إلى فيتنام لا لأسبابٍ أسطوريَّةٍ وإنما لأسبابٍ إمبرياليَّةٍ واضحةٍ للجميع، حتى للعُمَّال والمقاتلين الأمريكان أنفسهم. وكثيرًا ما كنت أتحدث معهم (فقد عملت خفيرًا في أحد المصانع الأمريكيَّة لمدة أربع سنواتٍ)؛ فأجدهم يتحدثون ببراءةٍ غير عاديةٍ عن أهمية الحرب للاقتصاد الرأسمالي، حتى تستمر المصانع في الدوران، ولكنهم بلا أخلاقيتهم المعهودة كانوا لا يخلصون من ذلك إلى ضرورة إيقاف الحرب وتغيير النَّسَق الاقتصادي، وإنما كانوا يرون ضرورة الاستمرار فيها وتصعيدها. وبرغم ذلك كانوا لا يتحدثون عن واجبهم في إدخال الحضارة إلى فيتنام أو حقِّهم الإلهي هناك، ولذا حينما أصبحت الحرب مُكلفة؛ استجابت الجماهير الأمريكيَّة بسرعةٍ لحركة الاحتجاج. أما في إطار البراجماتية المغلقة أو المبرمجة أو التلمودية؛ فالعنف البراجماتي وسياسة فرض الحقائق تستند إلى حقوقٍ مُقدَّسةٍ مُسبقةٍ لا يمكن النِّقاش بشأنها، لذا فرغم الصُّعوبات التي يواجهها العدوُّ الإسرائيلي، ورغم الخسائر التي قد نلحقها به، فإنه يتترس بسياج من أساطيره التلمودية التي تمدُّه بنوعٍ من القوَّة المؤقَّتة، النابعة من الانفصال عن الواقع.

ويجب أن نتذكَّر، لقد كانت الدبابات السوفيتية قد اقتربت من مخبأ هتلر، والفوهرر لا يزال يُصدِرُ أوامره للأطفال بحزمٍ، من أجل مجد النازي!

الباب الثاني

عالم السِّلع الفردوسي

أولًا: الخلاص بالسلعة

أفرز المجتمع الرأسمالي عديدًا من الفلسفات من بينها الفلسفة البراجماتية، التي كُتب لها الشُّيوع وذيوع الصيت دون غيرها؛ لأنَّها أثبتت أنها خير وسيلةٍ تحافظ بها الرأسمالية الأمريكيَّة على اتِّزان المجتمع وثباته، وعلى نقائه من كل التحدِّيات الإنسانية التي قد تخل بهذا الاتِّزان. ففي مقدور الإنسان البراجماتي محدود الرؤية أن يستهلك دون تساؤل، وأن يُغيِّر السِّلع التي يستهلكها، وأن يُقلل ويزيد من كميتها دون احتجاجٍ. وهو لا يستفسر أبدًا عمَّا إذا كان هذا الاستهلاك الغبي سيؤدي إلى سعادته الفرديَّة أم لا، فالسَّعادة الإنسانية، هذه الرُّؤية المركَّبة التي تستند إلى رؤيةٍ مُتكاملةٍ للطبيعة البشريَّة؛ ليست هي الهدف. إنما الهدف هو النَّجاح في التَّعامل مع الواقع الذي تخلقه وتحدده وتغلفه الاحتكارات، ثم تبيعه للمواطن الأمريكي عن طريق الإذاعة والتلفزيون اللذين لا يرحمان؛ فهما لا يكلان ولا يتعبان، وهما موجودان في كل مكان.

وقبل أن نعرض لهذا الحديث عن الحضارة الأمريكيَّة، قد يكون من المفيد أن نذكر بعض الجوانب المميزة لنمط الحياة الأمريكيَّة، التي تجعل الأمريكي فريسةً سهلةً لـ«الاستهلاكية الأمريكيَّة». فبناء الضاحية الأمريكيَّة يجعل الإنسان

الأمريكي يعيش وحيدًا، فيما يشبه الفردوس الأرضي؛ في منزل من طابقين، وعليه أن يقود سيارته ساعةً على الأقل كل يوم ليصل إلى محل عمله، وساعةً أخرى ليعود منه (ولهذا من الممكن أن تُسَبِب أزمة الوقود كارثةً لذلك النَّمط من الحياة المبني على الاستهلاك). وهو حينما يعود إلى منزله الذي يملكه لن يجلس مع الجيران ليتحدث عن همومه اليوميَّة، وإنما سيكون مشغولًا بإعداد طعام العشاء مع زوجته (فهو يعود الساعة الخامسة تقريبًا). كما أنه لا تُوجد علاقة قوية بينه وبين الجيران؛ لأن هؤلاء الجيران يتغيَّرون كل خمس سنوات، فمجتمع الكفاءة والسيولة البراجماتية مبنيٌّ على التغيُّر الدَّائم، ولذلك يتغيَّر كل سكان أي جماعة أمريكيَّة بمعدل مرَّة كل خمس سنوات!

والأمريكي حينما ينتقل من مدينةٍ لأخرى فهو لا يستأجر شقَّةً، وإنما يشتري بيتًا. وهو لا يفعل ذلك من باب «الفنجرة» ولكنها ضرورةٌ حتميَّةٌ، لأن الشُّقق غالية الثمن ومُكلفةٌ للغاية. وحتى يحارب ذلك التضخم المتزايد، وبدلًا من أن يدفع إيجار شقة مرتفع؛ يفضل أن يدفع أقساط المنزل (والجميع مشغولٌ بأقساط المنزل وأقساط السيارة وأقساط هذا وذاك). وبسبب هذا الوضع يصبح سمسار العقارات أهم الشخصيَّات في حياة الأمريكان. ولذا، فحينما ينتقل أمريكيٌّ من مدينةٍ لأخرى، فإنه يتَّصل أول ما يتصل بسمسار العقارات؛ الذي يساعده في شراء بيتٍ جديدٍ ويساعده آخر في بيع بيته القديم. ويُقال إن سماسرة العقارات هم من كبار المحرضين على التفرقة العنصرية؛ إذ يمكنهم تحقيق أرباح خُرافيَّة عن طريق بيع بيتٍ واحدٍ لزنجيٍّ في ضاحيةٍ بيضاء، فتهبط أسعار المنازل المجاورة فورًا، فيقومون بشرائها بأسعارٍ زهيدةٍ، ثم يبيعونها بعد ذلك للزنوج بأسعارٍ مُرتفعةٍ.

هذا الأمريكي ضحية سمسار العقارات، والذي لا جيران له ولا معارف ولا أقارب؛ عادةً ما يستمع إلى إذاعةٍ محليَّةٍ مقصورةٍ على مدينةٍ أو ضاحيةٍ، وهي إذاعةٌ تذكر له أنباء الشَّرق الأوسط في دقيقةٍ، ثم النشرة الجويَّة في ٤ دقائق، ثم الأوكازيونات المحليَّة في ١٥ دقيقةً. وهو إن قرأ جريدةً يوميَّةً، فسيقرأ أيضًا جريدةً

محليَّةً تذكر له أنباء العالم في الصفحة الأولى حتى يُرضي ضميره، ثم يقرأ في بقيَّة الجريدة عن الأخبار الحيويَّة مثل مَن تزوَّج مَن مُؤخَّرًا، ومَن حصل على شهادة البكالوريا من أبناء هذه المدينة الأمريكيَّة الفاضلة! وهذه الجرائد ومحطات الإذاعة المحلية خاضعةٌ خضوعًا كاملًا للرأسمال المحلي، فهي دور صحفية ومحطات ليس لها سندٌ قوميٌّ أو عالميٌّ، كما أن المذيعين فيها والكُتَّاب هم من سقط المتاع؛ لذا يسهُل ابتزاز الجميع وفرض أي خط سياسي يلائم الرأسمال المحلي، خاصَّةً إذا كان هُناك شركةٌ قويَّةٌ في تلك المدينة. وأذكر جيِّدًا أن في مدينة نيويورك، التي عشت فيها؛ كانت شركة جونسون وجنسون للأدوية تُملي إرادتها على كل أجهزة الإعلام في البلدة، نظرًا لسطوتها المالية.

هذا الإطار الحضاري قد جعل من الأمريكي فريسةً سهلةً للسُعار الاستهلاكيِّ. ومن اليسير علينا أن نضرب المثال تلو الآخر على هذه الهستيرية الاستهلاكيَّة، المعادية للعقل وللسعادة الإنسانية؛ ولكننا سنكتفي بالإشارة لأهم الأمثلة: المواصلات الداخلية في المدن الأمريكيَّة. تُعدُّ صناعة السيارات من أهم الصناعات على الإطلاق في الولايات المتَّحدة، فهي عصب النظام الاقتصادي الأمريكي، ولذلك فمن مصلحتها أن تمتلك كل أسرةٍ أمريكيَّة سيارةً ثم سيارتين وإن أمكن ثلاثًا، على أن تستبدلها كل عامٍ أو عامين على الأكثر. ولتحقيق هذا المثل الأعلى كان لا بُدَّ وأن يختفي نظام المواصلات العامَّة، وبالفعل لا تُوجَد مواصلات عامَّة من أيِّ نوعٍ في المدن الأمريكيَّة الصغيرة، وإن وُجِد خط أتوبيس فهو عادةً على بُعد عشرين دقيقةً، ولا يمرُّ الأتوبيس إلا كل ساعةٍ؛ لذلك فالمواطن الأمريكي، الذي يعمل عادةً بعيدًا عن منزله كما أشرنا من قبل؛ يضطر لشراء سيارةٍ شاء أم أبى، فقيرًا كان أم مُوسرًا.

وبعد شراء السيارة الأولى تجد الزوجة نفسها حبيسة المنزل، حين يذهب الزوج للعمل؛ فتصبح السيارة الثانية في ضرورة الأولى. وحينما يصل أول الأولاد سن الرُّشد، تجد الأسرة نفسها مُضطرَّة لشراء الثالثة. ويُقال إنه في استطاعة الاحتكارات الأمريكيَّة أن تصنع سيارةً لا تُستهلك إلا بعد عشرات السنين. لكن مثل هذه

السيارة لا تُنتَج لأنها قد تصل بالسوق الأمريكي إلى درجة التشبُّع، وهي نقطةٌ قد تتوقَّف عندها الدائرة البراجماتية؛ لأن المستهلك لو تشبَّع بالسِّلع وشبع منها فإنه قد يفيق، ويبدأ في التساؤل عن السَّعادة والحياة والروح، وهذا ما لا يمكن للرأسماليَّة الأمريكيَّة تحمُّله. وحتى تضمن الاحتكارات الأمريكيَّة بقاء المواطن الأمريكي غارقًا في السِّلع والمادة في حالة غيبوبة إنسانيَّة كاملة، فإنها تطلق عليه سيلًا من الإعلانات التلفزيونية الرائعة (الإعلانات التجاريَّة هي بالفعل أروع ما يذيع التلفزيون الأمريكي). مثال ذلك إعلان «الإكسهنتي-الرجل المتشدد»؛ يبدأ الإعلان في قريةٍ بإحدى دول أمريكا اللاتينية، وقد اعتلى الوجوه القلق وخيَّم الصمت على المدينة، فقد وصل «المتشدِّد»؛ الذي يقصد أحد أكياس القهوة ويتذوق الحبوب الموجودة فيه، ثم يتعاطى فِنجانًا من القهوة، وحينها تعلو وجهه ابتسامة الرِّضا؛ تعمُّ الفرحة وترقص الجماهير وتبدأ طقوس الحصاد، فمندوب شركة سافارين المتشدد قد وافق على شراء المحصول، مما يدل على جَودة القهوة التي تبيعها الشركة الحريصة على مصالح المستهلكين. أو إعلانات السيارات المختلفة؛ تسير عربةٌ جميلةٌ وتخرج منها فتاةٌ رائعة الحسن، وتطلب منك شراءها (السيارة-الفتاة بالطبع). فإن لم تستجب لتلك الدعوة، فالإعلان التالي كفيلٌ بإقناعك؛ إذ إن القوَّات المسلحة لشركة شيفروليه تقطع الشاشة في عظمةٍ وجلال يَدُلان على عظمة هذه السيارة، فمن الخير لك الاستسلام. أما إن كنت ثوريًّا، فأنت مدعو للانضمام فورًا لصفوف ثورة الدودج، فلقد سئمنا الشيفروليه وأشباه السيارات. أما لو كنت فقيرًا ذا جيوبٍ مثقوبةٍ، فلا داعي للقلق؛ فصديقك ذو الابتسامة العريضة في بنك نيويورك للقروض سيساعدك، وما عليك إلا أن تُوقِّع على ورقةٍ بيضاء صغيرةٍ، فتحصل على مِفتاح السعادة والعربة. وإن دقَّقت النَّظر في هذه الورقة البيضاء الصغيرة، لاكتشفت أنه عليك رهن منزلك وأولادك وزوجتك وذاتك وعربتك الجديدة في المقابل، فضلًا عن أن سعر الفائدة ليس ٤٪ كما تقول اللافتة العريضة، لأنه بالحساب المركَّب تصل الفائدة إلى أضعاف أضعاف ذلك. لكن الابتسامة العريضة على وجه صديقك إياه تُنسيك كل الهموم والمخاوف. فإن

انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك طوفان السِّلع الأخرى ... معجون أسنان، صابون للبلاط، أنواع جذابة من المكرونة والعطور والمياه الغازية والملابس الداخلية والأحذية والشيكولاتة. هذا الرُّكام يمكن أن يزول لو توقَّف الإنسان الأمريكي، ولو للحظةٍ واحدةٍ؛ ليتساءل عن جدوى ذلك كله. ولكنه بالطبع لا يفعل؛ لأنه إنسانٌ براجماتي ناجحٌ، يجيد التَّعامل مع الواقع.

وعالم السلع لا يغزو الإنسان الأمريكي من الخارج فحسب، بل يغزوه ويقمع إنسانيته من الداخل. والغزو الداخلي يتمثل في مظاهر عديدةٍ أهمها مُصادرة الجنس لحساب الاحتكارات الرأسماليَّة. وأنا هنا لا أوجه نقدًا لما يُسمَّى بـ«إباحيَّة المجتمع الأمريكي»، فهو في تصوُّري ليس مجتمعًا إباحيًّا مُنحلًا بالمعنى التقليدي. كما أنني لا أشير إلى انتشار أفلام الجنس، التي تُعرَض في كل مكان بما في ذلك الضواحي التي تقطنها الأُسر البرجوازيَّة المحافظة (وهي ظاهرةٌ جديدةٌ كل الجدة)؛ وإنما أشير إلى إباحيَّةٍ من نوعٍ جديدٍ وخطيرٍ. فالإباحيَّة القديمة تفترض أن الجنس نشاطٌ إنسانيٌّ، ولذلك يمكن استغلاله عن طريق عرضه بطريقةٍ مُغريةٍ يسيل لها لعاب الذِّئاب والملائكة. لكن الإباحيَّة الجديدة إباحيَّة ديمقراطية «علميَّة»؛ تفترض أن الجنس طاقةٌ محايدةٌ يمكن استخدامها للتَّحكُّم في الوحدة الاستهلاكية التي كانت الفلسفة القديمة تُطلق عليها اصطلاح «إنسان». واختيار الجنس كوسيلةٍ للتَّحكُّم في الإنسان يدل على ذكاءٍ وفِطنةٍ، فالجنس نشاطٌ بيولوجيٌّ حتميٌّ، ولكنه في الوقت ذاته له بُعدٌ اجتماعيٌّ. وبتأكيد الجانب البيولوجي على حساب الجانب الاجتماعي (دون إلغائه كُليَّةً)؛ يخلق المجتمع الرأسمالي الخلطة السحريَّة والتوازُن المنشود. فأنت قد تسلُك سلوكًا اجتماعيًّا، ولكن سلوكك ستُحدده اعتباراتٌ بيولوجيَّةٌ بسيطةٌ ومحددةٌ. مثلًا كريم الحلاقة ماركة كذا، إن استخدمته وقعت كل الفاتنات في شباكك، أما كريم الشعر هذا فسحره لا يُقاوَم، وأنت يا سيدتي إذا شربت هذا الدَّواء «جريتول» (الذي أظهرت التَّقارير الطِّبِّيَّة فيما بعدُ أن مضارَّه أكثرُ من نفعه)، فستعيشين جاذبيَّةً جِنسيَّةً بعد شُربه، وأنت أيها العجوز الكركوب لِمَ لا ترتدي باروكةً أو تصبغِ شعرك

أو تفرك جلدك أو تُقَصِّر بنطلونك أو تُطيله؟ اختر ما تشاء من السِّلع وكله في سبيل الحيوية والبعث الجنسي، ولكنه بعث جنسي لا علاقة له بالحياة أو الحب أو الزواج أو الطلاق، أو حتى إبليس أو بروميثيوس، فهو بعثٌ بيولوجيٌّ مجردٌ يدور في فراغٍ حتميٍّ لا نهائيٍّ.

الحضارة الأمريكيَّة إذن حضارةٌ ناجحةٌ للغاية على المستوى الإنتاجي والمادي؛ حقَّقت السيطرة الكاملة على الإنسان الأمريكي من الدَّاخل والخارج، ووصلت إلى الاتِّزان الذي يضمن لها الاستمرار والاتِّساع المنضبط. وهي حضارةٌ قد يُقدَّر لها السَّيطرة على المجتمعات الرأسماليَّة الأخرى ذات التاريخ العريق والتُّراث القومي والديني الفعَّال. بل إن المجتمعات الاشتراكيَّة[1] مهدَّدة بالغزو الحضاري الأمريكي أكثر من غيرها، لأنها مجتمعاتٌ قطعت صلتها بتراثها القومي والدِّيني، وخَلقت فراغًا حضاريًّا لا يمكن أن تزدهر فيه سوى القيم الماديَّة الأمريكيَّة. خاصَّةً أن هذه المجتمعات الاشتراكيَّة تُقوِّم نجاحها وإنجازاتها بمعايير ماديَّة ميكانيكية غير إنسانية؛ مثل زيادة حجم الإنتاج، وزيادة إنتاج الصلب والفحم والصَّابون. إن الحضارة الرأسماليَّة الأمريكيَّة هي حضارة الماديين النفعيين، لوك وهوبز وبنتام وديوي؛ حضارة ترى الإنسان على أنه كمِّيَّة من الاحتياجات السَّهل إرضاؤها. والحضارات الاشتراكية باستمرارها في التركيز على الإنتاج دون ذكرٍ للهدف الإنساني منه، وبإهمالها خلق وعي تاريخيٍّ إنسانيٍّ عند المواطنين، وبحرمانهم من المشاركة الفعليَّة في إدارة المجتمع؛ قد تقع في براثن هذه الرُّؤية النَّفعية المعادية للفكر والإنسان، وقد تظل قابعةً في عالم الضرورة والكم.

وقد تنبَّه اليسار الجديد لخطورة الرأسماليَّة الأمريكيَّة، فهو في نقده لها لا يركِّز على استغلاليتها أو عدم كفاءتها الإنتاجية؛ لأنها ليست مُستغلة بالمعنى التقليدي كما أن كفاءتها مشهودٌ لها من الجميع، وإنما ينصبُّ التركيز على استهلاكيتها العمياء التي

---

(١) ألف الكتاب ونشر في أوائل السبعينيات، وقد تحققت نبوءة المؤلف بعدها بحوالي عشر سنوات فحسب! (الناشر)

تُغرق الذات. بل إن بعض الجماعات اليساريَّة لم تعُد تستخدم اصطلاح «الرأسماليَّة»، وتستخدم بدلًا منه اصطلاح «الاستهلاكية»؛ باعتبار أن ما يهدِّد العامل الأمريكي الآن ليس قلة السلع بل وفرتها، والوعي الزَّائف الذي تنتجه هذه الوفرة.

واليسار الجديد لم يحد أبدًا في رؤيته الجديدة عن الفلسفة الماركسيَّة؛ فنقد ماركس للرأسمالية لم ينصبّ على استغلاليتها الاقتصادية بقدر تركيزه على سطحيَّتها الماديَّة وحتميتها الاقتصادية، وتحويلها الإنسان إلى شيءٍ والشيء إلى وثن. إن الرأسماليَّة لا بد وأن تؤدي إلى اغتراب الإنسان وإلى انحرافه عن جوهره الإنساني؛ «ففي النظام الرأسمالي لا يُوجَد الإنتاج من أجل العامل، وإنما يوجد العامل من أجل الإنتاج»، ولذلك يكون هدف الثورة الحقيقي ليس مجرد إلغاء الملكية الفردية (رغم أهمية هذه الخطوة)؛ وإنما إعادة تنظيم المجتمع الإنساني بطريقةٍ تضمن تحقيق الانتقال من عالم الضرورة والإنتاج والكم، إلى عالم الحرِّيَّة والإنسان والكيف. لكن هذا التصوُّر يفترض وجود رؤيةٍ للإنسان الحقيقي وحاجاته الحقيقيَّة (في مُقابل الإنسان الاستهلاكي أو الاقتصادي وحاجاته الماديَّة الزَّائفة)، فأيُّ فكرٍ هيوماني إنساني ينطلق من رؤيةٍ محدَّدةٍ للطبيعة البشرية ولإمكانياتها المبعثرة أو غير المتحقِّقة. وللهيومانية الماركسية رؤيتها وإن كانت تختلف عمَّا سبقها من مذاهب، فرؤيتها للإنسان وللمجتمع المستقبل تستند إلى تحليل تاريخيٍّ واجتماعيٍّ، ولا تنطلق من مجرَّد أحلامٍ طوباويَّةٍ فردوسيَّةٍ مجرَّدةٍ.

وأهم سمات «الطبيعة البشرية»، حسب تصوُّر ماركس؛ تظهر في محاولته التمييز بين العمل الإنساني وعمل المخلوقات الطبيعية الأخرى. فالعمل الإنساني عمل واعٍ عقلانيٌّ خلاقٌ، ولهذا فأسوأ منزل يشيده أردأ مهندس هو في الواقع أعظم من كل الخلايا التي تبنيها أعظم نحلةٍ! إن الاشتراكية تصبح فلسفةً إنسانيَّةً حينما تُعيد توجيه التَّقدُّم التكنولوجي بشكل واعٍ عقلانيٍّ خلاقٍ، أي حينما تجعل العمل الإنساني يعبِّر عن نفسه وعن إمكانياته تعبيرًا حقيقيًّا. أما الاشتراكية التي تلغي الملكية الفردية دون أن تغير في بنية المجتمع، والتي تثري البروليتاريا ثم تُغرقها في

فردوس السِّلع؛ فهي اشتراكيَّةٌ زائفةٌ غارقةٌ في عالم الضرورة والكم. وهذه ليست دعوةً للتَّقشُّف؛ فالإنسان بدون السِّلع يُصبح عبدًا للضرورة، ولكنها دعوةٌ إلى عدم الخلط بين عالمين مختلفين، وألا نعتقد أنه في وفرة الكم تتحقق السعادة والهناء.

اليسار الجديد إذن لم يجِد كثيرًا عن فكرة ماركس، وإن استفاد منه بطريقةٍ تنمُّ عن أصالته. لكنه مع ذلك يسارٌ مُفتَّتٌ ينقصه البرنامج السياسي والأيديولوجية المتكاملة، ولذلك فهو يجد نفسه رغم أنفه مُنصرفًا إلى الجزئيَّات دون الكليَّات؛ تستغرقه الأحداث اليوميَّة والأفعال المباشرة، أي إن اليسار نفسه يتحرَّك في ذات الفراغ الأيديولوجي الذي خلقته الرأسمالية والحضارة الأمريكيَّة. واليسار الأمريكي لا ذنب له في ذلك، لأن هذا الفراغ هو الحقيقة الحضارية التي لا يملك لها قبولًا أو رفضًا. وحين يحاول اليساريون تجنيد المواطن الأمريكي البراجماتي، فإنهم يضطرُّون إلى مُسايرته واستخدام مصطلحه، بل وإلى رؤية الأمور من وجهة نظره على أمل استقطابه. فينتهي الأمر بمعظم هذه الحركات اليساريَّة إلى الإقلال من جرعة الراديكالية وزيادة جرعة الإصلاحية البراجماتية (كما حدث لجماعة الفهود السوداء حين قرَّرت الاستغناء عن السلاح وقبول الطُّرق الديمقراطية كوسيلةٍ لتحقيق أهدافها ومُثُلها). وقد يتحوَّل الثَّوري إلى هيبي أو إلى فردٍ مُتمرِّدٍ يقوم بأفعال ثوريَّةٍ مباشرةٍ، مثل تدمير بنك أو منزل؛ كما فعل أعضاء جماعة ويزرمان. لكن الثوري إذا تقبَّل فكرة «الفعل المباشر» فإنه يحوِّل كل أفعاله إلى ردود أفعال ويفقَد الرُّؤية والاستراتيجية، ويضيع في متاهاتٍ تعرف الاحتكارات مداخلها ومخارجها؛ لأنها احتكاراتٌ يُساندها أقوى جهاز تنفيذي وأذكي جهاز قمع عرفه التَّاريخ. بل والأكثر من ذلك أن تبنِّي سياسة «الفعل المباشر» هو سقوطٌ في المنطق «الفردوسي» الذي لا يسعى للحرية من خلال التَّعامل مع قوانين الضرورة، وإنما يتجاهلها ويتجاهل حدود الوجود الإنساني التاريخية.

ثانيًا: الهيبي في الفردوس

في عالم السلع الأمريكيَّة والأشياء التي لا حصر لها والخواء الروحي الذي لا قاع له، كان من المستحيل أن يستمرَّ الإنسان الأمريكي في سلبيَّته وعُزلته؛ فالإنسان، روسيًّا كان أم أمريكيًّا؛ حيوان اجتماعيٌّ بطبعه، عقله خلاق لا يقبل القهر في صمتٍ وسكينةٍ.

ولذلك مهما بلغ البطش من قسوةٍ والقمع من ضراوةٍ، فالإنسان لا يعدم شكلًا من أشكال التمرُّد. وقد أشرنا من قبل إلى أن الاحتجاج السياسي في أمريكا قد يأخذ شكلًا سياسيًّا شبه مُنظَّمٍ، كما هو الحال مع اليسار الجديد؛ لكنه في كثيرٍ من الأحيان يأخذ شكل احتجاجٍ عاطفيٍّ روحيٍّ فرديٍّ عائمٍ غائمٍ، لا يستند إلى تحليل للواقع أو إلى موقفٍ من التاريخ؛ وهي طبيعة التمرُّد الهيبي ضد الرأسمالية الاستهلاكية.

فثورة الهيبي ثورةٌ فرديَّةٌ محضةٌ؛ إذ يرفض المتمرِّد المجتمع وحدوده ومقدَّساته، ويُدير ظهره لفكرة النَّجاح على الطريقة البورجوازية ويقرِّر أن يفشل، ففي فشله ضربٌ من التحدي لكل أهداف المجتمع الرأسمالي وآماله. فمن المعروف أن الأسطورة الأساسيَّة السَّائدة في المجتمعات البورجوازيَّة هي أسطورة «الإنسان العصامي الناجح» الذي يكافح ضدَّ كل العوائق والظُّروف؛ يعمل بالنَّهار ويدرس بالليل، يحب والديه وزوجته وأولاده، ويذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، وهو دون شكٍّ مقتصدٌ لا يُنفق إلا فيما يفيد. وتنتهي الأسطورة بتتويج البطل مليونيرًا يُشار إليه بالبنان، أو كما يقول المثل الأمريكي: «**من الثياب البالية إلى الثروة الطائلة**». الهيبي يفعل عكس ذلك بالضبط؛ فهو عادةً من عائلةٍ موسِرةٍ يسَّرت له سبُل التَّعلم ومهَّدت له طرق النَّجاح في صبرٍ وأناةٍ، وخلقت له البيئة الصالحة الهادئة التي لا يعكِّر صفوها شيءٌ، فيترك صاحبنا الثروة الطَّائلة ويهجر المدرسة، وإذا ما وصلته حوالةٌ بريديةٌ من أسرته الحزينة فهو ينفقها على أصدقائه دون تدبُّرٍ أو تفكيرٍ، ثم يخلع ملابسه النظيفة ويرتدي الثياب البالية ويمشي حافيًا يفترش الأرض ويلتحف

أيَّ منزل خربٍ يُصادفه في طريقه. «من الثروة الطَّائلة إلى الثياب البالية»، وموتوا بغيظكم أيها البورجوازيون المحترمون! إن الهيبي تجسيدٌ لأسطورة «الإنسان الفاشل» وهو الرفض المحسوس والشخصي لأسطورة «الإنسان العصامي»، ولكل ما ترمز له من تقديسٍ للملكية الفردية ونكران للسعادة الإنسانية (تختلف السعادة الإنسانية عن الملذات المادية الاستهلاكية التي يشجعها المجتمع الأمريكي). وإذا كان التفوُّق عند الإنسان الناجح هو الاستهلاك الذي لا ضمير له ولا روح، فالهيبي يحيا حياةً بسيطة تجعل من الاستهلاك وكل السلع الرأسمالية، بل وكل الإنجازات التكنولوجية؛ أمورًا غير ذات بال. وإذا كان العصامي إنسانًا مدبرًا، يحسب حساب كل شيءٍ ويحترم الواقع الموضوعي البورجوازي؛ فالهيبي يتعاطى المخدرات بشراهةٍ، لأنها تمنحه الرُّؤى المختلفة كيفيًّا عن الواقع الكريه. وقد يحتَجُّ بأن الويسكي الفاخر يمنح المرء مثل تلك الرؤى، لكن الرَّدَّ الهيبي هو أن الويسكي سلعةٌ رأسماليَّةٌ، وتجرعه يعني دخول الدَّائرة الاستهلاكية مرَّةً أخرى. أما الحشيش والأفيون والكوكايين والهيروين والإل إس دي، التي يتعاطاها الآن ما يزيد عن ٦٠٪ من الشباب الأمريكي؛ فأمرها جد مختلفٍ. وإذا كانت حياة الإنسان العصامي فرديَّةً خاليةً من الطُّقوس والمعنى، فحياة الهيبي جماعيَّةٌ يحكمها تفكيرٌ قبليٌّ وآلاف الطقوس التي تُضفي معنًى على حياتهم، طقوسٌ تذكِّرنا بالعبادات القديمة قبل ظهور التجارة والصناعة. وقد عرض فيلم «وود ستوك» صورةً واضحةً لهذه القبلية الجديدة، وهذه الرغبة في فُقدان الذَّات الفرديَّة في محيط البشر وفي الطقوس القبلية.

ولكن الهيبي برغم ذلك يظل فردًا وجزيرة، يطفو من مكانٍ لمكانٍ دون هدفٍ واضحٍ أو مُستترٍ، شأنه شأن «العصامي» الذي لا تُراث له ولا تاريخ ولا تقاليد ولا وعي؛ يعيش من يومٍ إلى يومٍ ومن ساعةٍ إلى ساعةٍ، فلا يرتبط بأيِّ تنظيمٍ أو أيديولوجية، بل يظل يبحث عن النَّشوة، وعن التنفيس عن نفسه. وعلى أية حالٍ لا يمكننا إنكار أن الفارق بين السُّكْر عن طريق الكحوليات، وفقدان الوعي عن طريق المخدرات، والغيبوبة عن طريق إعلانات التليفزيون؛ ليس جوهريًّا إلى هذه الدَّرجة!

ومما له دلالته أن كلًّا من «أسطورة العصامي» و«أسطورة الهيبي» جزءٌ من التُّراث الأمريكي؛ فالكاوبوي لا يختلف في كثيرٍ من الوجوه عن الهيبي، فهو يعيش حياةً رعويَّةً بسيطةً مع إخوانه من رعاة البقر، لا يستهلك الكثير ولا يتعامل مع المجتمع الفاسد. وبرغم ما في حياته من جماعيَّةٍ، فهو فردٌ لا يرتبط بأيِّ شيءٍ؛ لا أسرةٍ ولا زوجةٍ ولا حبيبةٍ، إذ عليه أن ينتقل دائمًا من مكانٍ لآخر.

وإذا تأملنا التُّراث الأدبي الأمريكي، فسنكتشف أن والت ويتمان كان هيبيًّا من الدَّرجة الأولى؛ فقصيدته الشهيرة «أغنية نفسي» تحتفي بذات الشَّاعر السلبيَّة التي تحبُّ الخير والشرَّ، والتي تقبل كل شيءٍ دون تمييزٍ، والتي تعشق الطفو مع الناس في المدينة. هناك أيضًا الهيبيَّة البيوريتانية، الشاعرة إميلي ديكنسون؛ التي اعتزلت الناس وارتدت ثوبًا أبيض وسكنت في عالمٍ مأهول بالمجردات الميتافيزيقية. وهنري ديفيد ثورو الذي رفض دفع الضَّرائب المقررة عليه احتجاجًا على محاولة القوَّات الأمريكيَّة ضم تكساس (التي كانت لا تزال حينها تابعةً للمكسيك)[1]، وقد آثر دخول السجن على دفع الضريبة، ثم حمل أدواته الزراعية ومكث في غابة بجوار بحيرة «ولدن»[2] لمدة عامين، ليكتشف ذاته ويثبت للعالم أنه كفردٍ فيه الكفاية والبداية والنهاية.

---

(١) وثق ثورو هذا الرفض وأصَّلَ له في رسالة تصدر قريبًا عن تنوير للنشر والإعلام باسم: «العصيان المدني». راجع الأصل الانكليزي:

- Henry David Thoreau: Resistance to Civil Government (also Known as: Civil Disobedience).

(٢) صدرت ترجمتان بالعربية للكتاب الذي وثق فيه ثورو تجربته:
- والدن؛ وحي الغابة: هنري ديفيد ثورو، ترجمة أمين مرسي قنديل، بدون اسم ناشر ولا تاريخ (هي من ترجمات ومنشورات الستينيات).
- ولدن: هنري ديفيد ثورو، ترجمة هالة صلاح الدين، دار العين للنشر، ٢٠١٣م.
راجع الأصل الانكليزي:

– Henry David Thoreau: Walden or Life in the Woods.

وللعلامة المسيري دراستين مهمتين عن ثورو وكتابه والدن، وذلك في كتابه:
في الأدب والفكر: عبدالوهاب المسيري، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م.

لكن حركة الهيبي، كأي حركةٍ غير مُنظَّمةٍ؛ لا تستند إلى قوى اجتماعيَّةٍ واضحةٍ. تتحوَّل إلى موضةٍ ثم تختفي بعد أن تُقيم الدنيا وتشغل الناس بضعة شهورٍ أو أعوامٍ. وهو ما حدث بالفعل في حركة الهيبي، التي لم يبقَ لها من أثرٍ في الولايات المتحدة. فالهيبي لم يكن ينشد التغيير الاجتماعي، إنما كان يبحث عن النشوة الفردية، والإحساس بالنشوة إحساسٌ مؤقَّتٌ يخلف شعورًا بالمرارة والقلق والملل، على عكس التجارب التي يعيشها الإنسان. إن التجربة، بما في ذلك التجارب المأساوية؛ خاضعةٌ للتقنين والفهم، وفي نهاية الأمر للتصنيف والاستيعاب. ولأن التجارب لها محتوى إنسانيٌّ واضحٌ، فإنه يمكن نقلها للآخرين. وقد يصاحب بعض التَّجارب الإنسانية إحساسٌ بالنَّشوة، مثل تجربة الحب وتجربة التفكير في الخالق؛ لكن النَّشوة قاصرةٌ على مَن يحسُّ بها ولا تستمرُّ طويلًا، ولكل هذا لا يمكننا فهمها، وإنما ممارستها فحسب، لتظل محصورةً في ذاتها، مُحتفظةً بطابعها الفردي وبارتباطها بالآن وهنا. وهي بذلك تذكِّرنا بمنطق «الفردوس الآن»، الذي يحاول إلغاء جميع التَّناقُضات الاجتماعية والتاريخية، لتحقيق النَّشوة المباشرة والدَّائمة.

ولأن هدف الهيبي هو الانتشاء، وليس التغيير الاجتماعي؛ نجد أنها رؤيةٌ تنمي إحساسًا عامًّا بالانتماء إلى كيانٍ ما (الكومون أو الكون!) دون تقويمٍ لمحتوى ودلالة هذا الانتماء. وهي أيضًا تركِّز على الطقوس القبَليَّة التي تساعد المُريد على أن يفقد ذاتيَّته الاجتماعية المحسوسة، ويكتسب بدلًا منها ذاتيَّةً مجرَّدةً مُنغلقةً على نفسها مثل ذاتيَّة المتصوِّفة. وهي أخيرًا، شأنها في ذلك شأن المجتمع الاستهلاكي؛ ترتكز على الجنس باعتباره نشاطًا بيولوجيًّا محضًا، وطريقًا مختصرًا إلى النشوة الفردوسيَّة الطبيعية (نسبةً إلى الطبيعة والفطرة)، التي لا يعقبها أية علاقاتٍ اجتماعيَّةٍ أو التزاماتٌ إنسانيَّةٌ من أيِّ نوعٍ (مثل الزَّواج أو حتى الحب لمدة لا تزيد على ٢٤ ساعةً). وفي المسرحية الغنائية «هير-شعر»، التي تُعبِّر عن حساسية الهيبي؛ تحتفي الأغنيات، الواحدة تلو الأخرى؛ بعالم النَّشوة الجنسية التي تغني الوعي والذات، وتجعل المدن والتاريخ والقلق والأدب والأسلحة الذَّرِّية؛ أمورًا تافِهةً يمكن تجاهلها وتناسيها.

وانتشار المخدرات دليلٌ قاطعٌ على سيطرة الحساسية الفردوسية، فالمخدرات خير سبيل إلى النَّشوة دون أي مُعايشةٍ للواقع. وهي خير طريقٍ إلى الفردوس الوهمي الذي لا تعكِّر صفوه أية تناقضاتٍ، وهي الطَّريق إلى الشَّكل دون المحتوى؛ فالإنسان الواقع تحت تأثير المخدرات قد يشاهد أشكالا رائعة الجمال، وقد يبصر الأشياء المحيطة به وقد تضخمت بشكل مضحكٍ، وقد يرى العلاقات بين الأشياء في ضوءٍ جديدٍ، ولكنها أشكالٌ بلا محتوى وبلا مضمونٍ إنسانيٍّ أو أخلاقيٍّ، ولذلك تبقى عصيَّةً على الفهم والتفسير. وسيطرة حساسية الفردوس تظهر أيضًا في التيار الأدبي الأمريكي، الذي يُنادي بأنه لا جدوى من تقويم الفن أو حتى محاولة فهمه، لأن الهدف الأساسي من قراءة العمل الأدبي هو تجربته بشكل مباشرٍ دون تدخل الوعي الإنساني. فالفن حسب سوزان سونتاج، أحد النُّقَّاد الأمريكيين المحدثين؛ *«ليس إلا شكل من أشكال السِّحر، ووسيلةٌ لممارسة طقوسه»*، والعمل الفني مثل العالم لا محتوى له؛ إذ إنه يُوجَد في ذاته ولذاته (تمامًا مثل النَّشوة، ومثل أي «موضوعٍ» أو «شيءٍ» قبل أن يشكله الإدراك الإنساني). وهي تعرِّف الجمال بأنه وجود *«ماكينة خياطة مع مظلةٍ على مائدة تشريح بالمصادفة البحتة»*، أي إن الجمال ليس نِتاج تجربةٍ واعيةٍ يقوم صاحبها بتقويمها وتشكيلها ونقلها للآخرين؛ إنما هو شيءٌ يُوجَد بالمصادفة ودون تدخُّل الإرادة الإنسانية، تمامًا مثل الأشياء المضحكة التي يراها الواقع تحت تأثير المخدر. ولذلك تكون مهمَّة النَّاقد أن يجرب هو الآخر إحساسًا غائمًا بالنَّشوة، لا أن يُفسِّر ويشرح ويقوِّم. وهي في مطلع كتابها، المعنون «ضد التفسير»؛ تتحدث عن حالة البراءة الفردوسية الأولى، قبل ظهور التاريخ والوعي، وقبل أن يحتاج الفن إلى تفسير أو تبرير؛ فاستجابة المتلقي آنئذٍ كانت دائمًا استجابةً مباشرةً غير واعيةٍ. وهل يملك الواقع تحت سلطان السِّحر سوى الحركة حسب ما تمليه عليه إرادة السَّاحر الرهيبة؟ وفي فيلم «القط فريتز» ثمَّة مشهدٌ طريفٌ يصوِّر لنا هذه الاستجابة المباشرة للشكل المحض؛ فإحدى الشخصيَّات تقرأ كلمات القاموس الواحدة تِلو الأُخرى بصوتٍ عالٍ، وبقيَّة الحيوانات المنتشية تُهلل وتصفِّق إعجابًا؛ لأن كلمات القاموس المجرَّدة التي لا يحدِّد معناها أيُّ سياقٍ هي خير الأعمال

الفنيَّة، فهي لا تنقل لنا شيئًا. والدَّعوة لجعل الفنِّ نهايةً في حدِّ ذاته، إذا كانت منطقيَّةً مع نفسها؛ لا بد وأن تصل إلى هذه الدَّرجة، فمُنتهى التجرُّد هو منتهى الجمال. بل يُصبح الصمت هو التجربة الجمالية الوحيدة الحقيقية ؛ لأن الصَّمت هو التجرُّد من المحتوى والمضمون.

حقًّا إن الصَّمت هو قدس الأقداس للمنتشي الذي يفقد عقله، أما آدم فقد كان عليه تعلُّم الأسماء كلها ليصير إنسانًا سويًّا تخرُّ له الملائكة ساجدةً.

ثالثًا: أهل يسوع أو مسيحيو الطرقات

من أهم الحركات «الفردوسية» السَّائدة الآن في الولايات المتَّحدة حركةٌ تضمُّ قطاعاتٍ كبيرةً من الشباب المتعلم وتُعرَف باسم «أهل يسوع» أو «مسيحيو الطُّرقات» (يُطلق عليهم المجتمع: «شواذُّ يسوع»). وهذه الحركة خليطٌ غريبٌ من المسيحيَّة والهيبيَّة، فأهل يسوع مثل الهيبي لا يضمُّهم تنظيمٌ واحدٌ أو حتى عدَّة تنظيماتٍ، وإنما يجتمعون في منازل وجماعاتٍ يُطلق عليها اسم «البيوت المسيحيَّة». وهم يرتدون أرديةً طقوسيَّةً ولا يهتمُّون كثيرًا بمظهرهم الخارجي، ويُطلقون لحاهم وشعورهم (مما يذكِّرنا بالصورة التقليدية للهيبي والمسيح في نفس الوقت). كما أنهم لا ينتمون إلى كنيسةٍ واحدة معينة، بل تجد بينهم بروتستانت برسبتريان/ مشيخانية (Presbytrian) وبروتستانت يونيتريان/ موحدانيين (Unitarian)، وكاثوليك، بل وأحيانًا يهود.

وأهل يسوع متمرِّدون لا على المجتمع المادِّي الأمريكي فحسب، بل على المؤسَّسات الدِّينيَّة التَّقليدية أيضًا، التي لا تختلف رؤيتها كثيرًا عن الرؤية السائدة في المجتمع (ومن هنا كانت تسميتهم بـ «الأهل»، تمييزًا لهم عن «الشَّعب»، وهي التَّرجمة الاصطلاحية التَّقليدية لكلمة بيبول People). وهم في تمرُّدهم يحاولون أن يبثوا الحياة في صلواتهم وعباداتهم؛ حتى تختلف عن الصلوات والعبادات التقليديَّة

التي فقدت معناها وتحوَّلت إلى طقوسٍ فارغةٍ. وبدلًا من تلاوة الأناشيد الدِّينيَّة التَّقليديَّة من كتابٍ رشيقٍ مُغلف بالجلد المذهَّب، يُفضِّل أهل يسوع الغناء الحرَّ الذي لا يخضع لقاعدةٍ أو رابطٍ. ولأن الصلاة نابعةٌ من الرُّوح، فكثيرًا ما ينخرط بعض المصلين فجأةً في البُكاء أو يُطلقون بغتةً صرخات الفرح أو يغمغمون بعباراتٍ غير مفهومةٍ؛ أقرب إلى لغة الواصلين ومَن رُفِعت عنهم الحُجُب. وفي الخلفيَّة يعزف الأرغن موسيقى دينيَّة لا يُنصِت إليها أحدٌ، وإن كانت تُضفي على الصَّلاة طابعًا دينيًّا عميقًا. وبعد تأدية الصَّلاة تدور سلة النُّذور والهبات بين المصلين، ويُطلب من القادرين أن يدفعوا مما معهم، ومن المعوزين أن يأخذوا ما قد يسدُّ حاجتهم، ثم يستمر الغِناء عن الحبِّ والسَّلام والصَّداقة إلى أن ينصرف كلٌّ إلى حاله، أو ينام في مكانه إن شاء. والصلاة تُعقد في أيِّ مكانٍ، فالبيوت المسيحيَّة هي منازل للسُّكنى وكنيسةٌ للصلاة وعيادةٌ لعِلاج مُدمِني المخدرات. واقتصادياتها بسيطةٌ للغاية، فأعضاؤها يعيشون على الصدقات التي تأتيهم على شكل نقودٍ أو ملابس قديمةٍ مُستعملةٍ، كما أنهم عادةً ما يتناولون وجبةً واحدةً في اليوم تتكوَّن من البقول (زهيدة الثمن). وقد قابلت ابن صديقٍ لي كنت أعرفه قبل أن يصبح من أهل يسوع، وأخبرني أنه لم يذق طعم اللبن زُهاء نصف عامٍ، وهذا أمرٌ غير طبيعيٌّ ألبتة بالمقاييس الأمريكيَّة.

وحركات البعث الديني ليست غريبةً على الحضارة الأمريكيَّة؛ فالولايات المتحدة بدأت ككومنولث ديني، وتخلل تاريخها مصلحون دينيون عديدون، من أشهرهم جوناثان إدواردز الذي حاول إعادة بعث العقليَّة البيوريتانية المتزمتة في القرن الثامن عشر. كما أن السنين القليلة الماضية شهدت وعاظًا مثل بيللي جراهام (واعظ الرئيس نيكسون المفضَّل)؛ حاولوا بعث حرارة الإيمان الديني. لكن كل هذه الحركات، على عكس حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة؛ ليس لها طابعٌ طبقيٌّ أو اجتماعيٌّ واضحٌ أو مستترٌ، وليس لها أية أبعادٍ راديكاليةٍ حتى بالمقاييس الأمريكية، فهي لا تطرح رؤيةً مُتكاملةً مختلفةً عن الرُّؤية الدِّينيَّة السَّائدة كما فعل

مارتن لوثر، على سبيل المثال؛ الذي بشَّر بطريقةٍ فرديَّةٍ للخلاص تختلف في بِنيتها ومحتواها عن مفاهيم العصور الوسطى الكاثوليكيَّة. كانت رؤية لوثر، رغم صِبغتها الدِّينيَّة؛ في صميمها رؤيةً اجتماعيَّةً تُعبِّر عن قوى حقيقيَّة في المجتمع، ولذلك قُدِّر لحركته الفعالية والاستمرار. أما معظم حركات البعث الدينية الأمريكيَّة فعلاقتها بالواقع واهيةٌ أو مُنعدمةٌ، وهي لا تُقدِّم رُؤيةً مُتكاملةً مُكتفيةً بتقديم الحلول العاطفيَّة مثل «الحب» و«التَّفاهم»، باعتبارها أدوية شافية لأمراضِ البشرية. إن «أهل يسوع» يبحثون عن أسطورة جديدة تحل محل أسطورة «الإنسان العصامي» الضَّيِّقة، وأسطورة «الهيبي الفاشل» المخربة، لذلك فهم يعودون لفكرة «الإنسان المسيحي في بساطته الأولى»، ومن ثم يدخلون الحضارة الأمريكيَّة الاستهلاكيَّة من أوسع أبوابها؛ باب الرفض الشامل للتاريخ والواقع الاجتماعي. والرفض الكامل يختلف عن محاولة التغيير الثوري، فالوجدان الثوري وجدانٌ اجتماعيٌّ تاريخيٌّ يُحاول أن يكتشف ما هو كامنٌ في المجتمع ويقدِّم رؤى هي في صميمها «إمكانيَّات حقيقية»، ولا يفرض حلولًا «فردوسيةً» من خارجه.

ورفْض أهل يسوع للتَّاريخ والواقع يظهر في الحرفيَّة الكاملة في تفسير الإنجيل، فحينما سألت ابن صديقي أن يلخِّص لي عقيدته؛ قال لي: إنها الإيمان بأن الإنجيل هو كلمة الرَّب، وأن واجب المسيحيين نشرها بين الكفَّار دون محاولة تفسيرها (ضد التفسير مرَّةً أخرى). ثم دخل بعد ذلك في متاهاتٍ عديدةٍ عن العودة الثانية للمسيح، الوشيكة الوقوع؛ ونهاية العالم القريبة (الإيمان بقرب انتهاء التاريخ هو سمةٌ أساسيةٌ للتفكير المعادي للتاريخ). ولأن النهاية قريبةٌ؛ يصبح كل شيءٍ واضحًا للغاية ولا يحتاج تفسيره إلى عناءٍ كبيرٍ، بل إن كل التفاصيل تصير عديمة الأهميَّة. ومن علامات السَّاعة بالطَّبع انتشار الفساد، ودخول عشر دول السُّوق الأوروبية المشتركة (استشهد ابن صديقي بالإنجيل في هذا الشأن)، وإنشاء الدَّولة اليهوديَّة في أرض الميعاد، لأنها تعني تجميع اليهود من أطراف الأرض استعدادًا لهدايتهم جميعًا للدِّين المسيحي، وتمهيدًا لتحقيق «الفردوس الآن». وقد حاولت أن أبيِّن

لمحدثي قصور رؤيته الميتافيزيقية الثابتة، عن طريق تنبيهه لبعض الاعتبارات النسبية والتاريخية؛ فسألته عن جدوى هداية الكفَّار في الوقت الذي تُدمِّر فيه الطَّائرات الأمريكيَّة كل أشكال الحياة في فيتنام، وتهرق فيه الاحتكارات الرأسمالية إنسانية المواطنين الأمريكيين؛ المؤمن منهم والكافر! ثم سألته فيم تأكُّده أن دولة إسرائيل الحالية هي الدولة التي ستجمع كل يهود العالم، وما يدريه لعله تنشأ دولةٌ يهوديَّةٌ أخرى بعد زوال هذه! لكنه كان مطمئنًا إلى رؤيته الثابتة كل الاطمئنان، واثقًا بها كل الثِّقة، واستشهد مرَّةً أخرى بالإنجيل دون تردُّدٍ.

ويبدو أن الطمأنينة الدَّاخلية أو النَّشوة الدِّينية التي يحقِّقها الإيمان الأعمى والحرفي هي ما ينشده أهل يسوع، ولذلك فتجربتهم الدينية الجديدة لا ينتج عنها أية استنارة فكريَّة، بل يظل المؤمن المنتشي يدور حول نفسه دون أن يدخل في علاقةٍ حقيقيَّةٍ مع الواقع أو حتى مع نفسه. هذا الإغراق في الذَّاتية يتَّضح في الأشكال المختلفة التي تتخذها العبادة في تلك الكنائس، فقد انتشر فيها ما يُسمَّى بـ«صلوات اللمس»؛ حيث تمسك بيد من بجوارك وتغمض عينيك وتفكِّر في أيِّ شيءٍ يطرأ على ذِهنك، ثم تخبر كل الحاضرين به، فـ«يشاركوك» آلامك وآمالك، يفرحون لفرحك ويحزنون لحزنك وهكذا؛ والمفروض أن الاتصال الجسدي يزيد من حرارة المشاركة، لكنها تظل برغم ذلك مشاركة لفظيَّة محضة تُذكِّر المرء بالتقارير العاطفيَّة المطبوعة إياها، ومذيعة التليفزيون الجالسة داخل الشَّاشة تُرسل لك بتمنياتها الحارَّة من حجرتها المكيَّفة الهواء. فكنائس اللمس لا تكون مجموعاتٍ بشريَّةً مُتماسِكَةً، بل هي أقرب إلى الجلسات العلاجيَّة النفسية.

وقد تأخذ العبادة شكل التَّداعي الحرِّ، حيث يجلس المصلون كلٌ يحكي عما يُقلق باله، ويحاول بقيَّة الحاضرين «مساعدته» بكل حرارةٍ وإخلاصٍ في حل مشاكله. وقد ذهبت مع ابن صديقي لحضور إحدى هذه الجلسات، وحاولت مرَّةً أخرى أن أدخل عنصرًا سياسيًّا تاريخيًّا على هذه الجلسة الرُّوحية النَّفسيَّة؛ فأخبرت المصلين أن مشكلتي تتلخَّص في أنني مصري عربي يعاني من العدوان الإسرائيلي على فلسطين

ومصر، وأن هذا هو سبب حزني وتعاستي الشخصيتين (والله وحده يعلم أنني لم أكن كاذبًا أو مزيفًا في قولي هذا)، فأخبرني أحد الحاضرين أنه عن طريق الحبِّ يمكن حل كل المشاكل، فاستفسرت عما إذا كان ذلك يتضمَّن المشاكل الدَّوليَّة؛ فكانت الإجابة بالإيجاب.

وتحاول بعض الكنائس خلط العبادة بالهوايات، أو حتى بالانحرافات الشخصية؛ فهناك على سبيل المثال كنيسة «المتزلقين على الأمواج». والتزلق على الأمواج هوايةٌ رياضيةٌ شائعةٌ في كاليفورنيا، استُورِدت من جُزُر هاواي. وإذا ما أصبحت عضوًا في كنيسة المتزلقين هذه، فستمارس رياضتك المفضلة بعد أن تضفي عليها هالةً من القداسة والرَّوعة، وبالتالي تصبح الهواية دينًا، والدِّين هوايةً. ولتحقيق هذا المحال، فما عليك إلا أن تقول: «*الحمد لك يا إلهي لكرمك نحونا، ولكل الأمواج الرائعة التي ترسلها لنا*». وتقول مجلة تايم إن مايك وندر، بطل التزلق على الأمواج؛ وجد «الموجة المثالية» في هاواي. الموجة التي يتمناها كل متزلق قديم، لكنها لم تُدخِل السعادة على قلبه، مما جعله يشعر بأنه ينقصه شيءٌ ما، ومن تلك اللحظة بدأ طريق العودة للمسيح. وهناك أيضًا كنائس للشواذِّ من الجنسين، يرأسهم قسٌّ يُعاني أو يتمتع بنفس الشذوذ الذي يتسم به أعضاء كنيسته، وهو الذي رسم نفسه بنفسه قِسيسًا كما هو الحال مع مُعظم هذه الكنائس النفسيَّة المستقلة الحرَّة.

وقد يبدو هذا غريبًا علينا بعض الشيء، مسلمين كنَّا أم مسيحيين؛ لأننا ننظر للتجربة الدينية على أنها ليست بالضرورة مصدر سعادةٍ خالصةٍ ودائمةٍ. بل هي أيضًا مصدر قلقٍ وتساؤل، وصراعٍ ينجم عن محاولة فرض المثال على الذَّات الإنسانية. لكن إذا كان الهدف من العبادة هو النشوة وراحة البال، فإن مثل هذه الكنائس تحقِّق الغاية المنشودة منها إلى أقصى حدٍّ.

وكما قال لي أحد أصدقائي؛ إن التحليل النَّفسي هو الدين الوحيد في الولايات المتحدة، فمن وجهة نظر سيكولوجية ليبرالية لا يمكنك أن تُصدر أحكامًا أخلاقيةً أو فلسفيةً من أي نوعٍ على أي فردٍ، فغاية المجتمع هي إراحة أعضائه نفسيًّا عن

طريق تدريبهم على فن التأقلم مع الواقع كما هو، وتحقيق الطمأنينة والثقة الكاملتين في النفس. وهي نفسٌ لا وجود حقيقي لها؛ لأنها مُتأقلمةٌ مع الواقع، مندمجةٌ فيه منسجمةٌ معه. وقد نجحت حركة أهل يسوع في تحقيق الطمأنينة الداخلية والانسجام لأعضائها، مما جعلهم يتغلبون على وباء المخدرات المنتشر في الولايات المتحدة. لكنها في الوقت ذاته حوَّلتهم لأفراد أُحاديي الرؤية، وشخصيات جامدة رجعيَّة.

وهذا هو سر ابتهاج آلهة مجتمع السِّلع، التي رحَّبت بالعبادة الجديدة وحقَّقت عن طريقها أرباحًا خياليةً (والشباب من أهم القطاعات الاستهلاكية في المجتمع الأمريكي)؛ فهناك الإعلانات المسيحية الملونة التي تعلقها على جدران حجرتك، والقمصان والأزرار المسيحية التي تُعلن بها عن هويتك الجديدة، والأغاني والمسرحيات المسيحية التي تُسرِّي عنك. بل وهناك ساعة يد مرسوم عليها وجه المسيح ويقوم هو نفسه بالإعلان عنها في التلفزيون (والعُهدة على الراوي لأنني لم أر هذا الإعلان بنفسي، وإن كنت قد رأيت الإعلانات المطبوعة والقمصان والأزرار والساعة نفسها). وهكذا، فما بدأ على أنه تمرُّد ضد مادية المجتمع الأمريكي وقيمه، وقع في براثن المنطق الفردوسي الرجعي، ثم في قبضة آلهة السِّلع التي لا ترحم.

رابعًا: انتحار المسيح في برودواي

ثمة تيارٌ عمليٌّ قويٌّ يسري في الفكر الدِّيني المسيحي في الولايات المتحدة، فالبيوريتانيون، شأنهم شأن الطَّوائف البروتستانتية المتطرفة؛ كانوا يتصوَّرون أن رضى الله عن فردٍ يجعله يُصيب من النَّجاح المادي والتجاري الشيء العظيم (فيُصبح الدِّين إتِّجارًا والإتِّجارُ دينًا، وهي سمةٌ أساسيةٌ في التجربة الدِّينية البورجوازية سواءٌ في أمريكا أو مصر).

وقد نجح اليمين الأمريكي في تحويل قصة المسيح، سواء ميلاده أو صلبه أو بعثه؛ إلى ما يُشبه قصة الرَّجل العصامي الناجح، الذي تنتهي حياته التَّعِسة «نهايةً سينمائيةً سعيدةً». وهي نهايةٌ سعيدةٌ يلقاها أيضًا أي مؤمنٍ ورعٍ. وقد أطلق بعض المتمرِّدين اصطلاح المسيح و«عشرة في المائة» على هذا الضرب من التديُّن التِّجاري؛ الذي يرى أن الإيمان تِجارة مُربحةٍ يُقبض ريعها في هذا العالم (وفي الفردوس الأصلي)، وهو ما يحوِّل التجربة الرُّوحية إلى شيءٍ كَمِّيٍّ يمكن أن يُقاس ويُحسب بالمليم.

وتمثل حركة أهل يسوع تمردًا على هذه العقليَّة التجارية، ولكن حتى هذا التمرُّد أمكن تحويله إلى استثمارٍ ماليٍّ مُربحٍ. وهذا ما كانت تُفكِّر فيه برودواي -حي المسرح في نيويورك- حينما استولت على قصة المسيح وحوَّلتها إلى مسرحيَّةٍ غنائية عنوانها: «يسوع المسيح؛ النجم الأعظم Jesus Christ Superstar». وقد كتب أغاني المسرحية تيم رايس (اسمه الأصلي تيموثي مايلز) ولحَّنها أندرو لويد ويبر، وكلاهما كان مغمورًا قبل الاشتراك في هذه المسرحيَّة، التي أخرجها توم أوهُرجان الذي أخرج من قبل مسرحية «هير-شَعر». والمسرحية تُعالج موضوعًا قديمًا مطروقًا، الصِّراع بين الرُّوح والمادة؛ مُستخدمةً قصة حياة المسيح في أيامه السبعة الأخيرة، بعد إضفاء مسحةٍ عَصريَّةٍ عليها واستبعاد بعض المشكلات اللاهوتية مثل ألوهية المسيح وبعثه من قبره بعد صلبه.

والإشارة إلى «النجم الأعظم» في عنوان المسرحية لها مدلولاتٌ ثلاثةٌ:
الأول: مدلولها المسيحي التقليدي على أن المسيح هو النجم الذي ظهر في بيت لحم.
الثاني: مدلولها العام، فالنجمة تظهر في الظُّلمات لتبددها؛ فهي رمزٌ للرُّوح التي تصارع قوى الظلام والشر.
الثالث: مدلولها المعاصر، بمعنى أن المسيح نجمٌ سينمائيٌّ لامعٌ يستحوذ على إعجاب الجماهير؛ مما يجعلها مهووسةً بِحبِّه.

تُفتح السِّتارة على يهوذا الإسخريوطي وهو يحاول الفِكاك من أربعة رجال يرتدون ملابس غريبةً في لون العنكبوت، ويشبهون في سلوكهم ربَّات العذاب في

الأساطير الإغريقية. ويظل الأربعة يُضيِّقون على يهوذا الخناق إلى أن يستسلم لهم، ثم يبدأ في غناء الأغنية الافتتاحية «السماء في عقولهم»:

لقد صفا عقلي الآن، أخيرًا أرى بوضوح كيف سينتهي بنا الأمر.
إذا نزعت الأسطورة من الرَّجل لعرفت كَيف سينتهي بنا الأمر.
يسوع! لقد بدأت تصدق
ما يقولونه عنك.
إنك حقًّا لمؤمنٌ
بأن هذا الحديث عن الألوهية حقٌّ.
وكل الخير الذي أنجزت
سريعًا ما سيجرفه التيار.
لقد بدأت تفوق في أهميتك
الأشياء التي تقولها.

إن يهوذا الإسخريوطي غيرُ راضٍ عن «تجسُّد» الفِطرة في شخص إنسانٍ محسوسٍ؛ لأن التجسُّد يعني أن ترتدي الفكرة الكاملة والمثال المجرَّد رداءً إنسانيًّا محسوسًا يُقلل من كمالها، ويدنِّس من طُهرها، وهو تحوُّل تُحيطه الأسرار، ولا يمكن للعقل التجريبي تقبُّله بسهولةٍ. وقد يُقال إن الإنسان العملي لا يمكن أن يكون تجريديًّا، وهذا خطل في الرأي؛ فالإنسان العملي ضيِّق الرُّؤية لا يحبُّ أن يتعامل إلا مع ما يمكن قياسه بالأرقام (النقود والكميات والمساحات)، والأرقام هي أكثر الأشياء تجريدًا؛ لأنها مجرد علامةٍ تُشير إلى الشيء المحسوس وتحل محله.

أما الإنسان الكريم رَحْب الرُّؤية، المؤمن بالإنسان؛ فإنه على استعدادٍ لتقبُّل الظَّواهر المركَّبة التي قد تختلف عن رؤيته هو، كما أنه على استعدادٍ للإيمان بالحبِّ والعدالة والجمال، برغم أنها قِيمٌ لا تُقاس ولا تُوزَن وليس لها ثمنٌ معروفٌ أو غير معروفٍ. ويهوذا الكمي، الذي يحسب حساب كل شيءٍ؛ يحذر المسيح من أن يجعل نفسه «المسيح المنتظر»، ويوقد نيران الحماس الدِّيني بين الجماهير:

أعر أُذنًا صاغيةً لوعيدي يا يسوع،
بالله فلتتذكر أنني أريد أن نستمر كلنا في الحياة،
ولكن من المحزن أن أرى فرص بقائنا تضعف مع كل ساعةٍ،
فكل أتباعك على عيونهم غشاوةٌ.
خيَّمت السماء على عقولهم أكثر من اللازم.
كم كان الأمر جميلًا ولكنه أصبح الآن مريرًا،
نعم لقد أصبح كل شيءٍ مريرًا.

إن السماء، التي لا يمكن إدراكها بالحواس الخمس؛ هي رمز السُّموِّ الذي يعذِّب وجدان يهوذا التجريبي، الذي يقف بالمرصاد لكل عاطفةٍ غير مُقنَّنة. وحينما تربت مريم المجدليَّة على شعر المسيح؛ يثور صاحبنا المتدبِّر ويُزمجر ويتَّهم المسيح بعدم الاتِّساق المنطقي مع نفسه؛ لأن مُصاحبته للمجدليَّة لا تتَّفق مع ما يدعو إليه. ويهوذا ثوريٌّ، ولكن ثوريته مُنحصرةٌ في نِطاق رؤيته الاقتصادية الضيِّقة، ولذلك فهو يُعنِّف المجدليَّة لتضميخها المسيح بالعطور. ألم يكن في مقدورها أن توفِّر النُّقود التي أنفقتها على المراهم والعطور لتُعطيها للفقراء والمعوزين؟ وحتى حينما تهزم يهوذا عاطفةُ حبِّه للمسيح، فإنه يستنكر هذا الحبَّ ويتعجَّب كيف يمكن لرجلٍ مثل هذا أن يؤثِّر فيه ويبعث في نفسه الخوف والرَّهبة. ثم يتساءل عما إذا كان سيدعه وشأنه بعد أن يُصلب، أم أن شبحه سيظل يُطارده؟ وتختلط الأمور أمام يهوذا ويُفارقه صفاء عقله كُليَةً بعد أن يُسلم المسيح إلى قاتليه من أجل «الصَّالح العام»، وينتهي به الأمر إلى شنق نفسه بعد أن يفشل في رؤية الرُّوح المتجسِّدة، وبعد أن يرضخ للشرِّ. ولكن حتى بعد أن تصعد رُوحه إلى الرَّب، فإنه لا يكفُّ عن الجدل والنِّقاش؛ فهو يعاتِب المسيح لتركه الأمور تسير دون أية ضوابط أو تخطيطٍ علميٍّ، بل إنه يعيب على المسيح اختياره أرضًا غريبةً وحِقبةً تاريخيَّةً مُتخلفةً لينشر رسالته في الأرض:

لو أتيت في عصرٍ كهذا لوصلت كلمتك للأمة بأسرها.
فإسرائيل في السنة الرابعة قبل الميلاد لم يكن فيها وسائل إعلام جماهيرية.
لا تسئ فهمي، فأنا لا أنشد إلا المعرفة.

إن يهوذا دائب البحث دون كلل ودون نهايةٍ عن معرفةٍ يقينيَّةٍ عمليَّةٍ.

ويهوذا ليس وحده في هذا الشأن، فكهنة اليهود أيضًا يفشلون في فهم يسوع وما يبشِّر به، فالأمر بالنِّسبة لهم لا يعدو «الجنون اليسوعي» الذي هو استمرارٌ للجنون الذي بدأه يُوحنَّا المعمدان، «حينما كان يقوم بحكاية التعميد إياها»؛ على حدِّ قول الكاهن الثالث في المسرحية. وكما قُتِل يوحنَّا المعمدان لتحدِّيه البيروقراطية الدِّينية، لا بد وأن يُقتل هذا النبي الجديد أيضًا. إذ كيف يتأتَّى لهؤلاء الكهنة أن يقبلوا فكرة النبوَّة الخلاقة وهي فكرةٌ تنطوي على أن الإنسان ليس عبدًا لحواسِّه أو بيئته. وقد لا يؤمن الإنسان بإمكان وقوع المعجزات في الحاضر أو في الماضي، لكن المقدرة على الإتيان بالمعجزات في هذا العمل الفنِّي هي رمز المقدرة على التسامي فوق الحواسِّ والمواصفات الاجتماعيَّة السائدة؛ لهذا يكون في رفض الكهنة اليهود للمعجزات، وفي كرههم لها؛ دليل على أنهم جسدٌ بلا روحٍ.

والجماهير في الخارج ساخطةٌ صاخبةٌ، لا تلوي على شيءٍ؛ تنادي على معبودها «النجم الأعظم»:
هيبي ي. م. لماذا لا تبتسم لنا؟
الحمد لله، الحمد لله، هيبي يا نجمنا الأعظم!
يا مسيح أنت تعرف أنني أحبك،
ألا ترى لقد لوَّحت بيديَّ؟
إنني أؤمن بالرب،
فلتخبرني إذن أنني كُتب لي الخلاص.

والجماهير الوالهة لا ترى سوى نجمها السينمائي العظيم، وهي مُولعةٌ باختصار الأسماء على الطريقة الأمريكيَّة (ي. م. اختصار يسوع المسيح)، لأنها جماهير عمليَّة في عجلةٍ من أمرها وتصرُّ على الخلاص الفوري المربح. والمرضى أيضًا يهاجمون المسيح؛ كل يطلب مُعجزةً فوريَّةً تأتي له بالشفاء النَّاجع:

هل لك أن تلمسني لتشفيني يا مسيح؟
هل لك أن تُقبِّلني، هل لك أن تتصدق عليَّ يا مسيح؟

إن المسيح بالنسبة لهم هو الساحر/ الطبيب القادر على القيام بالحيَل والإتيان بالشفاء العاجل، أما المغزى الرُّوحي والإنساني العام لحياته وآلامه، فهذا ما لا يمكنهم إدراكه. وحينما يُقبَض عليه فهذا لا يسبب لهم أي أسى؛ فهم يرون مُحاكمته باعتبارها مجرَّد فصل آخر في فيلمٍ سينمائيٍّ مثيرٍ. بل يذهبون إلى حدِّ المطالبة برقبته، والتحدُّث إليه باستخفافٍ شديدٍ:

أخبرنا يا مسيح ما هو شعورك الليلة؟
هل تنوي أن تصمد؟
هل تفكر في التَّقاعد الآن؟
أم تعتقد أنك سيرتفع قدرك؟
وما رأيك في محاكمتك المقبلة؟
تعال معنا لترى الكاهن الأكبر،
سيروق لك منزله للغاية،
وكذلك سيروق لك الكاهن ذاته،
وستموت في منزل الكاهن الأكبر.
أنت عليمٌ بيقين مؤيديك؛
من أنك ستهرب في اللقطة الأخيرة من المنظر.

إن الجماهير باستخدامها لغةً وصورًا تُذكِّرنا بلغةِ وصور العصر الحديث؛ تنقلنا من أيَّام المسيح لأيامنا هذه، وبالتَّالي فالمسرحيَّة تدعونا لنرى أنفسنا باعتبارنا شركاء

في الجريمة. إن المسيح هنا هو رمز البطل الذي يجب أن يدفع دمه ثمنًا لبطولته وإصراره على إنسانيَّته وحريته ورؤيته.

والحواريون أنفسهم لا يختلفون عن الجماهير أو الكهنة أو يهوذا؛ فهم أيضًا يطاردون المسيح بأسئلتهم ورغبتهم في المعرفة اليقينيَّة، ولا يتلقون أية إجابة لتساؤلاتهم. لكن حينما يعلمون أن المسيح على وشك أن يُصلب؛ تغوص كل محنهم وآلامهم النفسيَّة في بِركةٍ هادئةٍ من الخمر والدَّم، ويبدءون في استخلاص العِظات والعِبر من حياة الرجل المصلوب، ويفكِّرون جِدِّيًّا في التَّقاعد ليكتبوا الأناجيل؛ «حتى يستمر الناس في الحديث عنَّا بعد موتنا». إن المسيح بالنسبة لهم نجمٌ أعظم، وتُكأَةٌ لتحقيق أهدافهم العمليَّة المباشِرة؛ فهم عن طريقه سيُصيبون الشُّهرة والخلود.

في وسط هذا الضَّجيج والصَّخب والضَّوضاء الرَّتيبة تُوجَد ثلاث شخصيَّات لها أبعادٌ إنسانيَّةٌ أصيلةٌ: المجدليَّة وبيلاطس والمسيح نفسه.

أما المجدليَّة فهي فتاةٌ طيبة القلب، تجمع في شخصيتها بين الأم والحبيبة، فبينما يُمزِّق الحواريُّون المسيح بأسئلتهم عن «أين ومتى ومَن وكيف»، تُحاول وحدها تهدئة خاطره:

كل شيءٍ على ما يُرام، نعم كل شيءٍ طيِّبٌ،
ونحن نريدك أن تستغرق في النَّوم الليلة،
ولتدع العالم يدور بدونك الليلة،
أغمض عينيك، أغمض عينيك،
اهدأ واسترح ولا تفكِّر في شيءٍ الليلة.

ورغم أن المجدليَّة، مثل يهوذا؛ ترى أن المسيح، في كثيرٍ من الوجوه؛ مجرَّد رجل آخر، إلا أنها تحس أنه ليس مثل كل الرجال، لذلك فلا بدَّ وأن تحبَّه بطريقةٍ جديدةٍ فريدةٍ تتناسب مع شخصيَّته. وهي تدهش من التَّحوُّل النَّفسي الذي طرأ عليها، فقد كانت دائمًا باردةً هادئةً لا تخضع للحبِّ أو أهوائه؛ كانت دائمًا سيدة الموقف أو المنظر

على حدٍّ قولها (الصورة السائدة في المسرحيَّة هي صورة العالم كفيلمٍ سينمائيٍّ). كانت مثل الآخرين عملية الرُّؤية تُسيطر عليها الرؤية الاجتماعية السائدة، وفجأةً يبعثها حبُّ المسيح من موتها النفسي والإنساني، ولكنه برغم ذلك يخيفها ويُدخِل على قلبها الرهبة؛ لأن حبَّها له يملك عليها شِغاف قلبها، ويخرجها من الانغماس في عالم التدبُّر والحساب والخطط والحيل والفضائح والشهرة والنجوم السينمائية المتألقة، فنجمها هو رمز الحبِّ والخير والجمال. إن هذه المحبَّة الوفيَّة والأم الرءوم تقف وحدها مع المسيح ساعة محنته، حتى بعد أن باعه أحد أتباعه وأنكره آخر.

وإذا كانت المجدليَّة تصل إلى خلاصها عن طريق الحب، فبيلاطس الروماني الوثني لا ينشد الخلاص أساسًا؛ بل يرى عدم جدواه واستحالته وعبث محاولة البحث عنه، ومن هنا كانت نسبيته واشمئزازه من اليهود ومن الجماهير الصَّاخبة التي تُطالب بدقِّ عُنق المسيح. إن بيلاطس لا يبحث عن الله، ولكنه لا يهبط إلى مستوى الرؤية الأحادية العمليَّة الضَّيِّقة؛ لأنه ليس له ولاءٌ محدَّدٌ لأيِّ شيءٍ، وإن كان عنده إحساسٌ بإنسانيَّة المسيح. ويرى بيلاطس فيما يرى النائم أن هناك رجلًا من الجليل تبدو على مُحيَّاه نظرة الفريسة المطارَدة؛ فيسأله المرة تلو الأخرى كيف وصل به الأمر إلى هذا الحد، لكن الجليلي لا يتفوَّه بكلمةٍ حتى تمتلئ الحجرة بآلاف الرِّجال المتوحِّشين السَّاخطين المفعَمين بكُره هذا الرَّجل، ثم يرى بيلاطس بعد ذلك مئات الملايين التي تبكي وتنتحب من أجل الجليلي، ويلقون عليه هو اللوم لصلبه. ويحكي ذلك الحاكم الروماني قصة الحلم بلغةٍ بسيطةٍ تنمُّ عن الاشمئزاز والدَّهشة من هذا الهوس الدِّيني الزَّائد، الذي لا يمكنه أن يسبر له غورًا. وهو في عُزلته يشبه الجليلي الحزين في كثيرٍ من الوجوه. يؤكِّد ذلك الموسيقى الحزينة التي صاحبت أغنية «حلم بيلاطس»، والتي تُوحي للمستمعين بأن ولاءه، إن كان له وجود؛ إنما يتَّجه إلى المسيح إلى حدٍّ كبيرٍ.

وحينما يتحقق الحلم ويُؤتَى بالجليلي سجينًا لمحاكمته، يحاول بيلاطس مُقارعته الحجَّة بالحجة، ويخبره المسيح أنه يبحث عن الحقيقة؛ فيجيبه الروماني:

ولكن ما هي الحقيقة؟ هل الحقيقة قانونٌ ثابتٌ؟
لكن ما حقيقته، فهل الحقيقة بالنسبة لي ولك نفس الشيء؟

ثم يلتفت إلى الجماهير ليخبرها أن المسيح قد يكون مجنونًا، من الواجب وضعه في السجن؛ لكن ذلك ليس بسببٍ كافٍ لتدميره كليَّةً:
إنه رجل صغيرٌ حزينٌ،
وما هو بملكٍ وما هو بإلهٍ،
وما هو بلصٍّ، إنني محتاجٌ لجريمة ارتكبها هذا الرجل كي أضعه في السجن.

لكن المسيح يعرف ألا أمل، ويعرف أيضًا أنه من الأفضل الاستسلام، فلا بيلاطس ولا غيره بقادرين أن يفعلوا شيئًا ... فكل شيءٍ حتمي، ثابتٌ لا يمكن تغييره.

والإيمان بثبات الأشياء كلها وعبثية محاولة تغييرها، عن طريق الكِفاح السياسي أو الاجتماعي أو حتى الفردي؛ هو إحدى الرَّكائز التي تستند إليها فلسفة الهيبي وأهل يسوع، وهو موقفٌ يُنتج السلبية المطلقة والدوران حول المثاليَّات الميتافيزيقية الثابتة. ويبدو أن مسيح هذه المسرحية حتميٌّ متطرِّفٌ في رؤيته؛ فحينما يحتج يهوذا على إسراف المجدليَّة، يعنِّفه يسوع لضيق أفقه، لكنه يسوق المنطق التقليدي؛ *«ليس لدينا الإمكانات الكافية لإطعام كل الفقراء، وسيظل هناك فقراء دائمًا»*. وعلى عادة الهيبي، فإن هذا الإحساس القدَري يؤدي به إلى دعوة يهوذا والآخرين إلى الاستمتاع بحياتهم، «الآن وهنا»؛ وبالحب الذي يُغدِقُهُ عليهم. والمسيح نفسه يقبل دعوة المجدليَّة بأن *«يدع العالم يدور بدونه الليلة»*، لأنه إذا كان العقل الإنساني عديم الجدوى، فكل الأمور متساويةٌ. لكن إلى جانب هذا المسيح، يُوجَد مسيح السَّيف؛ الذي يدخل المعبد ليطرُد التُّجَّار والمرابين:
معبدي لا بد وأن يكون بيتًا للعبادة،
ولكنكم حوَّلتموه إلى وكرٍ للصوص والكَهَنة.

وهو يكره التُّجَّار والنفعيِّين والوصوليِّين والكهنة، الذين حوَّلوا الحياة كلها إلى سوقٍ كبيرةٍ. لكن هناك أيضًا المسيح المنشود، الذي يؤمن بالمعرفة الحدسية وأنه حتى لو سكتت كل الألسنة، فالصخور والأحجار ذاتها ستبدأ في الشدو.

وهو إلى جانب كل هذا إنسانيٌّ عميق الإنسانية، تمزِّقه معرفته بخيانة أتباعه له:
تصبح النهاية أكثر قسوةً،
حينما يُسبِّبها الأصدقاء.
ألا تعلمون أن هذه الخمر قد تكون دَمي.
ألا تعلمون أن هذا الخبز قد يكون جسَدي.
النهاية!
هذا هو دمي الذي ترشفون،
هذا هو جسدي الذي تأكلون.
آه لو تذكرونني حينما تشربون وتأكلون.
انظروا إلى وجوهكم الجوفاء،
إن اسمي سوف لا يعني لكم شيئًا بعد عشر دقائق من موتي.
أحدكم ينكرني،
والآخر يخونني.

إن تمزُّق المسيح هو علامة إحساسه بنفسه كإرادةٍ واعيةٍ مُستقلةٍ؛ لذلك فهو يُسائل ربَّه عن معنى نهايته وصلبه، وهل كان من الحتمي أن ينتهي هذه النهاية، وما المبرِّر لهذه التضحية؟ وحينما يُذعِن أخيرًا لإرادة خالقه، فإن إذعانه تلفحه لفحة احتجاجٍ قويَّةٌ وإن كانت مستترةً:
حسنًا سأموت،
ولكن انظر إليَّ لحظة موتي.
انظر كيف أموت، فلتُثبِّتني بالمسامير،
سأشرب كأس سُمّك على الصليب، ولتكسر عودي،
ولتسفك دمي، وتضربني، وتقتلني، وتأخذ روحي الآن؛ قبل أن أُغيِّر رأيي.

هكذا يمزق المسيح قناع الهيبي الغارق في اللحظة، والباحث عن الرَّاحة الأبيقورية. لكن هذا الجانب المتمرِّد عبارةٌ عن لمساتٍ لا تُغيِّر من البناء الأساسي للشخصيَّة، فالمسيح يظل هيبيًّا أولًا وأخيرًا؛ مُنحصرًا في تجربته الذَّاتيَّة وفي تأمُّلاته وفي عالمه المستقل عن الناس والمجتمع، وهذا يضع الصلب في إطارٍ جديدٍ؛ إذ يصبح نتيجةً حتميَّةً لوقوف البَطل وحيدًا في مُواجهة أتباعه وأعدائه. بل يمكن رؤية الصَّلب في هذه المسرحيَّة باعتباره نوعٌ من الانتحار (خاصَّةً أنه لا يتبعه بعثٌ).

والانتحار يُعدُّ شكلا رومانتيكيًّا من أشكال تحقيق الذات؛ بل هو أعلى هذه الأشكال لأنه الفعل الذي لا تمليه سوى الإرادة الذَّاتية المطلقة، وهو النُّقطة التي لا أوبة منها ولا رجوع. إنه السَّرمديَّة بعينها (الفردوس والجحيم الآن في الوقت ذاته). ولعل هذا ما كان يعنيه يسوع حينما يخبر سيمون أنه لا أحد، لا سيمون ولا الآلاف المؤلفة التي تهتف باسمه ولا الرُّومان ولا اليهود ولا يهوذا ولا الحواريُّون ولا الكهنة ولا الكتبة ولا أورشليم نفسها؛ لا أحد يفهم ما هي القوة وما هو المجد:

كي تهزم الموت؛ يجب عليك أن تموت فحسب،
يجب عليك أن تموت فحسب.

إن الموت الذي يُشير إليه يسوع في هذه المسرحيَّة ليس هو الموت الرَّمزي اللازم لدخول الحياة المسيحية الكاملة، ولا هو الموت الذي يسبق الحياة الآخرة؛ إنما هو فناءٌ كاملٌ لا بعث بعده؛ فناءٌ يُنهي كل الآلام والآمال.

وقد حاول المخرج أن يُضفي بعض الوحدة على عناصر المسرحيَّة المتضاربة، سواءٌ كان العنصر الدنيوي الحديث أو العنصر المسيحي التقليدي أو العنصر المسيحي الهيبي؛ فحوَّل المسرحيَّة إلى مجموعةٍ من الصور الرَّائعة الجمال التي ليس لها محتوى واضحٌ، للتَّأثير في المشاهدين بشكل مباشرٍ وليترك في نفوسهم أثرًا عميقًا محسوسًا لا وجود للفكر أو النظريَّة فيه. أي إنه حاول تخطي المحتوى الفكري عن طريق الصورة المحسوسة المتكاملة. وتوم أوهرجان، مخرج المسرحية؛ مُغرَم بما يُسمَّى «الوعي الخرافي» (في مقابل «الوعي الحديث»)، فالإنسان صاحب الوعي

الخرافي لا يفكِّر ولا يُنَظِّر، بل يستجيب استجابة المؤمن للطقوس الدِّينية التي يمارسها. وقد حاول تطبيق نظريته، في إخراج هذه المسرحية؛ بتأكيد العناصر المرئية التي تُغرِق المشاهدين وتجعلهم يعيشون داخل الطُّقوس المسرحيَّة، وليس خارجها.

ومن أول وهلةٍ نُفاجأ بأنَّ السِّتار عبارةٌ عن جدارٍ هائل ينزل إلى الدَّاخل، ليصبح هو ذاته خشبة المسرح. ونكتشف أن الجِدار عليه خمسة رجال، أحدُهم يهوذا والآخرون هم رمز وجدانه المعذَّب، لتبدأ المطاردة والجدار لا يزال في وضعه الرَّأسي. وحينما يظهر بيلاطس، فإنه يدخل من بابٍ على هيئة رأس قيصر ضخمة ذات خمس جباهٍ وعشر عيونٍ؛ كل جبهةٍ وعينين فوق الأخرى لتعطي إحساسًا بعظمة وضخامة روما.

والمسيح في أحد المناظر يخرج من شيءٍ يشبه الكرة بعد أن يمزقه، مما يوحي بأنه مثل الفراشة التي تخرج من الشرنقة. ثم يرتفع إلى علوٍّ شاهقٍ بواسطة مصعدٍ صغيرٍ غير مرئيٍّ، لأنه مُغطًّى برداء المسيح الذهبي الذي يصل طول ذيله إلى مائتي مترٍ على الأقل، وقد بلغت تكاليف هذا الرداء حوالي عشرين ألف دولار. وبعض المناظر تستحوذ على المتفرِّج وتجعله يشترك بكل عواطفه فيما يدور أمامه، لكن بعضها الآخر يُذكر الإنسان بالتلفزيون الأمريكي، وبأفلام هوليود الفخمة.

ومع ذلك لم ينجح المخرج بتاتًا في حل المشكلة الأساسية التي واجهته؛ ترجمة قصة المسيح إلى صيغةٍ أمريكيَّةٍ مُعاصرةٍ مع الاحتفاظ بصبغتها المسيحية. فالمسيح التقليدي في المسرحية لم يمتزج بالمسيح الأمريكي المعاصر؛ لذلك يظل المدلول الرمزي والأسطوري العام سطحيًّا، ولا يتذكر القارئ أو المستمع أو المشاهد سوى لمساتٍ رائعةٍ وصورًا شعريَّةً جميلةً ومناظر مُدهشةً، لكنه لا يعيش بتاتًا رؤيا مُتكاملةً.

الباب الثالث

الإنسان بين الأشياء والبراءة الأولى

حينما تغمِّض عينيك فإنك تُبصر؛ لأن الإنسان له بصرٌ وبصيرةٌ، عينٌ حِسِّيَّةٌ ترى الأشياء، وأخرى حَدْسيَّةٌ تخترق السَّطح لتصل إلى البِنية الكامنة وطبيعة الوجود. ولأننا لا نقنع من الأشياء بسطحها ولا نرضى بالواقع كما هو؛ فإننا دائمًا نحلم. ويضيق نطاق الحلم ويتسع، ويرتفع ويهبط، ولكنه في ضيقه واتِّساعه وارتفاعه وهبوطه، يعكس ما في داخلنا ويجسِّد هُويَّتنا.

والحلم بالفردوس، ذِروة كل الأحلام؛ هو أيضًا لحظة الكشف الكامل، فالفردوس هو نقطة «النجاح» التي يتحقق فيها كل شيء، وننجز فيها ذواتنا الحقيقية كما نتخيلها؛ متحررةً من كل ضغوطٍ اجتماعيَّةٍ وقهرٍ تاريخيٍّ. فإن كان حلمك بالفردوس هو ثلاجةٌ ومرسيدس تملكهما الآن وهنا، فهذه هي ذاتك في أقصى اتِّساعٍ لها. أما إذا كنت تحلم بمجتمعٍ يمرح فيه بشرٌ ناضجون أسوياء، يحتفظون بشيءٍ من البراءة الأولى وقادرون على الحُلم دائمًا وأبدًا؛ فهذه هي أيضًا ذاتك في لحظة الكشف.

وقد حجَّ الزَّعيم الأمريكي الأسود مالكوم إلى مكة المكرَّمة، كما رحل الأديب الأمريكي اليهودي بودورتز من بروكلين إلى مانهاتن ومنها إلى جزيرة الفردوس. لقد عاش كل منهما لحظته الفردوسية، وحقَّق كلاهما نوعًا من «النجاح» الذي كان يطمح إليه، فما هو هذا النَّجاح؟ وماذا كان المثل الأعلى الذي تحقق؟

أولًا: فردوس بودورتز المتشيئ

أ- العقد الاجتماعي الأمريكي / اليهودي

حينما تصل إلى نيويورك؛ لا يمكنك إلا أن تلاحظ الوجود اليهودي في كل مكانٍ، فنيويورك تضم أكبر تجمعٍ يهوديٍّ في العالم. وهذه حقيقةٌ تحزُّ كثيرًا في نفوس الإسرائيليين والصَّهاينة، الذين يصدرون عن فكرة «وحدة الشعب اليهودي»؛ التي تفترض أن كل يهودي يحتوي على «زمبلك» ميتافيزيقي يدفعه نحو الفردوس اليهودي في أرض الميعاد. لكن ها هي الدَّولة اليهوديَّة الموعودة قد أُنشِئت ثم توسَّعت وتمدَّدت ثم انكمشت، ولم يعمل الزمبلك عمله! ولم يتزحزح التلمود عن بابل الأمريكيَّة. وليس في هذا ما يدهش كثيرًا، فاليهود بشرٌ رغم كل ادِّعاءات الصَّهاينة والمعادين للسامية، وهم بشرٌ خاضعون لنفس القوانين التَّاريخيَّة والاجتماعية التي يخضع لها كافَّة البشر والأقليَّات والمهاجرين. ورغم أنه لا يُوجَد مُنظَّمةٌ لتهجير اليهود إلى أمريكا، ورغم أن الحركة الصُّهيونية العالميَّة مُنظَّمةٌ تنظيمًا دقيقًا ونشطةً نشاطًا بالغًا، إلا أن مسار التَّاريخ الحديث قد دحض كل ادِّعاءات الصَّهاينة. فأكبر تجمُّعين يهوديين في العالم هما في الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي[1]، ثم تأتي إسرائيل بعد ذلك في المرتبة الثالثة ولا يُمثِّل سكَّانها إلا أقل من ربع يهود العالم. إن عدد يهود الدياسبورا (الشتات) يفوق عدد يهود إسرائيل بمراحل، وقُل موتوا بغيظكم أيها الصَّهاينة!

وقد استقر اليهود في الولايات المتَّحدة وتقبَّلوا وضعهم إلى حدٍّ كبيرٍ، وقبلوا أسطورة «أتون الصهر» إياها بدرجاتٍ متفاوتةٍ. وقد تُرجِمت هذه الأسطورة إلى ما يُسمَّى بالعقد الاجتماعي الأمريكي/ اليهودي؛ الذي يتلخَّص في أن يهوديَّة المواطن اليهودي هي أمرٌ خاصٌّ للغاية يُمارسه في المنزل فحسب، أو في المعبد اليهودي، أو في المدرسة اليهوديَّة، فلا يظهر اليهود في الحياة اليومية العامَّة كيهود. وإذا حدث واضطروا لإظهار هويَّتهم المستقلة، فإن ذلك يكون دائمًا كردِّ فعل؛ كما في المظاهرات

---

(١) السابق...!

التي تحتج على مُعاداة السَّامية. ولم يرفض هذا العقد سوى الجماعات اليهوديَّة المغالية في الأرثوذكسية، الذين وصلوا للولايات المتَّحدة بعد الحرب. وصيغة هذا العقد لا تختلف كثيرًا عن التصوُّر اليهودي الإصلاحي لوضع اليهوديَّة، ولا عن تصوُّرات مُفكري عصر الانعتاق والاستنارة في شرق أوروبا وغربها.

وقد يكون من المفيد ذكر أن كثيرًا من المفكرين والمثقفين اليهود في الولايات المتَّحدة يعتبرون أنفسهم أمريكيين بالدرجة الأولى، ينظرون لمسألة كونهم يهودًا على أنها مسألةٌ ثانويةٌ؛ تُساهم في تشكيل وجدانهم دون أن تحدَّه أو تحدِّده. وكثيرٌ من أصدقائي طلبة الجامعة اليهود، أذكر بالذَّات ستيفن ميلر الذي يكتب في مجلة «دسنت» وسُينشَر له ديوان شعرٍ في لندن الربيع القادم؛ يرفضون كل محاولات فرض هويَّةٍ صوفيَّةٍ مستقلةٍ، فهم يقبلون يهوديتهم باعتبارها عُنصرًا بين عناصر عديدة تُشكِّل رؤيتهم للواقع. وكثيرٌ من كِبار مُثقَّفي اليهود في أمريكا يرفضون الصُّهيونية إما بشكل سلبيٍّ، بعدم ذكرها بتاتًا؛ أو بالحرب ضدها بشكل نشطٍ. ومن هؤلاء النَّاقد الشَّهير ليونيل ترلنج (ليونيل موردخاي ترلنج قبل أن يُغيِّر اسمه)، الذي يصدُر عن رؤيةٍ هيومانيَّةٍ عَلمانيَّةٍ ليبراليَّةٍ؛ لذلك صرَّح عام ١٩٥٢م بأنه ليس مُتعاطفًا مع محاولات إنشاء دولةٍ يهوديَّةٍ. ولكن بعد مرور عشرين سنةً على إنشاء الدولة، نجد أن أمثال ترلنج يوقعون على المنشورات تأييدًا لإسرائيل ضد «العدوان العربي»، وضد محاولات إلقاء اليهود في البحر. لكن توقيعهم مثل تلك المنشورات لا يغيِّر من موقفهم الفكري، إنما هو ردُّ فعل على بعض التشنُّجات العربيَّة التي نجح الصَّهاينة في استغلالها، واستسلام من جانب هؤلاء المفكرين للصهاينة. وليس كل المفكرين اليهود مثل ترلنج، فهُناك فريقٌ لا زال يحارب الصُّهيونية مثل العالم النَّفساني الشهير إريش فروم، والعالم الاجتماعي ديفيد ريزامان، والعالم اللغوي الشهير نعوم تشومسكي؛ وكلهم رافضٌ للفكرة الصُّهيونية، وللتصوُّر الصُّهيوني للواقع، وبعضهم يعمل بنشاطٍ ضد العدوان الإسرائيلي. وقد يستغرب القارئ العربي حين يعرف أن جماهير الصَّهاينة النَّشطة أساسًا هي الطَّبقة الوسطى اليهوديَّة، التي تعود

أصولها السُّلالية لشرق أوروبا؛ أما المثقَّفون والمفكِّرون اليهود، فهم نادرًا ما يلعبون دورًا صهيونيًّا ويكتفون بالتَّوقيع على المنشورات الصُّهيونية التي لا تنتهي، تأييدًا لهذا أو استنكارًا لذاك. وأيُّ قارئٍ لمجلة «ميدستريم» الصُّهيونية، سيجد أن كُتَّابها صهاينة محترفون، وليس من بينهم اسمٌ واحدٌ ذو مكانةٍ قوميَّةٍ في أمريكا. أما كُتَّاب المجلة اليهوديَّة، كومنتاري؛ فقليل منهم أحرز شهرةً قوميَّةً. وهذه القلة عادةً ما يكون اهتمامها مُنصبًّا على قضايا عامَّةٍ، وعلى المشكلة اليهوديَّة في أمريكا، وليس على قضيَّة «وحدة الشعب اليهودي».

ب- تعليم اليهودي الأمريكي

ومن الكُتب اليهوديَّة الأمريكيَّة التي أثارت ضجَّةً في الولايات المتحدة كتاب السيرة الذاتية الذي كتبه نورمان بودورتز؛ رئيس تحرير مجلة كومنتاري التي تُشرف عليها اللجنة اليهوديَّة الأمريكيَّة. واسم هذا الكتاب هو: «Making It»، والترجمة الحرفيَّة لهذه العبارة هي: «صنعتها»، وبما أنها عبارة اصطلاحية، فلتكن ترجمتنا لها هي: «النجاح». وقد نُشِر الكِتاب أول ما نُشِر عام ١٩٦٧م، لكنه ظهر في طبعةٍ ثانيةٍ عام ١٩٦٩م.

إن أفكارنا عن النَّجاح مرتبطةٌ بتصوُّرنا لأنفسنا ولدورنا في المجتمع، وتوقُّعاتنا من هذا المجتمع. أَوَليس النَّجاح هو توهُّمنا أو إيماننا بأن بعض أهدافنا أو مثالياتنا -إن شئت- قد تحقَّق، هذه الأهداف والمثاليَّات التي تحكم سلوكنا وتحدِّد مدى تقبُّلنا أو رفضنا لواقعٍ ما؟! فنحن قد نرى أن غاية الحياة هي فعل الخير وتحاشي الشرّ كما يقول سُقراط، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو أن نربي أطفالنا، أو نصطاد حسناء باهرة الجمال، أو أن ندمِّر أو نعمِّر، *«ومَن كانت هجرته لله ورسوله، فهجرته لله ورسوله، ومن كانت هجرته لتجارة يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»*.[1]

---

(١) قصد المؤلف هذا الحديث: عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوي، فمن كانت هجرته إلي الله ورسوله، فهجرته إلي الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلي ما هاجر إليه». رواه البخاري ومسلم في صحيحهما. (الناشر)

إن تصوُّرنا عن النَّجاح هو أساس تصورنا لأشياءٍ كثيرةٍ. والسِّيرة الذَّاتية التي بين أيدينا هي تاريخٌ للنَّجاح الباهر الذي يتصوَّر كاتبنا أنه أحرزه. ولأنها قصة نجاحٍ؛ نجد أنها تكتسب مدلولًا شاملًا في الولايات المتَّحدة. بل إن بودورتز يرى سيرةَ حياته باعتبارها محاولةً لتشخيص المواقف المتباينة من فكرة النَّجاح في الحضارة الأمريكيَّة، فهي حضارةٌ براجماتية تُقدِّس النَّجاح وتراه معيارًا لكل شيءٍ، ولا شيء ينجح مثل النَّجاح كما يقول المثل الأمريكي. فعبادة رَبَّة النجاح، هي المرض القومي الأول في الولايات المتحدة. ثم يضيف بودورتز قائلًا: *«لكن الولايات المتحدة من ناحيةٍ أخرى أنتجت أدبًا يحتقر فكرة النجاح. إنها حضارةٌ تُسعِّر جوع الإنسان للنجاح، ثم تحرمه من أن يجابه رغباته ويجني ثمرة تحقيق أمانيه»*. ولا أدري ماذا يعني الكاتب بهذه العبارة الأخيرة على وجه الدِّقة، ولكن حتى لو كانت دلالة هذه العبارة عميقة، وحتى لو كانت تشخيصًا لجانبٍ آخر من المفهوم الأمريكي للنجاح، فإن الكاتب قد أسقط هذا الجانب من اعتباره تمامًا؛ إذ إنه يصرف كل قواه لمعالجة الجانب الأول فحسب، وهو بذلك يؤكد على أنه أمريكيٌّ عاديٌّ أو متوسطٌ، «مِدِل أمريكان Middle American»؛ أكثر مما يتصوَّر.

ويعتقد كاتب السيرة أنه مرشحٌ، أكثر من غيره؛ لمعالجة قصة النَّجاح النموذجية، لأنه وُلد في شرق أوروبا اليهوديَّة من أبوين يهوديين هاجرا من شرق أوروبا. والمهاجرون اليهود إلى أمريكا، كما يخبرنا هو نفسه؛ تدفعهم رغبةٌ جامحةٌ وشهوةٌ شديدةٌ للنجاح، أي إنهم يبلورون هذا الجانب من الشخصية الأمريكيَّة أكثر من أيِّ فريقٍ آخر. فالنَّجاح بالنِّسبة لهم هو كل شيءٍ. فهو يعني الحصول على المال الوافر والمكانة الاجتماعية اللائقة. إن «يهوديَّة» بودورتز هي التي ترشِّحُه لأن يلعب دور «الأمريكي»، فلنُمعِن النَّظر قليلًا في هذه «اليهوديَّة».

كان أبوه رجلًا محافظًا على الطُّقوس الدِّينية، لا عن اعتقادٍ دينيٍّ وإنما بسبب التزامٍ غريزيٍّ بما يُسمَّى بالبقاء اليهودي. وهو التزامٌ لا يستند إلى تبريرٍ عقليٍّ؛ لذا فهو أعمق وأبقى من الالتزام التقليدي، وبينما كان معظم المهاجرين من شرق

أوروبا إما اشتراكيين أو صهاينة، نجد أبا بودورتز مُتعاطفًا مع الاشتراكيَّة دون أن يكون اشتراكيًّا مُتطرفًا، وهو بنفس الوقت صهيونيٌّ دون كثير حماسة. ورغم أنه كان يتحدث اليديشية (رطانة ألمانيَّة سلافيَّة دخلتها كلماتٌ عِبريَّةٌ) طِيلة حياته، إلا أنه لم يكن من المدافعين عن التُّراث اليديشي. إنه أبٌ عاديٌّ متوسِّطٌ، يُدافع بكل بساطةٍ عن البقاء اليهودي، بشكل لا يمكن تصنيفه وبطريقةٍ انتقائيَّةٍ. فهو مُتسامح مع أيِّ شكل من أشكال الوجود اليهودي، طالما أن هذا الشَّكل «يهودي» بشكل واضح وواعٍ بذاته. وكان أي اتِّجاه نحو الاندماج، ظاهرًا أم مُستترًا؛ يُثير حفيظته، فالمهم بالنِّسبة له أن تظلَّ يهوديًّا، ووسيلة تحقيق هذا الغرض هي التَّعليم اليهودي، ولا يهم بعدها التَّعريفات والأيديولوجيات والتبريرات (لاحظ عَلمنة اليهوديَّة، وكيف أصبح البقاء اليهودي مطلبًا صوفيًّا لا يتطلب تعريفًا أو تبريرًا أو سندًا أيديولوجيًّا). وارتباط الأب بمطلبه ذلك عميقٌ للغاية، ميتافيزيقي في عُمقه. وللدلالة على تلك الحقيقة يخبرنا المؤلف بقصَّة طَّريفة؛ فقد قرَّر مرَّةً مُقاطعة الدِّراسة اللاهوتية لضيقه بها، فداهمت أباه على التَّوِّ نوبةٌ قلبيَّةٌ ألزمته الفِراش، وكادت تودي به إلى الموت. وعندما عدل الشَّاب المتوسِّط بودورتز عن موقفه، وأعلن أنه سيستمر في دِراسته اللاهوتية؛ تحدث المعجزة ويُشفى الأب!

لكن ما هو التعليم اليهودي الذي «يصنع» اليهود، ويفسِّر معجزة البقاء اليهودي؟ يخبرنا بودورتز أن الغرض من ذلك التَّعليم لم يكن توسيع المدارك، أو تدريب العقول والحواسِّ، أو حتى دراسة التراث اليهودي؛ إنما كان الغرض منه هو تعميق الإحساس بالهوية اليهوديَّة، بهدفٍ أساسي هو الإبقاء على الكيان اليهودي.

وبطل سيرتنا لم يتلقَّ تعليمًا يهوديًّا فحسْب، وإنما ارتاد مدارس الأغيار أيضًا، فقد التحق بمدرسةٍ ثانويةٍ تلقَّى فيها العلوم الحديثة، وهي مدرسة مسز «ك» التي كانت تكره اليهود كراهيةً عميقةً، وتحتقرهم لقذارتهم وتخلفهم كما يخبرنا المؤلف. إلا أن المسز «ك» رأت في عقله هو، طفل الحواري اليهوديَّة؛ جانبًا كبيرًا من النُّضوج، وأن إمكانياته ولا شك كبيرةٌ. ولذا تَبنَّته هذه السيدة غير اليهوديَّة، ولم تطلب منه سوى

تعلُّم طرق الحضارة الأمريكيَّة. ثم التحق مؤلفنا اليهودي بعد ذلك بجامعة كولومبيا، والتي كانت ولا تزال جامعة «الواسب»، أو اليهود الواسب القادرين على اكتساب معارف الأغيار وأخلاقهم وعاداتهم. واكتشف في تلك الجامعة أن هدف التَّعليم فيها هو صناعة جنتلمان؛ ففي كولومبيا تعرَّف على روائع الحضارة الغربية من هومر إلى كافكا، واكتشف لفرط دهشته أن رحابة هذا التراث قد احتوت وضمَّت، فيما ضمت؛ تراثه اليهودي الخالص، الذي كان يدرسه في المدرسة اللاهوتية وكأنه لا علاقة له بأي تراثٍ إنسانيٍّ آخر. لقد جعلت كولومبيا منه جنتلمان رغم أنفه، ورغم كل محاولاته عدم التخلي عن هويته اليهوديَّة. فقد كان يُصِرُّ على ارتداء ملابس ذات طابعٍ يهوديٍّ، ويستخدم المصطلح الذي تعلمه في بروكلين، الحي اليهودي؛ لكنه رغم ذلك بدأ يخوض تجربة التغيُّر والتحوُّل. لم تعلمه كولومبيا مجموعةً من الأخلاقيَّات، وإنما غيَّرت ذوقه بمنحه تعليمًا راقيًا رحبًا، وبذلك جعلت من العسير عليه أن يعود إلى المكان الذي أتى منه. فحتى تلك اللحظة كان بودورتز يذهب إلى مدرستين، واحدة يهوديَّة وأخرى أمريكيَّة؛ لكن بعد تخرُّجه من كولومبيا حصل على منحةٍ في كيمبردج حيث درس على يد ليفيس، الناقد الإنجليزي (المسيحي)؛ الذي يصدُر نقده عن استيعابٍ دقيقٍ وحسَّاسٍ للحضارة الإنجليزية، وللتُّراث الأدبي الإنجليزي. ومن هذه النُّقطة صار تعليم بودورتز علمانيًّا محضًا.

ترك بودورتز بروكلين اليهوديَّة وراءه، وذهب إلى مانهاتن المسيحية، قرَّة عينه؛ بلاد الطَّبقة المتوسطة العالية. وهو يعرف أنه عضوٌ في هذه الطَّبقة لا بسبب دخله وإنما بسبب طريقة تنغيمه لكلامه ونوع الملابس التي يرتديها (يذكِّرني اهتمام بودورتز بملابسه بهرتزل، فقد كان يُنفق الساعات الطِّوال يفكِّر في أي بدلةٍ يلبسها قبل أن يزور فلانًا الملك أو فلانةً الأميرة، وفي المؤتمر الصُّهيوني الأول كاد يبكي حينما رفض صديقه، الزَّعيم الصُّهيوني؛ ماكس نوردو أن يرتدي حلةً رسميةً!). لقد أصبح بودورتز عضوًا في الطبقة المتوسطة العالية بسبب طريقة تأثيثه لمنزله والمدارس التي أرسل إليها أولاده؛ إنه ينتمي إلى هذه الطبقة بسبب مظهره (ظهور الإنسان

البلاستيك الذي يُغيِّر لكنته وضميره وقبَّعته دون مقاومةٍ كبيرةٍ؛ تمامًا مثل المهاجر إلى بلدٍ آخر، الذي ينجح نجاحًا باهرًا لأنه يُسقِط هويَّته القديمة ويكتسب مظاهر الهويَّة الجديدة. أقول مظاهر لأن الهويَّة شيءٌ لا يُكتَسب في أيامٍ وشهورٍ أو سنين. وهو الدرس المرير الذي يعرفه علماء الاجتماع الإسرائيليون).

ترك بودورتز شرق بروكلين وذهب إلى مانهاتن. ورحلته -كما يخبرنا- ذات دلالةٍ رمزيَّةٍ؛ فكل سكَّان ذلك الحي اليهودي إما نجحوا في الذَّهاب إلى مانهاتن مثله، أو ترقَّوا فذهبوا إلى لونج آيلاند. أما شرق بروكلين فقد تحوَّلت إلى جيتو زنجي.

كان بودورتز طِيلة تعليمه النُّموذج اليهودي الأمريكي يشعر بالتحوُّل التدريجي؛ فقد لاحظ أنه بدأ يخجل من أمه ومن طريقة حديثها باليديشية (اللكنة الأجنبيَّة التي حاول بطلنا اليهودي التخلص منها بأسرع وقتٍ حتى يتمِّم الرِّحلة إلى الفردوس). وفي الحي اليهودي كانوا يعلمون أنه يبتعد عنهم رُويدًا رُويدًا. كانوا يقولون له: «*بعد سنواتٍ لن ترغب حتَّى في الحديث إلينا، ولن تعرفنا إن مررت في الشارع*»، وهو ببراءة الطفولة لا يتصور إمكان حدوث ذلك. لكن تدور الأيام لتثبت صدق قولهم؛ «*لقد كان عندهم بصيرةٌ سوسيولوجيةٌ ثاقبةٌ*» (إحدى خصائص بودورتز أنه يختبئ وراء عباراتٍ علميَّةٍ رصينةٍ ومحايدةٍ كلما شعر بالحرج). ولكن هل خرج بودورتز حقًّا من الجيتو العقلي اليهودي، هذا الجيتو الذي كان موسى مندلسون، فيلسوف الاستنارة اليهوديَّة؛ يحاول هدمه؟ يبدو أن التعليم اليهودي أو «فابريكة اليهود» تجعل ذلك الأمر عسيرًا بعض الشيء؛ فبطلنا منذ طفولته وصباه عاجز عن الذهاب إلى أي مطعمٍ يشاء بسبب قوانين الطَّعام اليهوديَّة، كما أن تعليمه المزدوج اليهودي- الأمريكي اضطره لارتياد المدرسة اليهوديَّة بعد مواعيد الدراسة العلمانية وحضور بعض الفصول يوم الأحد، مما جعله مزدوج الشُّعور والولاء. لكن الدِّراسة في المدرسة اليهوديَّة مع ذلك لها ما يُعوِّضها في السِّيرة الذَّاتية؛ فقد حقَّقت لبودورتز فرصة تحقيق نجاحين: واحد في الصَّباح وآخر في المساء. أي إن النجاح كان «دوبل». كما أن وجود مجموعة من بنات الحاخامات في مسيرته الدِّراسية،

جعلت حياته الجنسية عامرةً خصبةً، فزِدنَه خبرةً ومعرفةً (لا أدري بالضبط ماهية الدلالة السوسيولوجيَّة لتلك الإشارة الأخيرة، لكني أوردتها لأن كاتبها لا يذكر حياته الخاصَّة إلا نادرًا، وهذه إحدى اللحظات النَّادرة التي خشيت إضاعتها).

بودورتز إذن يهودي أمريكي، أو أمريكي يشعُر بيهوديَّته؛ لذا فهو يتفلسف عن «مشكلته» اليهوديَّة قبل أن يعرض لقصَّة نجاحه! ولكن ما هي مشكلة اليهود مع العالم؟ ما هو سبب أحزانه اليهوديَّة الخاصَّة؟ اقترح «سول بيلو Saul Bellow»، القصَّاص اليهودي الأمريكي؛ أن مشكلة اليهودي تتلخَّص في أنه لا يقبل العالم؛ لذلك فالعالم لا يقبله. هنا يتوقَّف الرَّاوي بودورتز ليتفلسف قليلًا ويؤرِّخ لليهود، فيتحدث عن يهود عصر الانعتاق في أوروبا القرن التاسع عشر، الذين قال زعماؤهم: *«اقبلوا العالم وسيقبلكم، اخرجوا من الجيتو وستجدون أن أسواره التي تحيط بكم تتهاوى»*. لكن، يقول الراوي؛ اكتشف يهود ألمانيا (دائمًا يهود ألمانيا) وكل أوروبا أن المشكلة مشكلة الجانب الآخر (الأغيار)، فالمسألة ليست ما إذا كان اليهود سيقبلون العالم وإنما هل سيقبلهم العالم (لاحظ الاستقطاب اليهودي القديم؛ شعب الشهداء في مقابل ذئاب الأغيار الذين لا يتوبون، وإذا تابوا عادوا بعد فترةٍ لما كانوا عليه من جرمٍ).

ولنعد لسيرة بودورتز الذَّاتية، لنرى التَّرجمة الشَّخصيَّة لهذا التعميم الفلسفي. والتعميم الفلسفي الذي لا يستند إلى قراءةٍ للواقع، هو ضربٌ من ضروب الغيبية. ولنسأل الآن عمَّن يرفض مَن في الولايات المتحدة؟ يذهب بودورتز، كما قلنا من قبل؛ إلى كيمبردج (الدَّائرة الكبيرة)، وحينما يعود لقضاء أول عطلةٍ صيفيَّةٍ في الدَّائرة اليهوديَّة الصغيرة، منزل أسرته؛ يشعر بالغربة شِبه الكاملة بينه وبين أبويه، فالتَّعليم المسيحي (أو العلماني) قد فعل فِعله بلا شكٍّ وآتى أُكله. لكن ما زاد التوتر ووصل به إلى درجةٍ لا تحتمل هو إعلانه نيَّته الزواج من فتاةٍ غير يهوديَّةٍ (يا للهول! فهذه هي قضية القضايا ومشكلة المشاكل ومأساة المآسي بالنسبة للأم اليهوديَّة حامية حمى «البقاء اليهودي»).

نعم نحن نعرف موقف الأم اليهوديَّة، ولكن ما موقفه هو خِرِّيج كولومبيا وكيمبردج؟ لنترك له المسرح، لندعه يتكلم ونترجم كلماته حرفيًّا، مكتفين بالتعليق بين الأقواس: *«إنَّ شكوك أبويَّ* (وليست شكوكه هو العلماني بالطَّبع) *بخصوص هذه النُّقطة* (الزَّواج المختلط)*، إن لم يكن بخصوص نُقَطٍ أخرى؛ لها جذورٌ راسخةٌ في معلوماتٍ تجريبيةٍ دقيقةٍ»*. لاحظ محاولة الراوي مرةً أخرى الاختفاء خلف لغةٍ سوسيولوجيةٍ محايدةٍ حتى يخفي تساقُطه في أحضان يهوديته الجيتوية. ثم يستأنف الراوي حديثه عن «الشيكسا» الأبدية الأزلية، وكلمة «شيكسا» يستخدمها اليهود للإشارة للبنات غير اليهوديات اللائي يحاولن التَّزوُّج من الشُّبَّان اليهود، ويُقلقن مضجع الأمَّهات اليهود (وليس مضجعه هو بالطبع)؛ *«إنها الجِنية الشابة الجميلة التي تُغوي الشبان اليهود الأبرياء؛ فيسقطوا في أحضانها بعد أن تستخدم حيل جنسيَّة سرِّيَّة لا يعرفها سوى الأغيار من الناس»*.

هذه النبرة المتهكِّمة، وهذا المصطلح المتحضِّر المحترم، يضع الرَّاوي العلماني في ناحيةٍ (مع قارئه العلماني) والأم اليهوديَّة في ناحيةٍ أخرى؛ مما يجعلنا نتوقَّع مواجهةً بين النور والظلام، أو على الأقل بين خِرِّيج كيمبردج وأمه اليهوديَّة، لكنه يخيِّب ظنَّنا إذ يضيف: *«في النهاية لحسن الحظِّ لكلينا لم نتزَّوج»*. وهكذا تُحسم القضيَّة، وينتهي البطل في معسكر الأم اليهوديَّة التي كان يتهكَّم عليها منذ سطورٍ ودقائق قليلةٍ. مَن يرفض مَن؟ إن التزاوج بين أعضاء الأغلبيَّة والأقلية هو أكبر دليل على التقبُّل الإنساني الكامل من جانب الأغلبية. إن الإنسان لا يقبل أن يعيش بقيَّة أيام حياته مع إنسانٍ آخر إلا إذا كان يعترف بإنسانيته، لا بشكل عام ونظريٍّ فحسب، بل بشكل شخصيٍّ ومحسوسٍ أيضًا. لكن شغل اليهود الشاغل في الولايات المتحدة هو كيفية الحدِّ من الزَّواج بين اليهود والمسيحيين، حتى أن إحدى تنظيمات الحاخامات اتخذت أخيرًا قرارًا بطرد أي حاخام يقوم بعقد زواجٍ مختلطٍ. وبودورتز في قراره لم يختلف بأيِّ شكل عن أمه الجيتوية أو عن الحاخامات المتعنتين (ذكر الخطيبة «الشيكسا» هي الحادثة الشخصية الثانية، التي يذكرها الراوي في سيرة حياته الذاتية).

والجيتو العقلي الذي يعيش فيه بودورتز هو جيتو كامل شبه مُطلق؛ فحينما يطلب منه رئيس الجمهورية (ل. ب جونسون) أن يذكر ستة أشياء يهمه رؤية الحكومة الأمريكيَّة تُنفذها يقع في ورطةٍ، فهو يشعر دائمًا، في علاقته بالعالم الخارجي؛ بالعجز إزاء ما يحدث وما لا يحدث. وليفسر حالته النفسيَّة شبهها بحالة أسلافه الذين كانوا يعيشون في جيتو شرق أوروبا: «*أنا لم أبنِ* (وهُم أيضًا لم يبنوا) *هذا الجيتو، والأمر ليس مجرد هدم لحوائط الجيتو حتى أخرج منه، وإنما يتطلب أكثر من ذلك*». (وهو يُشبِه الإسرائيليين في ذلك من حيث لا يدري، فهم أيضًا لم يبنوا الجيتو الذي يحيط بهم من كل جانب، فمَن بناه؟ هل نزل علينا من السماء؟ أم أن رفْض التَّاريخ والعالم والتعالي عليهما هو الأساس الذي ينبني عليه أي جيتو يهوديٍّ نفسيًا كان أم فعليًا، فرديًا كان أم قوميًا؟) إن المثقَّف الذي يعمل داخل الحدود الاجتماعية المعترف بها يشبه اليهودي الذي يخرج من الجيتو ويندمج مع الأغيار، مثل هذا المثقف هو بلا شك المثقف الحقيقي، أما مَن يقف خارج التاريخ مشمئزًّا من الآخرين (الأغيار)؛ فهو نموذجٌ بشريٌّ مُستمَدٌّ من جيتو شرق أوروبا.

والاستعارات اليهوديَّة تترى، الواحدة تلو الأخرى؛ في كتابات بودورتز، فهو حين يُدعى لشقَّة فيليب راف، أحد الأدباء اليهود المشهورين؛ يعرف أنه قد «وصل»، بل ويشبه الحفل بطقوس «البار متزفاه» (بعد حفلة «البار متزفاه» يعرض على فتاة مرافقته إلى منزله، لكنها ترفض؛ وهذه هي ثالث إشارةٍ لحياته الخاصَّة).

وحتى حينما يخرج إلى العالم الخارجي، العالم المسيحي الرَّحب إياه؛ فهو يحمل في جرابه استعاراته اليهوديَّة. فالوسط الأدبي في نيويورك هو في جوهره «أسرةٌ يهوديَّةٌ»، ورغم أن كثيرًا من الكُتَّاب غير يهود إلا أنه يصرُّ على استعارة «**الأسرة اليهوديَّة**». وحينما نبحث عن سبب التسمية يسوق لنا أسبابًا واهيةً، فهي يهوديَّةٌ لأن الأسرة أولًا لم يكن عندها شعور بالانتماء لأمريكا، بل للعالم. ولكن أليس هذا الشعور مُشتركًا بين كل مثقفي العالم؟ إن بودورتز، داخل الجيتو اليهودي؛ يتصوَّر أن اليهوديَّة مركز كل شيء، ولا يُريد التزحزُح عن جيتويته.

ج - رحلة النَّجاح

لكن هل يرفُض التزحزُح حقًّا؟ إن يهود الجيتو كانوا لا يتحدثون عن السعادة الأرضية، فيهوديتهم تعني أنهم شعبٌ من الشهداء؛ لذا كانوا يقضون جل حياتهم تحيطهم الطُّقوس اليهوديَّة التي لا تنتهي، في انتظار وصول الماشيح. لكن بطلنا قضى حياته في «أطول رحلةٍ عرفها في التاريخ»، من بروكلين إلى مانهاتن، من الحي اليهودي إلى الحي المسيحي؛ وهي أطول رحلةٍ رغم أن ما يفصل مانهاتن عن بروكلين مجرد كوبري صغير، لأنها رحلة النجاح الأمريكيَّة ذات الدَّلالة الدنيوية العميقة. رحلة يصبح بعدها اليهودي بطلًا بورجوازيًّا ناجحًا يتقبل القيم الأخلاقيَّة التي تستند إلى فكرة النجاح. ويعلن للملأ بأعلى صوتٍ: *«أنا الآن رجل؛ عندي أسرةٌ، ولي اسمٌ ومكانٌ* (أو ربما مكانةٌ) *في العالم»* (تصفيقٌ حادٌّ!).

وهو من قمة مجده يتذكر أيام الظلام والجاهلية الأولى، حينما كان عند قاعدة الهرم؛ فيحكي لنا البطل الناجح أنه كان يتحدث مرَّةً إلى نجمةٍ سينمائيَّةٍ (تجسيد فكرة البطولة البورجوازية) حين أقبلت نجمةٌ أخرى. لكن بودورتز الخام الجاهل استمر في الحديث ناسيًا مكانه ومكانته، فإذا بالنجمة الأولى تصيح قائلةً: *«فلتتركنا يا غبي، فأنا الآن أتحدث مع مَن يُناظرني؛ مع واحدٍ في مكانتي»*. ولا يعترض بودورتز على الموقف ذاته أو على أساسه الأخلاقي، بل يقصُر اعتراضه على قسوة الكلمات وصياغتها فحسب؛ أي إنه يقبل هذه الهرميَّة اللاأخلاقية الجامدة. هذا هو عالم السُّوق؛ من كلٍ حسب ثروته إلى كل حسب مكانته وقُدرته على هزيمة الآخرين. ونحن حينما نقول «السوق» فهذا ليس من باب المجاز، وإنما نعني ذلك حرفيًّا؛ فهو في تسلُّقِه الهرم نحو اللمعان والنجوميَّة، يكتشف قوانين السُّوق ويعرف ما يُسمَّى بـ«رياضيَّات الشُّهرة» وحساباتها! كما يكتشف ما يُسمِّيه «بورصة الشهرة» في نيويورك ونشرتها اليومية؛ إنها نشرةٌ غير مرئيةٍ ولكنها حقيقيةٌ. هل دُعِي فُلانٌ إلى منزل جاكلين كيندي ليلة أمس؟ خمس نقط صعود. ألم يُدعَ الشَّاعر لويل وزوجته فلانة لمقابلة الشاعر السوفيتي الذي يزور الولايات المتحدة الآن؟ ثمان نقط هبوط.

هل رُشِّحَ كتاب فلانٍ لجائزة الكتاب القومية؟ نُقطتان وخمس أثمان صعود. هل أهملت مجلة «البارتيزان ريفيو» دعوة فلان ليشترك في إحدى ندواتها؟ نقطتان هبوط، وهكذا. وحينما يظهر كتاب بودورتز «بناء وهدم»؛ فإنه يتردَّد في قراءة النَّشرة اليوميَّة، لكنه، وهو البطل الذي نعرفه؛ يمسك بتلابيب شجاعته ليكتشف (لحسن الطَّالع) أن شهرته قد زادت، وأن أسهُمه بدأت ترتفع بشكل غير أكيد حينما نشرت مجلة «التايمز» عرضًا لكتابه (مع صورةٍ له) في الصَّفحة الرَّابعة. وارتفعت شهرته مرَّةً أخرى إلى حدٍّ ما حينما نشرت «نيوزويك» صورةً له ومقالًا يمتدحه. لكن سمعته هبطت قليلًا بعد هجومٍ شرسٍ عليه في «نيويورك ريفيو أوف بوكس» (لم يصاحب الهجوم حتى صورة كاريكاتورية مما جعل سُمعته تهبط نقطةً أخرى)، وهكذا. وكل النَّاس جزءٌ من هذا السُّوق وهذه الحرب اليومية للحصول على النجاح؛ إنها حياةٌ نيتشويةٌ باهرةٌ. كل النَّاس في حربٍ الواحد مع الآخر، كل النَّاس إما منتصرٌ أو منهزمٌ، صيَّادٌ أو فريسةٌ.

وحلّ مشكلة النَّجاح كما يقترح علينا بودورتز، هي أن تُلقي بنفسك دون أي خجل أو حياءٍ في خضمِّ المعركة وأحضانها. إن حكمة حياته تتلخَّص في اكتشافه الرَّائع الذي توصَّل له، وهو بعدُ في الخامسة والثلاثين من عمره؛ أنه من الأفضل أن يصيب المرء النَّجاح على أن يبوء بالفشل، فهذه هي الحقيقة «العظيمة» التي توصَّل لها بخصوص «طبيعة الأشياء»، وهذا هو جوهر نسقه الفلسفي. وقد توصَّل إلى حقائق أخرى تابعةٍ، فهو «متيقِّن الآن أن النُّقود شيءٌ هامٌّ»، وهذا اكتشافٌ لم يصل إليه إنسانٌ من قبل (كما يُضيف مُتهكِّمًا)، *«ومن الأفضل بلا شك أن أكون ثريًّا على أن أكون فقيرًا. أعرف أن القوَّة شيءٌ مرغوبٌ فيه، فمن الأفضل أن تعطي أوامر على أن تتلقَّاها. أعرف الآن أن الشُّهرة شيءٌ لذيذٌ دون تحفُّظٍ، فمن الأفضل أن تكون معروفًا على أن تكون مغمورًا»*. وهكذا تتعالى الصلوات لربَّة النَّجاح في صوتٍ مليءٍ بالتَّقوى ومُفعَم بالورع، فيصل ولعه بالنَّجاح والشُّهرة إلى أبعادٍ لا يمكن تخيُّلها، فبينما هو في الجيش يكتب مقالًا لمجلة «كومنتاري»، وحينما يُصبح المقال موضوعًا

حادًّا للنقاش يُثير الأمر الغبطة في قلبه، لا لأن المقال جيِّدٌ (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)، ولا لأنه مقال قد حقَّق عن طريقه ربحًا (تجارة يُصيبها أو امرأة ينكحها)، وإنما لأن المقال جعل منه موضوعًا للحديث، وهذا هو المهم؛ أن يظل هو السِّلعة الرَّابحة والشيء المطلوب. لم يعُد بودورتز مُرتديًا القناع البلاستيك للدِّعاية، بل أصبح هو نفسه الرجل/ الإعلان/ البلاستيك، الإنسان السلعة؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولعل تشيؤ بودورتز الكامل يُفسِّر لنا لماذا يذكر «الشيكسا» وبنات الحاخامات وفتاة «البار متزفاه»، أي الفتيات اللائي يعرفهن بشكل عابرٍ سطحيٍّ، يحاول استهلاكهن ويحاولن استهلاكه، يحاول اصطيادهن أو يحاولن اصطياده؛ أما زوجته وأطفاله فلا يذكرهم إلا في سياق الحديث عن تكاليف حياته المتزايدة، أي إنهم يُذكرون باعتبارهم أحد العناصر التي تزيد جوعه ورغبته المتزايدة في النجاح.

وحينما تدعوه مجلة «النيويوركر» للكتابة، يهزُّ بطلنا اليهودي الناجح رأسه كالحكماء مؤكدًا أنه بذلك صار أول أديب شاب يُدعى للكتابة في «البارتيزان ريفيو»، المجلة اليهوديَّة؛ و«النيويوركر»، مجلة الأغيار؛ خلال أسبوعٍ واحدٍ (تصفيقٌ حادٌّ مرَّةً أخرى) انظروا إليَّ! انظروا إلى الشيء اليهودي الناجح.

والشيء اليهودي الناجح هو الإنسان الأمريكي، الإنسان المرن المطَّاط «المتكيِّف» مع واقع الأغيار الرأسمالي. لكن تكيُّف بودورتز مُتطرفٌ بعض الشيء؛ تكيُّف مَن اشتهر ونال بعد طول جوعٍ. لذا فبرغم أنه «البطل الناجح»، إلا أنه لا وجود له ألبتة حتى في سيرته «الذاتية»؛ إذ كل ما يبقى منه هو مجموعةٌ من قصص النجاح النمطية والنموذجية. إن ما تقابله هو النمط البلاستيك، وليس إنسانًا حيًّا ينتصر أو ينكسر.

وبعد نجاحه المبدئي الباهر بدأ بودورتز يحلم بالنَّجاح الكامل، أو الفردوس المفقود. وحلم بودورتز بالفردوس يبعث بعض الشيء على الفزع؛ فهو يشير إلى كثيرٍ من المفكِّرين اليهود الذين يحلمون بفردوسٍ ليس فيه يهود أو مسيحيون، وليس

فيه عُمّال ولا أصحاب عمل، وليس فيه أطفال حواري ولا مترفعين متأنقين (وبلا شكّ ليس فيه عربيٌّ ولا أعجميٌّ، ولا فلسطينيٌّ بطبيعة الحال). ويا له من فردوسٍ بلاستيك خال من كل تنوُّعٍ وليس فيه حدودٌ.

ويبدو أن بودورتز بدأ يحلم بالفردوس بعد أن «وصل»، فمن هناك، من ذروته الأرضيَّة تلك؛ يمكنه الحلم بالفردوس. يقول بطلنا الناجح إنه كان مُصابًا بأزمة إجدابٍ فنيٍّ، ولكنه حين قرَّر الكتابة من أجل المال لا من أجل الشُّهرة (ما الفرق بينهما؟) أصبح سليمًا مُعافى خَلاقًا! ويأتيه الخلاص على هيئة عرضٍ من مجلة *«شو»*، بأن يكتب مقالًا شهريًّا نظير ٧٥٠ دولارًا. ولكن يبدو أن «الخلاص» الذي يتحدث عنه هو مجرد خلاصٍ عاديٍّ، وليس بخلاص لوكس أو فردوس؛ لذلك لا يُسبِّب له أي «تحوُّلاتٍ» جوهريَّةٍ. لكنه حينما يتلقى دعوة المليونير هنتجتون هارتفورد، لحضور مؤتمر فناني شمال أوروبا؛ تحدث المعجزة. فقد عُقِد المؤتمر على جزيرةٍ يمتلكها المليونير. ولندع بودورتز يتكلم مُكتفين بالترجمة: *بدأ هارتفورد يُنفق دون حسابٍ ليطوِّر الأرض التي عُرفَت سابقًا باسم جزيرة الخنزير، لتصبح أجمل مكانٍ للاصطياف وأكثرها ترفًا في منطقة البحر الكاريبي. ولم تكن كل برامج التطوير قد نُفِّذت بعدُ، إلا أن جزيرة الفردوس، كما أسماها هارتفورد؛ كانت بالفعل تستحق اسمها حينما وصل إليها أعضاء ندوة «شو»، وأنا من بينهم.*

لقد تركت الخمسة أيام التي قضيناها في جزيرة الفردوس أثرًا لا يُشبه بأية حال أيَّ شيءٍ محسوسٍ حدث لي، إلى درجة أنه يمكنني القول إنها تفتقد إلى معادل موضوعيٍّ. إن شيئًا ما انقطع داخلي لحظة وطئت قدماي الجزيرة، وفي الخمسة أيام التالية جربت أحاسيس تشبه الأحاسيس التي يُفترض أن الإنسان قد ذاقها قبل طرده من الفردوس الذي يُسمَّى جنَّات عدنٍ. كنت كطفل في الرَّابعة لا يزال أسير الحالة التي يعدُّها فرويد مصدرًا لأسطورة الفردوس. لقد كنت مُسيطرًا تمامًا على كل طاقاتي في كل لحظةٍ، لا يوقفني شيءٌ عن استخدامها ولا أكَلّ من ممارستها. كان في استطاعتي الشرب طوال الليل دون أن أفقد وعيي، ثم أستيقظ بعد ساعتين

أو ثلاث من النوم دون الشعور بأيِّ تعب. لم تكن حواسي أكثر انتباهًا من ذلك طيلة حياتي، ولم يكن عقلي أكثر توقُّدًا، ومعنوياتي لم تكن قطّ أكثر ارتفاعًا. كنت أحب كل فردٍ، وكان كل فردٍ يحبني (هذا هو التناسق الفردوسي بعينه).

فما السبب؟ أعتقد أن جزيرة الفردوس كانت تمثِّل تحقيقًا للأحلام التي أحملها دائمًا في روحي، ولكن لم تواتني من قبل الجرأة الكافية لتصويرها بشكل مُفصَّل، وحي. هذا هو النجاح (أخيرًا الآلهة الحقيقية اللوكس، فحتى الآن كنا نتعبَّد لآلهةٍ درجة ثانية. اغفر لنا يا رب خطايانا)، *وكل مكوناته المختلفة مجتمعةٌ في عرضٍ واحدٍ باهرٍ. ورؤية ذلك جعلتني أسكر بشكلٍ يفوق سُكري بكل جالونات الروم التي استهلكتها ذلك الأسبوع. هذا هو معنى الثراء: أن تنام في حجرةٍ كبيرةٍ مُتألقةٍ، ذات تِراس مُطلّ على بحرٍ أخضر شفَّاف بشكل لا يُصدَّق. أن تتمطى في كسل بجوار حمَّام سباحة وعندك خادمان يلبسان معاطف بيضاء، ويتنافسان على امتياز خدمتك.*

كان كل ما حولي شاهدًا على معنى الشهرة. كان يعني أن ثقةً هادئةً في النفس قد خُصَّت بها الروح، حتى تحارب ضد الشكوك والمخاوف التي كانت لا تزال بطبيعة الحال تراودها. وإن كانت هذه الشكوك والمخاوف غير مسيطرةٍ على ميدان القتال كله.

لقد نظرت إلى أصحاب هذه الشهرة العالية وأحببت ما رأيت (هذه كلمات الله في العهد القديم بعد أن خَلَقَ العالم، وهي كلمات بودورتز في لحظات النشوة الفردوسية). *لقد قِستُ نفسي عليهم ولم أجد نفسي أقل منهم، فتركت جزيرة الفردوس مُصمِّمًا ألا أفكِّر بطريقةٍ «فقيرةٍ». لقد أسكتُّ صوت بروكلين الكئيب، ووصلت إلى مستوى مانهاتن في الحياة ونمطها.* يريد بودورتز ويطلب ويتوقع؛ لأن عدم التوقُّع، كما يخبرنا؛ هو الطريق إلى عدم الطَّلب، وعدم الطَّلب هو الطَّريق إلى عدم الحصول على أيِّ شيءٍ. لذا ترك بودورتز «الناجح» جزيرة الفردوس وهو عازمٌ على أن يطلب (يطلب ماذا؟ حمَّام سباحة وجزيرة في البحر الكاريبي؟) ثم نُفاجَأ بالكاتب يتفلسف فجأةً، فقد أُصيب بمرضٍ خطيرٍ لأول مرَّةٍ منذ طفولته. وأثناء مرضه يكتشف أنه عاش طيلة حياته في حالة صيرورة دون وجودٍ ثابتٍ ومحدَّدٍ،

وهذا ما يُقرِّر فِعله. يقرِّر بودورتز أن يجد نفسه، فيجدها في أحسن مقال كتبه: مقال يرفض فيه الاندماج بين الزُّنوج والبِيض، فالمشكلة بينهما، حسب تصوُّره؛ لم تكن مجرد الاندماج، بل هي أعمق من ذلك. إذ ثمَّة شيء مرضيّ في علاقة السود بالبيض، شيء لا يخضع للتحليل العقلاني، وهي لذلك تشبه علاقة أوروبا المسيحية باليهود (مرَّةً أخرى نعود إلى الجيتو الأزلي الأبدي؟ ما فائدة الفردوس إذًا؟ يبدو أنه لم يحرِّره من شيء!).

هنا يجب أن نذكِّر أنفسنا بأن فردوس بودورتز لم يختلف في كيفه عن مانهاتن وإنما اختلف في كمِّه وثمنه؛ فالتَّحوُّل لم يكن رأسيًّا، وإنما كان تحوُّلا أفقيًّا (تمامًا مثل فتوحات إسرائيل التي لا تُنجِز شيئًا، ولا تُحقِّق أي سلامٍ أو طمأنينةٍ).

وإذا كان وضع الزُّنوج لا عقلانيًّا، فلا يمكن حل المشكلة إلا بشكل لا عقلانيٍّ عن طريق الزَّواج المختلط بالبيض، والنَّاتج هو فردوسٌ عِرقيٌّ لا أبيض ولا أسود (ما هو مكان اليهودي في هذا الفردوس؟).

ويعترف الكاتب بأنه بكتابته ذلك المقال كان يخاطر بكل شيءٍ، سُمعته وأصدقائه واسمه، ولكنه مثل الشهداء والقدِّيسين والكاوبوي؛ يدخل النار (نار آلهة الدَّرجة الأولى اللوكس) لكنه لا يحترق، بل يزداد شُهرةً ونجاحًا، وهو يصف ذلك الوضع مُستخدمًا مصطلحًا دينيًّا: *إن مقالة «مشكلتي الزنجية» كانت، بلا شكٍّ؛ أفضل قطعةٍ كتبتها على الإطلاق، وقد جذبت اهتمامًا أكثر من أي مقال آخر كتبته، وإن كان بعض ذلك الاهتمام ليس مما يبعث على الغبطة.*

لكن هذا لا يهمُّ بطل النجاح؛ بل «*هو برهانٌ آخر من تجربتي أننا يمكننا نيل النجاح دون العبث بالنور الداخلي المقدَّس*». ويا له من تطابقٍ رائعٍ بين الذَّات والموضوع، بين الضمير والسوق، بين الإله والسلعة. حتى الراوي نفسه يتساءل رافعًا حاجبيه في دهشةٍ: «*أيمكن أن يصير النجاح مِقياسًا دقيقًا، إلى حدٍّ ما، لقدراتنا الداخلية في عالم الحضارة الأمريكيَّة؟*».

فإذا كانت الإجابة بالإيجاب؛ تكون الإمبرياليَّة النفسيَّة الأمريكيَّة قد قضت قضاءً مُبرمًا على الإنسان الأمريكي، وحوَّلته إلى شيءٍ يقاسي. والسؤال في نهاية الأمر: ما هو النَّجاح الذي تبحث عنه؛ ما هي الآلام والآمال؟ هجرةٌ لله ورسوله ﷺ أم هجرةٌ تجاريةٌ للحصول على الأشياء ومزيدٍ من الأشياء؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يجب أن يسأله البشر بالنسبة لقضية النجاح.

فإن لم يسألوه، كانوا كالحيوان الأعجم الذي لا رُوح له. أي مثل بودورتز الذي تَعبَّد في محراب ربَّة النجاح المادي والأشياء والنقود والشُّهرة، أو كالجبل الأصمِّ الذي لا يستطيع حمل الرسالة التي عرضها الله عليه، فيقف وسط الطبيعة مساويًا لها، ليس فيه ما يميزه عنها.

ثانيًا: الإسلام كحلم البراءة الأولى في حياة مالكوم

من الشيء إلى الشيء، هذه هي حركة بودورتز الأفقية. لكن مالكوم يتحرَّك ويتطوَّر بطريقةٍ مُغايرةٍ تمامًا.

ومالكوم زعيمٌ أمريكيٌّ أسود كان اسمه الأصلي مالكوم لِتل (أي مالكوم الصغير)، لكنه غيَّر اسمه إلى «مالكوم»؛ رافضًا اللقب الذي أعطاه إياه الرجل الأبيض. ثم غيَّر اسمه بعد ذلك إلى «الحاج مالك» بعد حجه إلى مكة المكرَّمة، حيث خاض تجربةً روحيَّةً كان لها أعمق الأثر عليه. وسيرة حياته الذاتية، التي نتعرض لها في هذا المقال؛ تمدُّنا بكثيرٍ من تفاصيل حياته الثَّريَّة التي انتهت باغتياله عام ١٩٦٥م.

إن سيرة مالكوم إكس الذَّاتية ما هي إلا ترتيلةٌ تُمجِّد روح الإنسان التي يمكنها البقاء والاستمرار في مواجهة أكثر الظروف إفسادًا وتدميرًا. والإنسان في مقدوره تحقيق هذا البقاء والاستمرار لأنه يحلم دائمًا بعالمٍ من البراءة الأولى، وبذا يحتفظ بقدرٍ من النَّقاء الرُّوحي، حتى إذ صار أكثر الساخرين مرارةً. والإسلام بالنسبة لمالكوم

هو حلم البراءة هذا، فقد زوَّده بإطارٍ مثاليٍّ حرَّره من أخلاقيَّات وافتراضات مجتمعه العِرقيَّة، وهي افتراضاتٌ وأخلاقيَّاتٌ كان عليه تقبُّلها برغم أنه فريستها وضحيَّتها.

ولكن ما هو سبب اختياري للفظ «حلم البراءة» لوصف العالم العربي الإسلامي الذي شاهده مالكوم، والإشارة للمعتقدات الإسلامية التي آمن بها في نهاية المطاف؟ إن المملكة العربية السعودية والقاهرة قائمتان بالفعل، كما أن الحضارة الإسلاميَّة هي حضارةٌ خاليةٌ، إلى حدٍّ كبيرٍ؛ من أيَّة مؤشِّراتٍ عُنصريَّةٍ. هذه حقائق لا نزاع فيها. ولكن الوطن العربي مع ذلك ليس ذلك الفردوس الذي رآه مالكوم؛ لأنه وطنٌ له جوانبه المظلمة، شأنه في ذلك شأن أي بقعةٍ أخرى في العالم. لكن مالكوم تعامل مع الوطن العربي من منظوره هو؛ كأمريكيٍّ أسود يُعاني وَيْلات التَّفرقة العُنصريَّة. ومن هذا المنظور اكتشف مالكوم أن الوطن العربي لا يقف في طريق نمو الإمكانيات الإنسانية للإنسان الأسود. لذلك وجد مالكوم في العالم العربي الإسلامي تحقيقًا جزئيًّا لحلمه بالبراءة، وبعالمٍ خال من التَّفرقة العنصريَّة. إن أمريكا البيضاء -كما أخبرنا هو- مجردةٌ من هذه الإمكانيات المثالية والإنسانية، فهي ذات نزعةٍ تدميريَّةٍ خالصةٍ.

وعلاوة على ذلك كله، فإذا كان الحلم بالبراءة والمثل الأعلى في الأدب والفلسفات القديمة نسقٌ فكريٌّ خال من أيِّ صراعاتٍ أو توتُّراتٍ لأنه حلمٌ أسطوري لا تاريخي، ومجرد إمكانية نظرية، فإن حلم البراءة الثوري في العصر الحديث يضرب جذوره في الواقع، ويكتسب قوته وفعاليته من أنه ينبع من الواقع ويعود إليه، وأنه حلمٌ، في نهاية الأمر؛ قابل للتحقيق بشكل جزئيٍّ فحسْب داخل التَّاريخ. أي إن حلم البراءة الثوري لا يظل مجرد صورةٍ ذهنيَّةٍ رائعةٍ، كما أنه ليس بواقعٍ فردوسيٍّ قد يتحقَّق الآن وهنا، وإنما هو رؤيةٌ للحياة الفاضلة يتعامل الثوري من خلالها مع الواقع التاريخي، ويحاول تحقيقها داخل التَّاريخ ذاته. ولأنه يحقِّقها داخل التَّاريخ؛ فهي لن تحتفظ بصفائها وبراءتها. والعالم العربي الإسلامي، بالرَّغم من كل توتُّراته التاريخية؛ كان بالنِّسبة لمالكوم تحقيقًا جُزئيًّا لحلمه بالبراءة وبعالمٍ يسمو على أمريكا من

النَّاحية الأخلاقية؛ على الأقل فيما يختص بالعلاقات الإنسانية والعنصرية. وحين عاد مالكوم إلى أمريكا محاولًا تحقيق رؤيته الجديدة عن طريق الفعل الاجتماعي؛ أظهر أنه ينتمي إلى تقليد الثوريين التاريخيين، الذين يحلمون ولكنَّهم لا يهيمون في الفضاء وعالم الأساطير، ولا يحاولون تشييد أي فردوسٍ أرضيٍّ، وإنما يحاولون تغيير الواقع، لا عن طريق التسامي عليه أو الانفصال عنه أو تدميره كُليَّةً، ولكن بإعادة تشكيله وفقًا لرؤيتهم عن «الحياة الفاضلة»، وبما يتَّفق مع إمكانيات هذا الواقع الحقيقية.

ويمكن رؤية بِناء السِّيرة الذَّاتية ككل على أنه تجسيدٌ لتطوُّر مالكوم من كونه إنسانًا ماديًّا لا روح له ولا ضمير، إلى إنسانٍ قادرٍ على اكتشاف «نزعاتٍ مثاليةٍ» في نفسه. تبدأ السيرة بإشارةٍ إلى أم مالكوم الحامل؛ رمزٌ واضح الدلالة على الخصوبة والحياة الجديدة والإمكانية الإنسانية التي تريد أن تُولد. وإلى جوار الأم الحامل يقف أبو مالكوم، الواعظ الذي ينتمي لشكل بدائيٍّ من القومية السوداء في أمريكا. أي إنه هو الآخر رمزٌ لميلادٍ قوميٍّ جديدٍ. ومع ذلك، فالسَّطر الثاني من السيرة يتحدث عن أعضاء جماعة «الكو كلوكس كلان» العنصرية الإرهابية؛ الممتطين صهوة جيادهم، والذين أحاطوا بمنزل مالكوم في الليل وسخروا من أبيه. أي إنه من البداية تُحاصِر قوى الشر إمكانيَّات الخير، وتحاول إجهاضها والقضاء عليها. لكن بقاء مالكوم وكتابته لسيرته الذاتية يقوم شاهدًا على أن الإنسان، برفضه بيع روحه لشيطان العرق والمادية، وبإيمانه بتفوُّق ما هو ممكن على ما هو قائمٌ بالفعل؛ يستطيع تحقيق الخلاص.

أ- الجاهلية .. ما قبل الإسلام

تواطأ كل شيءٍ في مجتمع مالكوم ضده وضد إنسانيته؛ فبعد موت الأب يأتي مندوبو الدَّولة والضمان الاجتماعي، لتحويل مجتمع مالكوم العائلي الصَّغير إلى وحداتٍ اقتصاديةٍ منفصلةٍ، فقد نظر هؤلاء إلى أعضاء الأسرة كأرقامٍ وكحالةٍ مُدرَجةٍ في مستنداتهم، وليس ككائناتٍ بشريَّةٍ. وبعد ذلك تم تحويل مالكوم فعلًا إلى رقمٍ حينما أُودِع السجن، وصار رقمه جزءًا منه؛ «مطبوعٌ في عقله». وتحويل الناس

إلى أرقامٍ -كما اكتشف مالكوم- هو ضرورةٌ حضاريَّةٌ لأمريكا؛ لأن الدولة تستطيع أن تُرسِلَ إنسانًا إلى الفضاء الخارجي، ولكنها لا تعرف كيف تتعامل مع البشر.

وإذا كانت العلاقة بين شيءٍ وأشياء أخرى، وليست بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ فإن التَّعامُل الميكانيكي يحل محل المسئولية الاجتماعية والحب، ويبدأ كل فردٍ في محاولة افتراس الآخرين. ويتحدَّث الجزء الأول من السيرة عن الشَّهوة التي تحل محل الحب، وعن رجال بيضٍ وسودٍ يستغلون عاهراتٍ بيضاواتٍ وسوداواتٍ، والعكس بالعكس. كما يتحدث عن مجموعة المقامرين الذين يُفضِّلون ألا يفعلوا شيئًا، على الصِّراع الإنساني الحقيقي. فقد اكتشفوا في أعماق قلوبهم أن الفعل الإنساني، أو «العبودية» كما كانوا يسمُّونه، لا يُفيد ولا ينفع في أمريكا المستغلة الآلية الرأسمالية؛ فكِتاب الرأسمالية المقدَّس يقول: *افعل بالآخرين قبل أن يفعلوا هم بك* (أي استغلهم قبل أن يستغلوك).

والبلطجي هو أكثر الشخصيَّات ديناميَّةً، فقد لاحظ مالكوم أن البلطجي، وهو نتاج التمييز العنصري؛ ليس لديه وازع داخلي من أيِّ نوعٍ؛ فقد تعين عليه افتراس الآخرين باستمرارٍ وتلمَّس طريقه إلى نقاط الضَّعف الإنساني، كابن عرس؛ ليحافظ على بقائه. ولم يكن البلطجي في أمريكا البيضاء ليثق بأيِّ فردٍ؛ إذ عليه الاستمرار في المزاحمة ودفع الآخرين. وإذا انحط الإنسان لمرتبة البلطجي أو المقامر، أو لمرتبة الشيء؛ فإنه يفقد ما يميِّزه ككائنٍ بشريٍّ. وتتواتر في السيرة الإشارات إلى الإنسان على أنه «حيوانٌ»، مما يشي بوحشيَّة المجتمع الأبيض التي تحطُّ من قدر الإنسان. لقد وجد مالكوم أن البيض اعتبروه في البداية عصفور كناري أليفًا، وبعد ذلك صار بالنسبة لهم بغلًا جميلًا ثم حيوانًا أليفًا أصيلًا، وكلب بودل ورديًا. ثم أصبح هذا الحيوان الأليف، العديم الفائدة؛ مجرد شيءٍ طُفيليٍّ، ليصبح في الفصل السَّادس نسرًا مُفترَسًا. وبرغم كل ذلك لم يتخل مالكوم ولو للحظةٍ عن براءته؛ فقد أدرك أنه صار طائرًا مُفترسًا لا بسبب شرٍّ أزليٍّ كامنٍ فيه، وإنما بسبب وجوده في عالم الرَّجل الأبيض المادي المبني على الصراع الذي يلتهم فيه الإنسان أخاه الإنسان.

واكتشف مالكوم بعقله التحليلي الذكي، أن إدراك بلطجي الحي الزنجي لمثل هذا الوضع يجعله إنسانًا ثوريًا قويًا؛ إذ إنه يرى نفسه كضحيَّةٍ أكثر منه كمفترسٍ، لذا فدرجة الاحترام الذي يكنُّه هذا البلطجي للمؤسسة البيضاء في أمريكا، أقل بكثيرٍ من درجة الاحترام التي يُكنُّها أيُّ زنجيٍّ آخر في شمال أمريكا لنفس المؤسسة.

بل إن مالكوم يلمح بأن المقاييس الأخلاقيَّة لمجتمع البلطجية تُعتَبر، بصورةٍ ما؛ أسمى من مقاييس الأخلاق في أمريكا البيضاء. فالعلاقة بينه وبين صديقه البلطجي شورتي تتَّسم بحرارةٍ مُعيَّنةٍ، لا نجدها مُطلقًا في عالم الدُّولار. أن يُكوِّن البلطجيَّة «مجتمعًا» متآلفًا، كما أن قانونهم الأخلاقي مُتَّسق مع نفسه لأنه يُطبَّق على السُّود والبيض على السواء، وهذه قِمَّة أخلاقيَّة لم تصل إليها تلك الولايات المتحدة بعد.

ب- بشائر البعث أو بزوغ حلم البراءة

وإذا كان البلطجية قد استطاعوا الإبقاء على أرواحهم سليمةً، فإن غالبية السُّود قد أظهروا قوَّة احتمال حضاريَّةً ملحوظةً. إذ لم يستمرُّوا في البقاء فحسْب، لكنهم كانوا قادرين في ذلك العالم المادي المطلق على الاحتفاظ بشيءٍ من صفاء الرُّؤى وبالقدرة على الحلم والتخيُّل. إذ نجد أن ما أنقذ مالكوم في النهاية هي تلك الرؤى لعالم من الجمال البريء، الذي يعلو عالم الدولار الميكانيكي الأملس الأقرع.

ويرِد أول ذكرٍ في السيرة لرؤى الخلاص في الصفحات الأولى من الفصل الأول؛ حينما يتذكَّر مالكوم جيدًا موعظة أبيه المفضَّلة، التي حملها في قلبه طِيلة حياته: *«ها هو ذا القطار الأسود الصغير قادمٌ، ومن الأفضل لك أن تكون جاهزًا له»*.

قطار الخلاص آتٍ إذن لا محالة، ولا بأس من الانتظار قليلًا على أن نكون جاهزين له عند وصوله. وتوضِّح الصورة المستخدَمة مدى صلابة الإنسان الأسود في أمريكا، إذ إنه يحول أكثر الأنشطة والأعمال ماديَّةً وأقل الأشياء شاعريَّةً، مثل القطار؛ إلى رموزٍ روحيَّةٍ. ويتذكَّر مالكوم أيضًا، فيما يتذكَّر؛ الأسطورة التي كان أبوه يحكيها ويستشهد بها؛ أسطورة آدم الأسود الذي طُرِد من فردوس أفريقيا،

وحُمِل عنوةً إلى كهوف أوروبا ... ولم ينس مالكوم قط استعارة العاصفة القادمة، التي كان أبوه يستخدمها لوصف خلاص أفريقيا. العاصفة ستهبُّ لا محالة لتطهر هذه الكهوف الدَّنسة. وإذا كان السُّود عندهم مثل هذه المقدرة على رفض الوقوع في شِراك المادَّة، فلا غرو إذن أنهم، في الكنيسة؛ *«يُلقُون بأرواحهم وأجسادهم في العبادة»*. إن أمريكا البيضاء لم تمح أرواحهم تمامًا كما فعلت مع إخوانهم البيض؛ الذين لاحظ مالكوم أنهم *«كانوا يجلسون في الكنيسة، ويتعبَّدون بالكلمات فحسب»*، دون موسيقى أو غناء، وهو مشهدٌ حزينٌ حقًّا!

لقد كانت الموسيقى والرَّقص هما وسيلتا الأفرو-أمريكي للتسامي على عذابه، وتحقيق ذاتيَّةٍ وهُويَّةٍ مُعيَّنتين. وفي السيرة الذاتية، يؤكِّد مالكوم، بروحٍ ملؤها المرح؛ أن غرائزه الأفريقية المكبوتة كانت تجد متنفسًا لها حين يرقص. وهناك إشاراتٌ كثيرةٌ للموسيقى والأغاني الأفرو- أمريكيَّة، التي ترمز لانتصار الروح الأفرو- أمريكيَّة، وإلى رغبتها في بلوغ السماء (تقف الموسيقى والرقص على طرفٍ نقيضٍ من صور الحيوانات، التي تدل على مدى شراهة حضارة الإنسان الأبيض، ورغبتها في الحطِّ من قدر الأفرو- أمريكي وتقييده بالأغلال والأرض، بعيدًا عن السماء الزرقاء).

ولا يتضح هذا المغزى الرمزي للموسيقى في أيِّ فصول السيرة أكثر من اتِّضاحه في الفصل الخامس؛ حيث يروي مالكوم قصة الزنجي الذي كان يدخِّن سيجارةً من القنَّب الهندي، حين سمع أغنية ليونيل هامبتون «طائرًا لبيتي»؛ فاعتقد أنه يستطيع الطيران وقفز فعلًا من شُرفة الطَّابق الثاني، فكُسِرت رجله. وقد خلدت كل من حادثة «الانطلاق الروحي» المؤقَّت، والنتيجة المأساوية المترتبة عليها؛ في أغنية أفرو-أمريكيَّة أخرى! أغنية إيرل هاينز «القفز من الشَّرفة الثانية»، كان مالكوم موضوعيًّا لدرجةٍ تسمح له برؤية قصور وعقم ذلك الطيران الفردوسي. كما كان أيضًا متعاطفًا مع الفكرة بدرجةٍ سمحت له برؤية روعة جمالها، فاستطاع هو ذاته، في مرحلةٍ لاحقةٍ من حياته؛ أن يحلق في السماء مثل الفتى «إيكاروس» (الذي حاول الطَّيران بأجنحةٍ من شمعٍ)، لكن مالكوم طار بأجنحةٍ وهبه الله إياها بعقيدة الإسلام.

لقد حافظت الموسيقى، وعناصر الخلاص الأخرى في عالم الأفرو- أمريكي؛ على روح مالكوم، وأنقذته من الانسحاق تحت وطأة الأخلاق العرقيَّة في أمريكا البيضاء. ولكن برغم احتواء هذه العناصر على درجةٍ من الرفض للوضع الراهن الآسن، إلا أنها لم تُحرِّر الأفرو- أمريكي تمامًا؛ إذ لم تزوِّده بحلم البراءة الذي يُشكِّل نقدًا شاملًا للحضارة الأمريكيَّة. وشكَّل الإسلام، النسق الأخلاقي المتكامل؛ لمالكوم كُلًا من حلم البراءة والنَّقد الشامل.

ج- الإسلام

بدأت عمليَّة الاهتداء إلى الإسلام بسلوكيات بسيطة مثل رفضه تناوُل لحم الخنزير حينما كان في السجن، واعتياده الوضوء؛ لكنها انتهت بتبنٍّ ثوري لنسقٍ جديدٍ من القِيَم.

تعرَّف مالكوم، إبان سجنه؛ على الإسلام كما فسَّرته جماعة إليجا محمد (التي تُسمَّى بـ«المسلمين السُّود»[1])، وآمن بذلك التفسير وشعر بتفوُّقه الأخلاقي. لكنه برغم ذلك انفصل عنهم فيما بعد وتخطى افتراضاتهم الأخلاقية العنصرية، التي تميِّز بين السُّود والبيض لصالح السُّود هذه المرة؛ فقد كانت تؤمن بمقلوب العنصرية الأمريكيَّة.

وبالرغم من مُساهمة عقيدة «المسلمين السُّود» في تحرير مالكوم وإنقاذه، فقد كانت مثل عناصر الخلاص الأخرى في حياته قبل إسلامه. عناصر قاصرةٌ أخلاقيًّا ونفسيًّا عن تحقيق الخلاص الكامل. لهذا السبب يجب علينا مُناقشة تحوُّل مالكوم إلى الإسلام «الحقيقي»؛ موضِّحين في سياق المناقشة كيف تخطَّى معتقدات جماعة «المسلمين السُّود». لقد أظهر مالكوم فهمًا حدْسيًّا للإسلام والتصوُّر الإسلامي

---

(١) الاسم الأصلي للجماعة هو «أمة الإسلام»؛ بالإنكليزية «نيشن اوف إسلام Nation of Islam»، ولا أعرف سبب تغيير أستاذنا لاسمها في سياق قراءته، ولا سبب غياب المدلول الحلولي لهذا الاسم الذي أطلقته الفرقة على نفسها، كأنها كل الأمة؛ لا أعرف سبب غيابه عن قراءته الفذة الممتعة لسيرة مالكوم رحمها الله. وربما كان الفصل الذي عقده مالكوم بنفس الاسم: «Black Muslims» هو ما أوحى لأستاذنا بذلك. (الناشر)

للخالق. ومن المعروف أن كثيرًا من المستشرقين قد درسوا الإسلام من قبل، ولكنَّهم كانوا راضين عن حضاراتهم تمام الرِّضا، متقبِّلين لكل افتراضاتها الأساسيَّة، في حين كان مالكوم يجتاز أزمة أخلاقيَّة ويحلم بعالمٍ أفضل. لهذا السبب لم يُدرك كثيرٌ من المستشرقين جوهر التصوُّر الإسلامي للخالق، بعد مئات السنين من الدِّراسات النَّظريَّة المتعمِّقة والإرساليات الأوروبية؛ قدر إدراك مالكوم له. لقد اكتشف مالكوم، على سبيل المثال؛ عدالة وعلمية التصوُّر الإسلامي للخالق. إن الإله في المسيحية عالميٌّ لكل البشر، لكن مالكوم كان يعلم أنه أصبح إلهًا مقصورًا على الرجل الأبيض والحضارة الغربية؛ التي تخلع عليه ألوانًا معينة وتُكسِبُه سماتٍ حضاريَّةً محدَّدةً. وقد شعر واعظٌ مسيحيٌّ بالحرج، حين أخبره مالكوم عن اللون الحقيقي ليسوع والقدِّيس بولص. لقد أُحرِج هذا الواعظ لعلمه أن يسوع لم يكن أبيض البشرة، ولم يكن أشقر الشعر، لكن الكنائس في الولايات المتَّحدة صوَّرته كذلك. **والخالق، حسب التصور الإسلامي؛ يبقى بمنأى عن التعصُّب الإنساني والفروق الزَّائفة، فهو ليس إله قبيلة دون غيرها أو إله شعبٍ دون آخر، إنه إله العالمين في كل زمانٍ ومكانٍ، ومن كل لونٍ.** وقد بلغ مالكوم هذه النتيجة لا عن طريق الاستنتاج المنطقي، ولكن من خلال التجربة الشخصية. ففي العالم العربي الإسلامي أصر الناس على رؤية مالكوم على أنه أمريكي؛ أوَليست هذه جنسيَّته؟ فدعاه قائد الطائرة المصري، الذي كانت بشرته أكثر سوادًا من بشرة مالكوم نفسه؛ إلى قمرة القيادة باعتباره «مسلمًا أمريكيًّا» فحسب، وليس باعتباره مسلمًا أسود. وألقى عليه مسلمٌ إيراني التحية في القطار؛ قائلًا: «أميــ... أميركي». وكانت دهشته كاملةً، وأخذ إدراكه لطبيعة الإله الإسلامي شكلًا نهائيًّا؛ حينما لم يسلك عبد الرحمن عزَّام، «الرجل الأبيض»؛ سلوك الرجل الأبيض بتاتًا. ليكتشف مالكوم بفزعٍ شديدٍ أنه كان الوحيد الذي يُعاني من الإحساس بالفوارق العرقية. هذه النظرة الجديدة كانت علامة البدء لانسلاخه الكامل من القِيَم الأمريكيَّة. وفي أحد أجزاء السيرة، وهو جزءٌ له دلالةٌ عميقةٌ تبدأ بالإشارة إلى الصباح؛ يخبرنا مالكوم عن إعادة تقويمه للفظة «أبيض»، وعن قفزته البطوليَّة من الأحكام العنصريَّة إلى التقويمات الإنسانية

الأخلاقية؛ إذ فقدت لفظة «الرجل الأبيض» محتواها العنصري، لأنه شاهَد أُناسًا ذوي بشرةٍ بيضاء متآخين بصِدقٍ. لقد طرد مالكوم شيطان العرقية بشكلٍ تامٍّ، لدرجة أنه حين لاحظ أن الناس المتشابهين كانوا يمكثون سويًّا، لم يرجع ذلك إلى نوعٍ من أنواع التفرقة العنصرية، وإنما اعتبره نوعًا من الفعل الاختياري لـ«أناسٍ» يُوجَد بينهم شيءٌ مشتركٌ يجمعهم.

لقد مكَّنه هذا التَّفاعل الشخصي مع المسلمين من إدراك الأبعاد الثوريَّة للمفهوم الإسلامي لوحدانية الله. فالبِيض الذين يقفون أمام الإله الواحد ليسوا أُناسًا بيض البشرة، وإنما كائناتٌ بشريَّةٌ كاملةٌ. وقد وقف مالكوم الأفرو- أمريكي بدوره أمام «خالق الجميع»، وشعر أنه كائنٌ بشريٌّ كامل. **لقد استطاع الشعور بهذا التكامُل الإنساني لأن وحدانية الله تعني قبول وتساوي كافَّة البشر أمامه.**

رحَّب مالكوم بالنتيجة الحتميَّة لرؤيته الإسلامية الجديدة، ولذا رفض الأسطورة الزَّائفة التي تروِّجها جماعة «المسلمين السُّود»، التي تزعم أن الرجل الأبيض هو الشيطان! لقد بلغ من السَّماحة والتَّحرُّر من العرقيَّة حد رفض العنصرية ومقلوبها، فرأى أنه لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا أبيض على أسود[1]، إلا بالتقوى والعقل الإنساني الفاضل.

وثمَّة جوانب أخرى للتصوُّر الإسلامي للخالق أدركها مالكوم، فمن المعروف أنه، حسب التعاليم الإسلامية؛ لا يجوز لأي إنسانٍ رسم صورة الإله، فالخالق لا يتجسَّد في أيِّ شكل إنسانيٍّ؛ لذا فنبيّ الإسلام هو «مُحطِّم الأوثان». ويرجع ذلك لأسبابٍ ليس من الصعب اكتشافها؛ فرسم صورةٍ للإله هو في نهاية الأمر فرضُ حدودٍ عليه، وصبغه بصبغةٍ مُعيَّنةٍ. إن الإله الإسلامي إلهٌ شامل ويجب أن يظل كذلك. وقد أظهر مالكوم فِطنته الملحوظة في رفضه للإطار الأسطوري المركَّب الذي ابتدعه «المسلمون السود»، الذين اعتقدوا أن الإله مُتجسِّد في إنسان نصف

(١) في الحديث الذي رواه أصحاب السنن؛ قال ﷺ: «لا فضل لعربي علي عجمي، ولا لعجمي علي عربي، ولا لأبيض علي أسود، ولا لأسود علي أبيض؛ إلا بالتقوي. الناس من آدم وآدم من تراب». (الناشر)

أبيض ونصف أسود؛ اسمه «السيد فارد»! وقد تنبه مالكوم أيضًا إلى خطورة تجسُّد الإله في شخصٍ أو في أيِّ صورةٍ، وأشار إلى مخاطر تأليه ما هو إنسانيٌّ. لذا رفض مالكوم الإيمان بشخص إليجا[1] محمد، زعيم جماعة المسلمين السُّود؛ «كقائدٍ مقدَّسٍ»، وآمن به كقائدٍ بالمعنى الإنساني المألوف. وفي مكَّة، فوق التَّل؛ وفي حضرة الواحد الأحد، أدرك مالكوم مدى خطورة الإيمان بالشخص الذي يدَّعي أن الله يهديه ويحميه بشكل خاصٍّ. ولعل رفضه لفكرة التجسُّد وحلول الخالق في مخلوقاته؛ يفسِّر عدم تعرُّضه مُطلقًا في سيرته الذَّاتيَّة إلى وصف شكل الإله، أو ما يتصوره على أنه سماته الشخصية.

واحدٌ أحد هو، لكنَّه غير غريبٍ على الذَّات الإنسانيَّة؛ لذا لم يزوِّد إله الإسلام نبيَّه بقوى فوق الطَّبيعة من شأنها أن تنتهك مسار العمليَّات الطبيعية. ورفض محمد ﷺ بإصرارٍ شديدٍ أن يستسلم إلى المغريات ويكون «نبيًّا عاديًّا» يملك قوى خارقةً؛ وبقي إنسانًا يعيش وسط الناس. ويخبر الله محمدًا في القرآن أنه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2]. كان مالكوم يُردِّد تصورًا قرآنيًا؛ حين قال: *«يرسل الله إليك بإشاراتٍ أنه معك حين تكون معه»*. إنه ذلك الإله الرَّحيم الذي استشعره مالكوم في كل مرَّةٍ ردَّد فيها عبارة: *«أعرف أن الله قريبٌ»*، وهي عبارةٌ يتواتر ذكرها كثيرًا في السِّيرة كلازمةٍ، خاصَّةً في الفصل السابع عشر.

لم يكن نبي الإسلام مجرد نبيّ بعثه الله، ولكنه كان أيضًا قائدًا سياسيًّا لـ«شبه الجزيرة العربية». فهو لم يقدِّم رؤيةً جديدةً للحياة فحسب، لكنه حارب لتحرير العبيد وتحقيق هذه الرُّؤية في التَّاريخ. لذلك كان «العبد» بلال، وهو من أوائل المهتدين؛ مؤمنًا بالدِّين الجديد ومقاتلًا في سبيل الحرية، وبالاختصار؛ فإن الفصل بين الفكر الديني والأخلاقي من جهةٍ، وبين التطبيق الاجتماعي والسياسي من جهةٍ أخرى؛ ليس من الإسلام، وهو الجانب الذي لم يغمض على مالكوم.

---

(١) إيليا أو «إليجا Elijah» هو اسمه قبل إسلامه، إيليا روبرت بول؛ وقد التصق به بعدها كأنه لقب! (الناشر)

(٢) سورة البقرة، آية ١٨٦.

ويبدو لي أن هذه هي أهم أسباب انفصال مالكوم عن جماعة «المسلمين السود». فقد اكتشف، وهو يسير بين الجماهير الأفرو- أمريكيَّة، أن هذه الجماعة بمقدورها أن تكون قوةً ذات فعاليةٍ إن هي ساهمت بشكلٍ أكثر فعاليةً في الصراع الشامل للجماهير. وحينما فشلت جهوده في إعادة تكييف الجماعة مع مقتضيات الحركة الاجتماعية، قرَّر أن يبني تنظيمه الخاصَّ، الذي يُطبّق ما تُنادي به جماعة «المسلمين السُّود» دون تطبيقٍ. كان مالكوم مُتحمِّسًا لإسلامه بدرجةٍ جعلته أكثر من مجرَّد كاهنٍ، فقد كان يحثُّ على الفعل الاجتماعي، كرسول الله.

وآخر خاصيةٍ للمُثُل الإسلامية، التي استطاع مالكوم أن يستشفَّها ويُقدِّرها حقَّ قدرها؛ هي خاصية التجمُّع أو الائتلاف. ومن المعروف أن يوم الرَّاحة الإسلامي هو يوم الجمعة أو يوم التجمُّع، ويقول الله في القرآن إن يده دائمًا مع الجماعة أكثر مما هي مع الفرد[1]. وفي أول لقاءٍ لمالكوم مع المسلمين شعر لتوِّه *«بجوٍّ من الدِّفء والصَّداقة»*. وإذا راعينا أنه آتٍ من مجتمعٍ عرقيٍّ مُتناحِر، نجد أن الأثر كان أشبه *«بالخروج من السجن»*. لقد أحبَّه النَّاس وقبلوه *«كأخٍ لهم»*، وقدَّموا له من طعامهم بل وأناموه في مخادعهم. وتسأله زوجةٌ مصريَّةٌ غير قادرةٍ على رؤية التَّنافُس على أنه الدَّافع الوحيد لسلوك الإنسان؛ تسأله تلك الزَّوجة في براءةٍ شديدةٍ: *«لماذا يتضوَّر الناس من الجوع في العالم، في حين تملك أمريكا فائضًا كبيرًا من الطعام؟»*. إن الإنسان القادم من مجتمعٍ رأسماليٍّ مُركَّبٍ يعرف «الحقيقة العلمية»؛ ففي أمريكا يتركون الفائض حتى يتعفَّن، وفقًا لأحدث الأساليب التكنولوجية المتقدمة بالطبع؛ حتى ترتفع الأسعار!

لقد رفض مالكوم أخلاقيَّات المجتمع الرأسمالي العِرقي في الولايات المتَّحدة، وفاض قلبه بحُبِّ مكة المكرَّمة حتى إنه ترك جزءًا من نفسه في تلك المدينة المباركة، وحمل في قلبه جزءًا منها. ولكنه مع ذلك رفض الهبوط إلى أي شكل من أشكال

---

(١) لا أظن الأستاذ يقصد آية سورة الفتح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. وربما كان الأقرب لمراده ما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يد الله مع الجماعة». (الناشر)

الهروب أو «العودة» الصوفيَّة، ليقيم بجوار قبر الرسول أو يستوطن العالم الإسلامي، أو أي مكانٍ يتصوره على أنه الفردوس الأرضي.

وحمل مالكوم حلمه بالبراءة الأولى، وعاد إلى قومه ليحارب معهم من أجل حقوقهم؛ فرفض الأفكار الانفصالية التي تدعو لها بعض الجماعات القوميَّة السَّوداء، وتبنَّى مفهومًا أكثر تركيبًا عن العودة إلى أفريقيا. لقد أضحت «العودة» بالنسبة له «عودةً» فلسفيَّةً وحضاريَّةً فحسب، وليست عودةً جسديَّةً فردوسيَّةً. فكانت العودة الفعلية لأمريكا على قدرٍ مُساوٍ من الأهمِّيَّة كالعودة النفسيَّة إلى أفريقيا. وتكشف هذه «العودة» الثُّنائيَّة عن التزام مالكوم بمجتمعه وبحدوده التاريخيَّة، وعن رغبته في تخليص ذلك المجتمع وتوسيع حدوده التاريخية عن طريق حلمه بالبراءة ومُثُله العليا الجديدة. كما تكشف عن إصراره على هويَّةٍ ثُنائيَّةٍ مُركَّبةٍ؛ كأفريقي وأمريكي. فهو لم يكن نبيًّا مجنونًا يُريد تحطيم كل الحدود التاريخيَّة والإنسانية ليحقِّق فردوسًا أرضيًّا خالصًا.

وبعد قبوله للمثُل الأخلاقية الإسلامية، وبعد طرده لشبح أمريكا البيضاء؛ استطاع الإنسان الجديد مالكوم أن يكتشف نفسه ويكتشف روحه الحقيقية الجميلة. وتصل السيرة الذاتية إلى ذروتها حين يكتشف مالكوم المتحرِّر، في عالم البراءة الجديد في مدينة مكة المكرمة؛ «نزعات مثالية» في نفسه. إن هذه لصيحةٌ بعيدة الدَّويِّ من كلب البودل الوردي، والبلطجي، الذي أرادت أمريكا البيضاء من مالكوم أن يكونه. **إن تلك السيرة الذَّاتية هي حقًّا ترتيلة تمجيدٍ لروح الإنسان القادرة على التحمُّل، بل على الانتصار.**

الباب الرابع

المرأة الأمريكيَّة بين التَّاريخ والفردوس

تمهيد

كان من المستحيل علي الذهاب إلى الولايات المتحدة دون أن يجذب انتباهي حال المرأة هناك، فقد قِيل لي إن الولايات المتَّحدة هي البلاد التي تحكمها النِّساء ويرتع فيها الأطفال. أما الرجال فهم في مصانعهم أو مكاتبهم أو أمام التليفزيون، باختصار هم دائمًا «يعملون» شيئًا ما.

وحينما حملت متاعي أنا وزوجتي، عام ١٩٦٣م؛ وارتحلت إلى هناك، حاولت أن أعيش الأسطورة واجتهدت حتى ألائم الواقع مع الفكرة (كما يفعل معظم الناس وكما أفعل عادةً)، لكن دون جدوى. فقد لاحظت زوجتي أن صديقاتها الأمريكيات مُرهَقات جسديًّا ونفسيًّا، وأن حياتهن يتخللها قدرٌ كبيرٌ من التَّوتُّر. فهُنّ مشغولاتٌ دائمًا ولا يكففن عن العمل أو التفكير في الأطفال أو في توصيل الزَّوج إلى عمله أو إعداد الطعام أو الذهاب إلى عملهنّ. كُنَّ لا يتكلمن أبدًا عن حياتهن، وإنما يثرثرن عن حياة أزواجهن.

وفجأةً بدأت زميلاتي وأساتذتي من السيدات في الجامعة، وجاراتنا وصديقات زوجتي؛ في الشكوى من وضع المرأة الأمريكيَّة. كانت أسباب الشكوى شيئًا مألوفًا؛ فنحن المصريين نعيش في مجتمعٍ يؤمن إيمانًا جازمًا بأن المرأة (أي امرأةٍ) أقل

من الرجل (أي رجل) في قوة عقلها وتصوُّراتها الفكريَّة. وبما أني مدرس في كلية البنات، فأنا أرى بنفسي التَّرجمة العمليَّة لهذه العنصرية. فكم من خرِّيجةٍ منحها الله عقلًا ذكيًّا وموهبةً لا حدَّ لها، انتهت كل آمالها داخل جدرانٍ أربعةٍ؛ لأن زوجها يؤمن بأن مكانها هو المنزل. وكم من طالبةٍ متزوِّجةٍ تعيش في هلعٍ لأنها لا تُنجب ذكورًا، وزوجها صاحب الحول والطَّول «نفسه في ولدٍ»، كما لو كان تحديد جنس الجنين مسئوليَّة المرأة (لو قرأ هذا الرجل المصري بعض كتب البيولوجيا لعرف أنه هو المسئول عن تحديد جنس الجنين). أقول كانت الشكاوى مألوفةً نظرًا لأن المرأة الأمريكيَّة مثل المصرية قد وقعت ضحيَّة استغلال مجتمع الرجال، وإن كانت الظروف الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والحضاريَّة مختلفةً. وبرغم ذلك كنت ألاحظ أيضًا نبرةً غريبةً في شكوى مَن أعرف من سيداتٍ أمريكيَّاتٍ، حتى خُيِّل لي أن تمرُّدهن ليس مُوجَّهًا ضد ظروفهن الاجتماعية أو وضعهن الإنتاجي، بل مُوَجَّهٌ إلى وضعهن البيولوجي ذاته. وحينما عُدت عام ١٩٧٣م، بعد غيابٍ دام أربع سنواتٍ؛ تدعمت كل شكوكي، فثورة تحرير المرأة ذات الجذور الاجتماعية لفحتها لفحةٌ فردوسية؛ أتت عليها وحرمتها من بُعدِها التَّاريخي، وجعلت منها تمرُّدًا فاقِد الاتجاه والمحتوى والدلالة، وبالتالي ليس له أية فاعليَّةٍ اجتماعيَّةٍ. وقد لاحظنا أن هذا النموذج يتكرَّر في مُعظَم حركات السخط في الولايات المتحدة؛ فالساخطون على الاستغلال لا يتحوَّلون إلى تنظيمٍ سياسيٍّ وإنما يدخِّنون الحشيش ويتعاطون المخدرات، وبدلًا من «الإنسان الناجح» لا يظهر «الإنسان الثوري»، وبدلًا من «الإنسان ذي البُعد الواحد» لا يظهر «الإنسان مُتعدِّد الأبعاد»؛ وإنما يظهر «الإنسان المكتئب» أو «الإنسان الفاشل». واليسار الجديد نفسه يصدُر عن تحليل للواقع التاريخي، لكنه سَرعان ما ينتهي إلى الفعل المباشر. وحركة تحرير المرأة في الولايات المتحدة ليست استثناءً من القاعدة، بل هي تكرارٌ لنفس النَّمط والنموذج. وهو نمطٌ لا يُمكن تفسيره إلا على أساس عدم وجود تاريخ أمريكي، وعدم وجود وعي به؛ فالوعي بالتاريخ في جوهره وعيٌ بالوجود الاجتماعي للإنسان، أي أن يرى الإنسان نفسَه جزءًا من كُلٍّ إنسانيٍّ يمتدُّ في الماضي. وبافتقاد هذا الوعي وهذا الوجدان التَّاريخي

يصير الإنسان جُزءًا من الحاضر فحسب، ومجموعةً من الأحاسيس والانفعالات وردود الأفعال التي لا يضبطها أي ضابطٍ، ويمكن توجيهها في أيِّ اتجاهٍ. إذ إن المركز في هذه الحالة يصبح جهاز الإنسان العصبي واحتياجاته الشخصيَّة. ولنبدأ بتحليل الجذور الاقتصادية لحركة تحرير المرأة، مرجئين الحديث عن النزعة الفردوسية إلى النصف الثاني من المقال.

أولًا: تحرير المرأة الأمريكيَّة والتاريخ

يحتاج النظام الرأسمالي إلى عمالةٍ فائضةٍ دائمًا؛ نوع من البروليتارية السائلة غير المرتبطة بوظيفةٍ محدَّدةٍ، فهي على استعدادٍ للعمل في أيِّ مكانٍ وفي أيِّ وقتٍ دون أن تصبح جزءًا عضويًا من عملية الإنتاج نفسها، أي إنها تظل دائمًا داخل الإنتاج وخارجه في الوقت ذاته. ووجود مثل هذه العمالة السَّائلة هامٌّ وضروريٌّ من وجهة النَّظر الرأسمالية لسببين: أولًا للضغط على العمَّال المنتظمين حتى يُمكن إبقاء أجورهم عند الحد الأدنى الممكن. ثانيًا حاجة النظام الرأسمالي لهذه القوَّة السَّائلة حتى يتمكَّن الرأسماليُّون من نقل رأسمالهم من استثمارٍ لآخر. فوجود فائض دائم من العمال يُمكِّن الرأسمالي من استئجار أي عدد من العمال في أي وقتٍ، فلو تحقَّقت «العمالة الكاملة»، لأصبحت حركة النظام بطيئة للغاية، بل ومستحيلةً من بعض النواحي.

ويسدّ المهاجرون الجدد والزنوج حاجة الرأسمالية الأمريكية في هذا المجال، لكنهم -من وجهة نظر رأسمالية- يُعَدُّون متخلفين نوعًا، لأن خلفيَّتهم الحضارية تعوقهم عن التأقلم السريع مع النظام، وعن الإسهام الكفء في عملية الإنتاج، كما أنهم يعجزون عن القيام ببعض الأعمال الفنية.

لهذا تكوَّن أكثر من فريقٍ للعمالة الفائضة في الولايات المتحدة؛ واحد لمختلف الأعمال اليدوية وقوامه المهاجرون والزنوج، والآخر للأعمال المتقدِّمة نوعًا مثال

السكرتارية والخدمات الاجتماعية والأعمال الإدارية وبعض الأعمال الصناعية الخفيفة وقوامه السيدات (تكتسب هذه العمالة الفائضة أهمِّيَّةً خاصَّةً أثناء «الحروب المحدودة» التي تخوضها أمريكا، حيث تحل السيدات محل المحاربين الذكور في غابات آسيا).

بهذا المعنى تكوِّن سيدات أمريكا أقليَّةً مُضطهدةً مُستغلةً اقتصاديًّا، وهي مثل كل الأقليات؛ تصل إلى وعيها بنفسها في لحظةٍ من اللحظات الزمنية، وتبدأ في التمرُّد والمطالبة بحقوقها كما فعل الزُّنوج والبوروتوريكان من قبل.

وقد يكون من المفيد ذكر أن من مجموع المواطنين الأمريكان الذين يكسبون أكثر من عشرة آلاف دولار يُوجَد ٢٪ فقط من السيدات، وأنه من أوائل الستينيات يعمل أكثر من نصف سيدات الولايات المتحدة «بعض الوقت» لا كله؛ أي إنهنَّ على استعدادٍ دائمٍ لشغل أي وظائف جديدةٍ وللحلول محل أي رجل يُفصَل أو يسافِر لفيتنام! وحتى تتَّضح الصُّورة في ذهننا، فإن ٩٥٪ من الوظائف التي يزيد أجرها عن ١٥ ألف دولار يشغلها أمريكان بيض، أي إن الاضطهاد ليس جنسيًّا فحسب، إنما اضطهادٌ عنصريٌّ طبقيٌّ أيضًا. ولأنه اضطهادٌ جنسيٌّ/ عنصريٌّ/ طبقيٌّ، فالمرأة السوداء، محدودة الدخل؛ المتزوجة من زنجي هي أكبر ضحيَّةٍ للاضطهاد الرأسمالي الأمريكي. وقصيدة «أغنية ليلة الجمعة»، التي كتبتها شاعرة زنجية؛ تعبِّر عن هذا الاضطهاد المركَّب الذي يقع على المرأة السوداء:

أركب الأتوبيس بقدماي المرهقتين المعذَّبتين.
حزينةٌ أنا ... أظن أنني سأكتب قصيدةً،
عن الأجور المنخفضة وسعر اللحم المرتفع.
ارفعي رأسك يا فتاة، فأنت ذاهبةٌ للمنزل.
ها أنذا ذاهبةٌ، وزمنٌ طويل انقضى.
والأتوبيس يجري، يأخذني إلى المنزل.
يا مطبخي العزيز الذي عليَّ أن أغسل أرضه حتى تصبح ناصعة البياض.

يا أطفالي الأعزاء الذين عليَّ أن أطعمهم.
يا زوجي الذي ينتظرني الليلة،
وعندي الكثير لنقوله ... وليس عندنا الوقت.
هاأنذا ذاهبةٌ، وزمنٌ طويل انقضى،
والأتوبيس يجري يأخذني إلى المنزل.
قضيت زمنًا طويلًا في مدينة المدير الأبيض،
ولم أر وجه أهلي في المكان الذي أنا راحلةٌ عنه.
أعمل طوال الأسبوع في المدينة الحزينة،
ولكنها الآن ليلة الجمعة وسأعود للمنزل.
هاأنذا ذاهبةٌ، وزمنٌ طويل انقضى،
والأتوبيس يجري يأخذني إلى المنزل.

وبطلة القصيدة السوداء مُضطهدةٌ أكثر من زوجها من بعض النواحي؛ فهي تعمل داخل المنزل وخارجه في الوقت ذاته، وهذا ناجمٌ عن خطأ في «تقسيم العمل» في الولايات المتحدة، ومعظم المجتمعات الصناعية الحديثة. فتحرير المرأة، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ الذي تم في الإطار الحضاري البورجوازي، كان يعني حق المرأة في العمل خارج المنزل إلى جوار عملها داخله، لذلك فالمرأة العاملة تعمل ضعف الرجل. إن النظام الرأسمالي مبني على أساس عمل المرأة في المنزل دون مقابل ماديٍّ أو معنويٍّ، لذلك يُقال إنه إذا تزوَّج رجلٌ من خادمته (التي يدفع لها أجرًا ويحسب عملها ضمن القوَّة العاملة)، فإنه يُنقِصُ بذلك الدخل القومي؛ لأنه لن يدفع أجرًا لزوجته، كما أن عملها غير محسوبٍ ضِمن القوَّة الإنتاجية.

ومما يزيد العبء على الزَّوجة أن الأسرة الأمريكيَّة «أسرةٌ نوويةٌ»، تضُم الأب والأم والأولاد فحسب (على عكس «الأسرة الممتدة» التي تضُم الجد والجدة والأعمام والأخوال أحيانًا، وهكذا). ففي إطار الأسرة النووية يجابه الإنسان أعباءه

اليومية كلها بمفرده، دون توجيهٍ أو مساعدةٍ؛ كما أن الأطفال يُمثلون عبئًا ثقيلًا عليه، فالأطفال يكوِّنون مجتمعًا هرميًا خاصًّا بهم في العائلة الممتدة فيُسيِّرون أمورهم بأنفسهم، ويتبادلون الخبرات والمعلومات فيما بينهم دون اللجوء إلى الكبار في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ؛ مما يخفِّف العبء النفسي إلى حدٍّ كبيرٍ.

وكملاحظةٍ جانبيَّةٍ، لابد من الإشارة إلى أن بناء الأسرة النووية بناءٌ ضيِّقٌ خانقٌ؛ فالزوج لا يخرج إلا مع زوجته، وبالتالي لا تخرُج هي إلا معه. وأذكر أني حينما كنت أودُّ الخروج دون صحبة زوجتي، كنت أجد صعوبةً في إقناع أيٍّ من أصدقائي الأمريكان البيض بذلك، وفي النهاية أخرج مع صديقٍ زنجي وآخر من أصل يونانيٍّ. ونفس الصعوبة كانت تواجهها زوجتي؛ فهي تضطر للخروج مع سيدةٍ من أصل ألمانيٍّ والزنجيَّة زوجة صديقي اليوناني الأصل. وكلهم ينتمون إلى شرائح اجتماعية تُسيطِر عليها تقاليد حضاريةٌ تتقبل فكرة الأسرة الممتدة. وفي داخل إطار الأسرة النووية لا يمكن للرجل المتزوِّج إلا أن يُصادِق رجالًا متزوجين، ولا يمكن للمرأة المتزوجة إلا أن تُصادق نساءً متزوجاتٍ، وقد تبدو هذه المسألة طبيعيةً، لكن نتائجها الحضارية عميقةٌ للغاية؛ فهي تعني حصر الزوج اهتماماته في اهتمامات زوجته، وهو ما قد يكون مقبولًا بالنِّسبة له، لأنه يقضي معظم حياته خارج المنزل يُعبِّر عن إنسانيته وإمكانياته؛ لكن الأدهى أن تحصر الزوجة كل اهتماماتها في اهتمامات زوجها، وبما أنها تقضي كل وقتها في المنزل، فإنها تصير عبئًا على نفسها وعلى زوجها.

وكثيرًا ما كنت أسمع زوجات زملائي يتباهَيْن أنهُنَّ يعرفن كل كبيرةٍ وصغيرةٍ عن أزواجهنَّ ودراساتهم، واتجاهاتهم وأساتذتهم وتقديراتهم ... إلخ، وفي الوقت ذاته لا يعرف المرء ما هي اهتماماتهنَّ أو اتجاهاتهنَّ أو حتى أحزانهن أو أتراحهن. أي إنه في إطار الأسرة النووية تحدُث مُصادرةٌ جُزئيَّةٌ لحرية الرَّجل، ومُصادرةٌ كاملةٌ لحريَّة المرأة، وذلك على عكس الأسرة الممتدَّة؛ حيث يمكن للزَّوجة أن تنشئ علاقاتٍ مع أختها أو أمها أو حتى حماتها، ويمكن للرجل أن ينشئ علاقاتٍ مع معارفه من الرجال. وكما يُفيد مجتمع الأطفال في تبادل الخبرات وفي الإنضاج الإنساني، كذلك

تقوم مجتمعات الرِّجال ومجتمعات النساء المنفصلة بنفس الوظيفة. لكل ذلك كانت أزمة المرأة الأمريكيَّة آخذةً في التَّفاقُم، بعدما أمست غير قادرةٍ على العثور على ذاتها الحقيقية.

وقبل أن نسترسل في ذكر أسباب أخرى ساهمت في ظهور حركة تحرير المرأة في الغرب، يجب التوقُّف لنذكِّر أنفسنا أن نظام الاقتصاد الرأسمالي - شأنه شأن أي نظامٍ اقتصاديٍّ آخر - ليس مجرد عمليةٍ إنتاجيَّةٍ ميكانيكيةٍ تتم خارج الإنسان وبمعزلٍ عنه؛ وإنما هو وضعٌ نفسيٌّ وموقفٌ عاطفيٌّ وتصورٌ محدَّدٌ للنفس البشرية. فالإنسان في المجتمع الإقطاعي، على سبيل المثال؛ كان لا يرى نفسه إلا كعضوٍ في جماعةٍ (كانت كلمة «Individual» في العصور الوسطى تعني عضو جماعةٍ)، أما في المجتمع الرأسمالي بجميع مراحله (سواءٌ كانت رأسمالية تجارية أو صناعية أو مالية)؛ فإن الإنسان يصير مجرد وحدةٍ إنتاجيةٍ، يعيش لنفسه وبنفسه مُنفصلًا عن الآخرين. إن الأنماط الإنتاجية المختلفة لم تهبط علينا فجأةً، بل طوَّرها الإنسان بنفسه وابتدعها. وهو أثناء ممارسته التاريخيَّة تلك، قد صنع نفسه وابتدعها. إن أي نمطٍ إنتاجيٍّ يستند إلى تصوُّرٍ محدَّدٍ للنفس البشرية وتطوُّرها؛ تصوُّرٌ هو ذاته ثمرةٌ لنفس النَّمط الإنتاجي. لذا فمن الأفضل ألا نسأل السؤال البيزنطي التقليدي عن البيضة والفرخة، أو عن الواقع الاقتصادي والإنسان، وأيُّهما يسبق الآخر؛ فثمة علاقةٌ جدليَّةٌ تربط الواقع الاقتصادي بالأفراد الذين يعيشون فيه، وإذا كان الواقع الاقتصادي مسئولٌ عن وجود الأفراد على هذه الصورة، فالأفراد هم أيضًا مسئولون عن وجود الواقع الاقتصادي على هذه الصورة. وبما أن الإنتاج مرتبطٌ بنموذجٍ إنسانيٍّ محدَّدٍ، فإن نمط الإنتاج الرأسمالي مسئول عن كثيرٍ من السِّمات التي تسم الإنسان الأمريكي. فالأسرة النووية التي أشرنا إليها لم تنشأ مُصادَفةً، وإنما هي ترجمةٌ اجتماعيةٌ لمحاولة تنشئة الإنسان الرأسمالي الفرد المنفصل عن الآخرين. ولتهدم الأسرة الممتدة؛ حتى نخلق التربية التي تسمح بسهولة بيع العمل الإنساني، وانتقال رأس المال في ديناميَّةٍ عمياء لا تقف في طريقها أي تنظيماتٍ اجتماعيَّةٍ متخلفةٍ! وقد يُسبِّب هذا الانفصال

الكثير من الألم الإنساني، لكن هذه ليست هي القضية. والرأسمالية هي المسئولة أيضًا عن ظهور الإنسان الاستهلاكي المصاب بالسُّعار، والذي صار كالشَّفَّاطة التي تُريد ابتلاع كل شيءٍ كبُر حجمه وغلا ثمنه. ولإرضاء هذا السُّعار الاستهلاكي؛ تشتري الزوجة ثلاجة ضخمة (أضخم من ثلاجة الجيران)، وتضطر لترك أسرتها لتعمل لسداد الفاتورة؛ فتتهدَّم الأسرة ويزداد التوتُّر في حجمه، زيادةً تتناسب تناسُبًا طرديًّا مع حجم الاستهلاك.

ولزيادة السُعار الاستهلاكي تُطلق الرأسمالية قوى الإنسان الجنسيَّة من عقالها، كما بيَّنَّا من قبل. هذا الإنسان الاستهلاكي هو التَّرجمة العمليَّة لمبدأ اللذَّة، الكَمِّي البورجوازي؛ الذي يُعرِّف السعادة على أنها إرضاء أكبر قدر ممكن من الرَّغبات لأكبر عددٍ ممكنٍ من الناس! إن هذا الإنسان يعيش داخل نفسه منفصلًا عن الآخرين وعن تراثه؛ يعيش في الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التي لا علاقة لها بالخير أو الشر. وإذا أحس بالاغتراب؛ فهو يهزم اغترابه بإنشاء علاقةٍ جنسيَّةٍ، فالعلاقة الجنسية وسيلةٌ مباشرةٌ وسهلةٌ وملموسةٌ للاتصال بالآخرين. ولأنه يدور حول نفسه؛ تصبح الأسرة أمرًا غير هامٍّ، فاهتمامنا بالأسرة ينبع من إيماننا بأن الوجود الإنساني وجودٌ جماعيٌّ، وأن الأسرة هي المكان الذي نتوارث فيه القِيَم الجماعيَّة التي كدَّ الإنسان عبر تاريخه للوصول إليها، وهي المكان الذي نكتسب فيه هويَّتنا الاجتماعية والتاريخية والإنسانية، ونُعدِّل ونُشكِّل هويتنا الطبيعية الفجَّة بالتدريج وبأقل قدرٍ ممكنٍ من الألم.

هذا الموقف من الجنس أثَّر بلا شكٍّ على بناء الأسرة، وزاد من تحللها، بل ويُهدِّدها بالاختفاء تمامًا. ما أضعف دور المرأة التقليدي كزوجةٍ وأمٍّ، وجعلها تبحث عن دورٍ آخر لها.

وإذا كان الموقف الاستهلاكي من الجنس قد أضعف دور المرأة التقليدي، فإنه ألقى على كاهلها عبئًا من نوعٍ جديدٍ؛ فأينما تفتح التليفزيون الأمريكي تجد امرأةً نصف عاريةٍ تبيع لك شيئًا ما. وهذا يُصعِّد توقُّعات الرجل الأمريكي بالنسبة

للجنس والمتعة التي يتوقَّعها. وتبدأ الأمور تختلط في ذهنه، ويتوقع من زوجته أن تصبح مارلين مونرو أو إحدى آلهات الجمال البورجوازيات (ويحاول هو جاهدًا بالتالي أن يُصبح مارلون براندو)، مما يسبِّب الكثير من الإحباط وعدم الاطمئنان للزَّوجة. وتساهم الشركات المنتجة لأدوات التجميل في تصعيد توقُّعات الذُّكور من الإناث؛ لتضطر الإناث للاستهلاك. ومما يجدر ذكره أن استهلاك الأمريكان لمستحضرات التجميل يزيد على أربعة بلايين دولار[1]. ولعل هذا الجانب من الحضارة الأمريكيَّة هو الذي يفسِّر ثورة السيدات العارمة على أدوات التجميل والرموش الصناعية والمساحيق الكيماوية والعطور اللانهائية؛ فثمة إحساسٌ بالسخط على تلك الصناعات، التي تعمل جاهدةً على إقناع المرأة بالتحوُّل إلى شيءٍ جميل «يثير الرجل جنسيًّا». ولعل من أجمل قصائد السخط التي كُتِبت في هذا الموضوع؛ قصيدة «الفتاة السلعة»:

الفتاة الجميلة كالسلعة،
تُباع وتُشترى مع أسهم الشركات.
حينما ترتفع الأسعار في السوق؛
احسب أسهمك،
فيما ترتدي من ملابس،
لأن هذا هو مصدر الربح.
الفتاة الجميلة في هذا المجتمع،
يحكم عليها حسب المظهر فحسب.
إن ما ترى على وجهها،
يكون في الغالب بقايا؛
المواد الكيماوية التي يستخدمونها في الحروب.

(١) هذه الأرقام تُعبرِّ عن سبعينيات القرن العشرين! (الناشر)

يدل البيت الأخير على إحساس الشاعرة بأن ثمَّة تكامل في بِنية المجتمع الإمبريالي الأمريكي، المسئول عن إنتاج النابالم ومسحوقات التجميل. فالهدف من عملية الإنتاج في كلتا الحالتين هو الإنتاج ذاته؛ بحيث يدخل المجتمع دائرة الإنتاج الآخذة في الاتِّساع اللانهائي. ولضمان ذلك تدخل الرأسمالية حروبًا محدَّدةً مع الشعب الفيتنامي، تستهلك فيها آلاف الدبَّابات والطائرات والغازات السامة والأمريكان. وتدخل أيضًا حروبًا غير محدودةٍ مع الشعب الأمريكي والمرأة الأمريكيَّة بالذات. وتستهلك في هذه الأخيرة ملايين السيارات والمسحوقات والثلاجات والاستقرار والهدوء النفسيين. إن «الإمبريالية النفسية» يمكنها أن تحقِّق أرباحًا للرأسمال الأمريكي دون معارك حربيَّةٍ في الخارج، فيُمكن توسيع رقعة السوق الرأسمالي لا عن طريق الانتشار الأفقي في الخارج؛ بل عن طريق الانتشار الرأسي الداخلي وتصعيد السُّعار الاستهلاكي. لكن كما فشلت الإمبريالية العسكرية في فيتنام؛ لأن العسكريين الأمريكيين لم يدركوا مدى صلابة الشعب الفيتنامي وقدرته على الكفاح والنِّضال، فإن الإمبريالية النفسية هي الأخرى آخذةٌ في الفشل؛ لأن الإنسان الأمريكي والمرأة الأمريكيَّة في نهاية الأمر إنسانٌ مُكوَّنٌ من جسدٍ طبيعيٍّ ووعيٍ تاريخيٍّ، وليس شيئًا طبيعيًّا ذا بُعدٍ واحد. لذلك إذا عُومِل على أنه شيءٌ جميل «يُثير الشهوة الجنسيَّة»، فإنه يثور ويحتج ويلقي بالرموش الصناعية والنهود البلاستيك في وجه مُستَغلِّيه! وهذا الجانب من حركة تحرير المرأة جانبٌ إيجابيٌّ بلا شكَّ، ولا بُد أن نستفيد منه وندرسه ونحاول تطبيقه في مجتمعنا، فهذه الحركة تنبهنا إلى ضرورة إعادة تعريف دور المرأة ووظيفتها في المجتمع الصناعي (ونحن على عتبات المجتمع الصناعي الحديث، إن لم نكن قد وصلنا له بالفعل). إن دور المرأة كما نعرفه الآن ليس نتاج واقعنا، وإنما هو استمرارٌ لواقع قديم مُتَناهٍ في القِدَم؛ حين كانت القوَّة العضلية عنصرًا أساسيًّا في عملية الإنتاج. أما في المجتمع الصناعي، فالقوة العضليَّة ليست مطلوبةً على الإطلاق، وإنما اللازم توافره هي قدرات عقليَّة معينة يكتسبها الإنسان عن طريق التعلُّم، وهي القدرات والخبرات التي يمكن توافُرها للمرأة قدر توافرها للرجل. ولا بد أن يتيح المجتمع الإنساني الفرصة للمرأة الموهوبة لتخرُج

وتحقق كل إمكانياتها. كما لا بد من إعادة تقويم موقفنا من تصوُّرنا للعمل؛ فيجب على الرجل والدولة والمجتمع الاعتراف بأن العمل في المنزل عملٌ منتجٌ، إن لم تقم به الزَّوجة سيقوم به شخصٌ آخر في ساعات عمل محدَّدةٍ ونظير أجرٍ محدودٍ. وهذا لا يعني أن على الزَّوج أو الدولة أن يُقدِّرا للزوجة أجرًا نظير عملها في المنزل؛ لأن تحديد مثل ذلك الأجر صعبٌ وغير مُستَحبٍّ (كيف ستحدد فعلًا أجر زوجة المدير وزوجة العامل؟). وإنما يعني تغييرًا في موقفنا النفسي من المرأة ووظيفتها، وبالتالي لن يسخط الرجل حين يعود إلى منزله، باعتبار أنه كان «يعمل» بينما كانت زوجته «قابعة» في المنزل. وإنما سيخفض من صوته قليلًا، لأنه أثناء عمله كانت زوجته هي الأخرى تشقى وتكدُّ؛ تُرضع الأطفال وتغسل الصحون وتتسلق السلالم وتشتري الخضار وتطبخه وتحكي القصص للأطفال، وتُعطي من ذاتها وكيانها له ولأولادهما. ولعل إعادة تحرير تعريفنا للعمل قد يُهدِّئ توترات كثيرٍ من السيدات اللائي يجدن أنفسهن مُضطراتٍ للخروج من المنزل للعمل في وظيفةٍ تُكسبُهن احترام أزواجهن. برغم أن هذه الوظيفة قد لا تكون خلاقةً أو ممتعةً، مثل عمل المرأة في الأرشيف أو في مصنعٍ، أو أي عملٍ روتينيٍّ آخر لا يُعادل بأي حال عملها كأمٍّ وربة منزل وزوجةٍ. عمل تجد نفسها مُضطرَّةً إليه؛ لأن عملها في المنزل لا يُحسب كعمل.

وقد طالبت حركة تحرير المرأة الحكومة الأمريكيَّة باعتماد ميزانيةٍ كبيرةٍ لإنشاء دور حضانةٍ جيدةٍ للأمَّهات العاملات (ما رفضته الحكومة التي تُنفق البلايين في فيتنام وعلى إسرائيل؛ رفضته بحُجَّة الحفاظ على بناء الأسرة!)، كما طالبت الحركة أيضًا بإجازات حمل وولادة ورضاعة وتربية، لتتاح فرصة الإجازة الطويلة للأم الموظفة؛ حتى تُنهي واجباتها الإنسانية وتعود بعدها للوظيفة، طول الوقت أو بعضه إن شاءت. وألا تُعاني من التفرقة بينها وبين نظرائها وزملائها من الرجال؛ بسبب واجباتها الإنسانية. ولا تزال بعض هذه الاقتراحات شعارات ومطالب ثوريَّةٍ، وهي شعاراتٌ ومطالب من المفيد تنفيذها أو تعميمها في بلادنا حتى لا تتفاقم الأمور لدرجة الأزمة، وحتى نحافظ على كيان الأسرة المصرية دون قمع إنسانيَّة المرأة/

الزوجة/الأم. ولعل برنامج جماعة «ناو Now» (الآن؛ اختصار المنظمة القومية للنساء، بالإنكليزية «ناشونال أورجانيزيشن فور ويمن»)؛ مَثَلٌ طيِّبٌ على المطالب النسائية المحددة، التي يمكن إخضاعها للنقاش والتقويم والأخذ والرد، والتنفيذ. إذ تطالب الجماعة بالتالي:

١- تعديل الدستور لينصَّ على المساواة في الحقوق.

٢- تنفيذ القوانين الخاصَّة بعدم التفرقة بين الجنسين في العمل.

٣- إجازات للولادة.

٤- استقطاعات من الضرائب نظير تكاليف العناية بالمنزل والأطفال.

٥- إنشاء حضانات للأطفال.

٦- نظام تعليمي يتَّسِم بالمساواة وعدم التفرقة.

٧- إتاحة الفرصة للسيدات الفقيرات للتدريب المهني، ومنحهن إعاناتٍ.

٨- حق المرأة في التَّحكُّم في الإنجاب.

ولكن حتى لو نُفِّذت هذه الاقتراحات في الولايات المتحدة، فلن تُحل المشكلة؛ إذ إن الخلل في المجتمع الأمريكي خلل جوهريٌّ؛ خلل في إيقاع المجتمع ذاته، وفي نمطه الإنتاجي، وفي طريقة استغلاله للمصادر، وطريقة توزيعه للثروة. ولن يحل هذا الخلل إلا نمطٌ جديدٌ من العلاقات الإنتاجية الإنسانية، التي تُرشِّد الإنتاج وتوجهه بما يتناسب مع الحاجات الإنسانيَّة الفعلية للشعب الأمريكي.

ثانيًا؛ تحرير المرأة الأمريكيَّة والفردوس

رغم أن الناس سواسيةٌ كأسنان المشط، ورغم أنه لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ أمام الله إلا بالتقوى؛ إلا أنه يُوجَد العربي والأعجمي، والأبيض والأسود، والطويل والقصير، والصبور والطموح، ومَن يحبُّ دراسة العلم ومَن يُفضِّل التأمُّل النفسي، ومَن يعشق البحر ومن لا يُطيق رؤيته، ومَن يُحبُّ السكنى في دمنهور ومَن لا يرضى بمصر الجديدة بديلًا.

لقد خلقنا الله جميعًا كما خلق الذُّكور والإناث، وهي ليست تفرقةً ذات مضمونٍ اجتماعيٍّ أو اقتصاديٍّ، وإنما مُجرد تمييزٍ بين سمات الواقع المختلفة المتساوية، واعتراف بأنَّ مكونات الواقع ليست متشابهةً وإنما متعدِّدةً ومتنوعةً. والحمد لله أننا جميعًا لا نعشق البحر، وأن بعضنا يرضى بديلًا عن مصر الجديدة، وإلا لاكتظ البحر وأضحى مثل الأرض، ولازدحمت مصر الجديدة بسكَّانها وأصبحت مثل وسط البلد، والعياذ بالله. إن التنوُّع هو سمة الوجود الإنساني التاريخي، وأيُّ محاولةٍ لإلغاء التنوُّع أو تجاهُله؛ هي محاولةٌ فردوسيةٌ تدور في إطار الأساطير أو البدائل المستحيلة! ومما لا شك فيه أن بعض المجتمعات تُحاول إضفاء مضمونٍ طبقيٍّ واقتصاديٍّ على هذه الاختلافات؛ فيُصبح البياض علامة انتماءٍ لطبقةٍ ما، والسَّواد علامةً على الانتماء لطبقةٍ أخرى (كما هو الحال في روديسيا وجنوب أفريقيا وإسرائيل والولايات المتحدة). إلا أننا جميعًا نرفض هذه التفرقة، وإن كنا لا نُنكر وجود الاختلافات بين الجنسين. وحركة تحرير الزنوج في الولايات المتحدة تطالب بالمساواة الاقتصادية والسياسية والدينية، ولكنها تُناضل في الوقت ذاته من أجل استقلال الزنوج الحضاري والنفسي عن الولايات المتحدة. وهذا علامة نضوج؛ لأن الإلغاء الكامل لكل الفروق بين البشر أمرٌ لن يتحقق إلا خارج التاريخ في الفردوس بإذن الله، وعلى مَن ينشد الخلاص داخل التَّاريخ أن يتقبَّل جدليَّة الواقع الإنساني كحقيقةٍ قائمةٍ وكإمكانيَّةٍ كامنةٍ، وأن يتخلى عن أحلامه الرومانتيكية بالفردوس الأرضي الذي لا تحدُّه حدودٌ ولا سدودٌ. ومع الأسف، فالتَّفكير الفردوسي يُسيطِر سيطرةً كاملةً على بعض القطاعات في حركة تحرير المرأة في الولايات المتحدة، ورغم وضوح جذور المشكلة وإمكان الوصول لبعض الحلول، إلا أن التيَّار الفردوسي يتخطَّى كل حدود التَّاريخ وإمكانياته الحقيقية، وينحدر بحركة تحرير المرأة إلى المهاترات والشذوذ والتجريب اللاعقلاني.

وكما بيَّنت من قبل؛ فعدم وجود وعي بالتَّاريخ في الولايات المتَّحدة هو الذي يؤدي بكل حركات السخط إلى ذلك الاتجاه الفردوسي[1]؛ فهم حينما يتصوَّرون الخير يتصوَّرونه خالصًا ويحلمون بالفردوس الأرضي، وحينما يتصورون الشرَّ فهم يتصوَّرونه هو الآخر خالصًا.

هذه البراءة هي التي تؤدي بالأمريكيين إلى التطرُّف، وهي براءةٌ يُشجِّعها النظام الاقتصادي؛ لأنها تُبقي الإنسان بمعزلٍ عن التفكير الجماعي السياسي الأيديولوجي، وتُفتِّت الواقع السياسي إلى قضايا معزولةٍ بعضها عن بعضٍ. فهذه قضيَّة جماعات المقامرة في بلدة كذا، وتلك قضية ووترغيت. وهذه قضية رشوة البوليس في نيويورك، وتلك مشكلة عصابات المافيا، أو مشكلة الزنوج، وهكذا؛ بدلًا من رؤية كل الإشكاليات باعتباره تعبيرًا متنوعًا عن ظاهرةٍ واحدةٍ[2]، وهي الرأسمالية الإمبريالية الاستهلاكية.

هذه البراءة وعدم التحدُّد التاريخي، هي التي تخلق مشكلة هوية لكل الأمريكيين؛ فالأمريكي يقضي حياته يسأل نفسه: مَن أنا؟ لأن المجتمع لم يضع له تعريفًا، ولم يُلصق به بطاقةً تخبره باسمه وهويته وانتمائه الطبقي وجذوره التاريخية وتوقعات الناس منه. بل تركه حُرًّا غير مُنتمٍ في مجتمعٍ مفتوحٍ يتحرَّك بسرعةٍ خُرافيَّةٍ (عكس المصري الذي يقضي حياته محاولًا أن يُثبت للجميع هويته الفرديَّةَ المُستقلةَ، وأن البطاقة التي ألصقها عليه المجتمع ليست مطابقةً تمامًا لواقعه النفسي الفردي ولطموحه وآماله). وتعاني المرأة الأمريكيَّة أزمة هوية لنفس السبب، فهي الأخرى تسأل نفسها ذات السؤال الميتافيزيقي: مَن أنا؟ وهو ميتافيزيقي لأنه سؤال مجرَّدٌ لا

---

(١) يتَّسِم الأمريكيون بالفعل بقدرٍ غير إنسانيٍّ من البراءة، كأنهم لم يسقطوا من الفردوس ولم يذوقوا من شجرة المعرفة بالخير والشر.

(٢) هذا هو جوهر الفارق بين نقد المسيري للحداثة الغربية، ونقد فلاسفة الغرب، وعلى رأسهم مدرسة فرانكفورت؛ ففي حين سَلَكَ رحمه الله إشكالات الحداثة باعتبارها تجليات وتعبيرات متنوعة عن ظاهرة واحدة، تعاملت مدرسة فرانكفورت -مثلًا- مع كل تعبير باعتباره ظاهرة مستقلة بذاتها. لذا، عبّر مشروع المسيري عن رؤية واضحة للإنسان ونسق أخلاقي مطرد منسجم، بعكس اضطراب أصحاب الإضافات المتشظية التي تدور في دائرة عبثية لا مخرج منها! (الناشر)

إجابة له. لأن الإنسان، أي إنسانٍ؛ ليس شخصًا واحدًا، وإنما هو عدة أشخاصٍ؛ مواطنٌ وفردٌ وزوجٌ وأبٌ ومدرِّسٌ. ودَوره كمواطنٍ قد يتناقض مع احتياجاته كفردٍ، وسعادته كزوج قد تتناقض مع وظيفته كمدرِّسٍ ... وهكذا. إن طريقة طرح السؤال تضع المرأة الأمريكيَّة في طريقٍ مسدودٍ، لأنها تُجرِّدها من أيِّ سياقٍ تاريخيٍّ. ولذلك ينزلق الكثير من مُفكِّري تحرير المرأة إلى تعميماتٍ مُضحكةٍ في تجريدها.

ويُلاحظ تكرار موضوع الطَّلاق في كتابات مُفكري حركة تحرير المرأة؛ فجلوريا ستانيم ترفض الزواج، وتُشير إلى أن أبويها اليهوديين قد طُلقا وهي بعدُ في سنِّ العاشرة. أما آن فريدمان، التي نشأت في عائلةٍ يهوديَّةٍ؛ وشبَّهت كتاباتها بكتابات أنبياء العهد القديم، فهي الأخرى قد طُلِّقت من زوجها. وروبي مورجان تُقرِّر أن تصبح إنسانًا كاملًا فتُطلق زوجها، وهكذا وهكذا. إن هذه ليست مجرَّد إشاراتٍ لأحداثٍ خاصَّةٍ لا يصحُّ الخوض فيها، وإنما هي إشاراتٌ أيديولوجية تُشير إلى رفضٍ جذريٍّ لفكرة الزَّواج، لأن هذه المؤسسة، حسب تصوُّرهن؛ خُلقت لنصف إنسانٍ فحسب. وحينما يتحوَّل الإنسان النصف إلى الإنسان الكامل؛ تبدأ المؤسسة في التحلُّل. بل إن جلوريا ستانيم ترفض إنجاب الأطفال، لنُفاجَأ بمقالاتٍ عديدةٍ عن الإجهاض وكأنه أمر طبيعيٌّ والولادة هي الشذوذ. وإلا بماذا تُفسِّر المقالة التي تذكر أن الإجهاض الشرعي في المجر لا يُسبِّب إلا نسبةً ضئيلةً من الوفيَّات (واحد في الألف)، ثم تُقارن تلك النسبة بنسبة الوفيَّات النَّاجمة عن الولادة في الولايات المتحدة؟ ثم تُضيف المقالة إحصائيةً مُفادها أن الولادة في أحسن الظُّروف تزيد خطورتها أربع مرَّات عن عمليَّة إجهاضٍ تتمُّ بشكل علميٍّ! في ذلك المستنقع الإنساني نجد مقالًا واحدًا، في مجلة «مِز»[1]؛ عن ضرورة إطعام الرَّضيع بالثدي. والمدهش في الموضوع أن كاتبة المقال تُدافع عن الإرضاع الطبيعي لا لأنه تحقيقٌ لإنسانيَّة المرأة كأمٍّ، وإنما لأنه يمنحها لذَّةً عابرةً! إنها تعود مرَّةً أخرى لمبدأ اللذة النَّفعيِّ. إن رفض الزَّواج هو في نهاية الأمر رفضٌ لإنجاب الأطفال، ورفضٌ

---

(١) هي كلمةٌ محايدةٌ حلت محل كلمتي «مس» و«مسز»، ولا تدل عما إذا كانت الأنثى متزوجةً أم لا؛ مساواة بالرجال.

للدُّخول في أيِّ علاقةٍ إنسانيَّةٍ ذات عُمقٍ، والاكتفاء باللحظات العاطفيَّة العابرة، أو كما سمَّته إحدى الزعيمات: *«غراميات أو زيجات قصيرة»*. وفي ذلك فشلٌ في إدراك طبيعة الزَّواج؛ هذه التجربة المستمرَّة ذات العمق المعيَّن. وربما كان ذلك ما عنته جلوريا ستانيم حين صرَّحت بأنها لا تؤمن بالحبِّ، فنحن لا نؤمن بالحبِّ إلا إذا آمنا بالإنسان، وبإمكانية الثِّقة في الآخرين والاحتماء بهم والاعتماد عليهم. أما إذا كنا بورجوازيين، أفرادًا مُستغلين منفصلين؛ فنحن نعيش في حالة قلقٍ من الأغيار، نفترسهم أو يفترسوننا؛ وإذا ما دخلنا علاقة حُبٍّ، فستكون علاقة افتراسٍ ونَهَمٍ أيضًا؛ علاقة تمنحنا أكبر قدرٍ ممكنٍ من اللذَّة دون أيِّ ألمٍ.

ولعل هذا البحث عن اللذَّة الجنسيَّة الفردوسيَّة الخالصة[1]، هو الذي يُفسرٍّ انتشار الشذوذ الجنسي في المجتمعات الرأسماليَّة الغربية، فهي ظاهرةٌ لا يمكن تفسيرها إلا على أساسٍ أيديولوجي. فكل مجتمعٍ له شواذُّه، لكن الشُّذوذ في المجتمعات الغربيَّة قد زاد إلى درجةٍ أنه صار يُشكِّل ظاهرةً (يُوجَد في الولايات المتحدة الآن ما يزيد عن أربعة ملايين من الشواذِّ، بل يُوجَد لهم بعض الكنائس التي يُديرها وعَّاظ شاذُّون جنسيًّا مثل كنيسة لوس أنجلوس. وقد أنشئ مؤخَّرًا مَعبدٌ يهوديٌّ للشواذ[2]!).

إن الشذوذ هو النَّتيجة المنطقيَّة والتَّرجمة الأمينة الوحيدة لمبدأ اللذَّة النفعي، فالإنسان الشاذُّ يمكنه أن يُنشئ علاقةً مع شخصٍ آخر من جنسه؛ فيتغلب على اغترابه بشكل مُؤقَّتٍ ثم يعود مرَّةً أخرى لحياته الاستهلاكية البسيطة. وهو يتغلب على اغترابه دون أن يدخل في علاقاتٍ ذات آثارٍ اجتماعيَّةٍ نتيجة للدُّخول في علاقةٍ حقيقيَّةٍ مع الآخرين ومع الواقع، فالعلاقة مع شخصٍ من نفس الجنس هي أقل العلاقات الإنسانيَّة جدليَّةً. وحينما كنت في نيويورك؛ لاحظت أن الشَّواذَّ من النِّساء أصبح لهنَّ وجودٌ ملحوظٌ، وهذا تطوُّرٌ جديدٌ، لأنه قبل ذلك كان الشواذُّ من الرجال وحدهم هم

---

(١) هي فردوسيَّةٌ لأنها لا تبحث عن الاستمرار، وترفض الارتباط الدَّائم، كما تُحاول تحاشي أي نتائج اجتماعيَّةٍ مثل الزَّواج أو الأطفال.

(٢) لاحظ أن البيانات الإحصائية ترجع لعقد السبعينيات. (الناشر)

المصرَّح لهم بالظهور. وسبب هذا «التطور» أو «التقدُّم» يعود بلا شك لحركة تحرير المرأة، التي ينادي بعض زعمائها بأن المرأة الشاذَّة جنسيًّا هي المرأة التي استغنت كليَّةً عن الرِّجال؛ لذا فهي أكثر النِّساء تحرُّرًا، وهي المرأة التي حقَّقت المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال، وحقَّقت بذلك الاكتفاء الذاتي داخل التَّاريخ. حتى لقد قالت إحدى مُفكرات الحركة: حركة تحرير المرأة هي النظرية، والمساحَقة هي التَّطبيق.

وما تفتقده كل تلك المناقشات هو مفهومٌ للطَّبيعة البشريَّة كما ظهرت بشكل معيَّنٍ عبر التاريخ، وكما أوجدتها الممارسة الإنسانية. فالمرأة المساحِقة، من وجهة النَّظر المنطقية المجردة؛ هي بالفعل امرأةٌ مستقلةٌ استغنت عن الرِّجال، لكن هل هذا هو نموذج المرأة الذي توصَّلنا إليه من خلال ممارستنا التاريخية؟ أم أن هذا نموذجٌ ميكانيكيٌّ مصنوعٌ ومُلفَّقٌ منطقيًّا (نموذج بلاستيك)، تَمَّ تجريده والوصول إليه من خلال واقع رأسمالي مُتعفِّنٍ؛ يرى الإنسان شيئًا وحيدًا غير قادرٍ على الحب أو على التسامي؟ إن المرأة كما نعرفها تتزوَّج من رجل، والرجل كما نعرفه هو الإنسان الذي يتزوَّج من امرأةٍ ويُنجبا أطفالًا. فلنقرأ كل الأساطير وكل الكتب المقدَّسة، ولننظر إلى كل عادات وممارسات مجتمعات العالم؛ نجد مِصداقًا لرؤيتنا البسيطة. لكن مفكري حركة تحرير المرأة، شأنهم شأن المهيمنين على النظام الرأسمالي؛ يبتعدون عن أي مفهومٍ للطبيعة البشرية التاريخية، حتى يمكنهم فرض أي تلفيقات فلسفيَّة منطقيَّة، ومن ثَم القضاء على أي إمكانيةٍ للتسامي.

تتجلى هذه التلفيقية المعادية للتَّاريخ في استخدام حركة تحرير المرأة للحقائق العلمية، فكثيرٌ من مفكري الحركة يرفضون عبارة فرويد: «إن صفاتنا التشريحية هي قدرنا». وهم محقُّون في ذلك؛ فهذه بلا شكٍّ مقولةٌ غيبيَّةٌ تجعل الإنسان حبيس جسده، وتقضي بالتالي على إمكانيَّات الجدل. إذ إنها تنفي تقاليد البيئة والتاريخ والإرادة الإنسانية، وتجعل الإنسان عُنصرًا واحدًا هو جسده الطبيعي. إن عبارة فرويد فيها ضربٌ من الغيبية والحتمية العلمية، التي تنبع غيبيتها من تجاهُلها لمكونات الواقع الإنساني التي لا يمكن للعلم حصرها والتَّعامل معها بشكلٍ مُتكامل.

لكننا مع ذلك نُفاجأ بأن أدبيات ثورة تحرير المرأة مليئة بـ«الحقائق العلميَّة» والإحصائيات (مثل الإحصائيات عن الإجهاض) التي يستخلصون منها نتائج تتجاهل الواقع الإنساني التاريخي، وهو من أهم العوامل، وذلك كما كان مفكرو البنتاجون يفعلون وهم يلقون بقنابلهم فوق فيتنام، متناسين العنصر الإنساني التاريخي الذي يزيد صلابة الفيتكونج كما تزداد ضحاياهم. وأكبر دليل على ذلك التفكير العلمي المعادي للتاريخ هو المحاولات اليائسة التي يبذلها بعض مفكري الحركة، للتدليل على المساواة البيولوجية بين الرجل والمرأة (لاحظ أن البحث ليس عن المساواة الاجتماعية والاقتصادية أو حتى النفسيَّة، وإنما المساواة البيولوجية؛ أي إننا تخطينا كل حدود التاريخ تمامًا). وقد قرأت مقالًا «علميًّا» كتبته عالمةٌ اكتشفت أن للرجال «عادةً شهريَّةً» تمامًا مثل النِّساء؛ فقد أثبتت مع آخرين أن نسبة الهرمونات تزيد في بول الرِّجال كل شهرٍ، كما لاحظت أن الزِّيادة يُصاحبها تقلُّباتٌ في المزاج. ثم تضيف الكاتبة إن هناك تقلباتٍ يوميَّةً عند الرِّجال (هل هي العادة اليومية؟). وتدليلًا على صِدق مقولتها تشير إلى تقبُّل إحدى شركات السكك الحديدية في اليابان لهذه «الحقيقة العلمية»، لذا كان جدول العمل يُوضَع حسب تقلبات المزاج؛ مما نتج عنه تقليل الحوادث والحمد لله. وقد تكون حكاية الهرمونات صحيحةً، وقد يكون مزاجنا معشر الرِّجال ينقلب يوميًّا فعلًا، لكن إذا كانت «العادة» تتكرَّر يوميًّا، فهذا يعني أنها صارت جزءًا من إيقاع حياتنا اليومي. ويبدو أننا بنينا حضارتنا الإنسانية على هذا الأساس، وعلى العلماء أن يكتشفوا علاقة إيقاع الحضارة الإنسانية بهذا الإيقاع البيولوجي. أما بخصوص «العادة الشهرية»، فمما له دلالته أن كاتبة المقال كان عليها أن تُشير إلى شركة في اليابان، وأن تقاس نسبة الهرمونات عن طريق جداول خاصة، وأن تكتب المقال، وأن تقصَّه وترسله لي صديقةٌ في أمريكا؛ حتى أتَّعظ وأسكت. والسؤال الذي يجب أن نسأله دائمًا هو طبيعة ومدى علاقة «الحقيقة العلمية» المجرَّدة بسلوكنا اليومي كبشرٍ، نشقى ونسعد؛ فإن لم يكن ثم علاقةٌ؛ فإن تلك الحقيقة تموت من وجهة النظر الإنسانية اليومية، وتصبح مسألةً يهتم بها المختصون وحدهم. فمثلًا إذا اكتشف عالمٌ ما أن طول أمعاء الإنسان تزيد عن

خمسة سنتيمترات أو خمسة أمتار أو حتى خمسة كيلومترات، كما هو معروفٌ؛ فهذا لن يزيد من سعادتي ولا من شقائي، بل ستظل هذه الحقيقة شيئًا طريفًا، خاليًا من أي مضمونٍ إنسانيٍّ؛ تقرأ عنه في «صدِّق أو لا تُصدِّق». تمامًا كأن تعرف أن القُنفذ لا يُعاشِر زوجته القنفذة إلا ساعة الغروب (حقيقةٌ علميَّةٌ طريفةٌ ألفتُها لتوِّي من أجل المناقشة، ولا أعرف إن كانت صادقةً أم لا، كما لا يهمني أن أعرف؛ لأن حياة القنفذ الجنسيَّة هي شيءٌ يهتم به هو وحده وبعض علماء الحيوان المختصون في حياته الجنسية).

ولكن إذا اكتشف أحد العلماء دواءً مُعيَّنًا، بِناءً على هذه الحقيقة المصمتة أو ترجمها إلى حقائق تمس حياتي اليومية؛ حينها تُصبح هذه الحقائق «المصمتة» حقائق إنسانيَّةً ذات بُعدٍ اجتماعيٍّ. إن اكتشاف زيادة الهرمونات في بول الرجل مسألةٌ ذات أهميَّةٍ حيويَّةٍ للعلماء وحدهم؛ لأنها لا تؤثر في سلوكنا اليومي، وحتى إذا أثَّرت فهي لا تشبه، من قريبٍ أو بعيدٍ؛ التحوُّلات البيولوجية التي تطرأ على الإناث. فالعادة الشهريَّة عندهن ينجُم عنها تغيرٌ في الإيقاع اليومي وفي المزاج. إن اليمين حتميٌّ في رؤيته حينما يقرِّر أن صفات الإنسان التشريحية، وبالذَّات صِفاتُ المرأة؛ هي قدره. وحركة تحرير المرأة باعتمادها غير التاريخي على الحقائق العلمية المجرَّدة؛ تقع في نفس الحتميَّة العلميَّة (هي حتميَّةٌ يقع فيها كثيرٌ من اليساريين الطفوليين، الذين ينظرون للإنسان على أنه ظاهرةٌ علميَّةٌ، كما لو كان الإنسان جزءًا من الطبيعة فحسب، وليس له وجودٌ تاريخيٌّ مستقل عنها. وهم في تصوُّرهم الساذج هذا يشاركون الفكر الفاشي في أهم مقولاته دون أن يدروا).

إن جُلّ ما تفعله أولئك السيدات الثوريات هو توزيع الحتمية التشريحية على الناس، ذكورًا كانوا أم إناثًا. إن صفاتنا التشريحية هي مجرد إمكانية بيولوجية محايدة تشكِّل الأساس المادي للحياة بكل تنوُّعاتها. لكن حياتنا ليست مَشروطة بهذا الأساس، فهذه الصفات الفسيولوجية يمكن تطويعها وتوجيهها للخير أو الشرِّ؛ فقوتنا الجسدية يمكن أن تصبح أداةً للخير أو أداة للشرِّ، وصفات المرأة التشريحية

قد تصلُح مُبررًا لاستغلالها (كما يحدث الآن) ولكنها تصلح أساسًا لتقسيمٍ عادل وعقلانيٍّ للعمل، يأخذ في الاعتبار إمكانيات الرجل والمرأة الحقيقية. فالمرأة وحدها قادرةٌ على الحمل، وهي وحدها قادرةٌ على الولادة، وهي وحدها قادرةٌ على إرضاع الطفل؛ وهذه وظائف بيولوجية لا يمكن نقلها للرَّجل، وليس المطلوب نقلها، إلا إذا تطوَّر العلم بشكل مجنونٍ وقرَّر التَّلاعُب بكل شيءٍ، بما في ذلك وظائفنا البيولوجية (وهي قمَّة الفردوسية وذروة انعتاق الإنسان من كل حدودٍ أخلاقيَّةٍ أو تاريخيةٍ أو إنسانيةٍ). ولكن ما قد يبدو مجرد احتمال مجنونٍ، أصبح برنامجًا سياسيًّا. ولننظر على سبيل المثال لا الحصر لمنشورٍ «سكَم SCUM». اختصار لعبارة إنجليزية ترجمتها الحرفية هي: «**جماعة التخلص من الرجال Society for Cutting Up Men**». يبدأ المنشور بتأكيد أن *الحياة في ذلك المجتمع صارت شيئًا* «*يبعث على الملل الشديد؛ لذلك فعلى السيدات المسئولات، الباحثات عن المتعة؛ أن يقلبنَ نظام الحُكم ويلغين النظام النقدي، ويدخلن نظام الصِّناعة الآلية، ويقضين على جنس الذكور*»!

ثم يستطرد المنشور العتيد: «*لقد صار بإمكان السيدات الإنجاب دون أي مساعدةٍ من الذكور* (ودون مساعدةٍ من الإناث أيضًا) *وأن يقتصرن على إنجاب الإناث فقط. وينبغي البدءُ في ذلك على الفور*». ويذكر المنشور حقيقةً بيولوجيَّةً هامَّةً؛ أن جِينة الذَّكر ليست سوى جينة أنثى غير كاملةٍ، فجينة الذكر تحتوي على مجموعةٍ غير كاملةٍ من الكروموسومات. بعبارة أخرى؛ فالذَّكر ليس سوى أنثى غير كاملةٍ، إنه شيءٌ مُجهَض يسير على قدمين، شيءٌ أُجهِض وهو لا يزال في حالة الجينية (وهي مرحلةٌ سابقةٌ للمرحلة الجنينية). ولأنه أنثى غير كاملةٍ، يقضي الذكر حياته سعيًا لاستكمال مجموعته غير الكاملةِ من الكروموسومات، وهو يفعل ذلك بالبحث عن الأنثى ومصادقتها والعيش معها والامتزاج بها، والادِّعاء بأن كل الصِفات الأنثوية هي صفاته: القوة العاطفيَّة، والاستقلال، والقوَّة، والدَّينامية، والقُدرة على اتِّخاذ القرارات، وبرود الأعصاب، والموضوعية، وتأكيد الذَّات، والشجاعة، والتكامل، والحيوية، والجدة، وعُمق الشخصية ... إلخ. كما

أنه يُسقِط كل سمات الذُّكورة على المرأة: الغرور، والسطحية، والتفاهة، والضعف ... إلخ.

الصراع إذن، حسبما جاء في المنشور؛ ليس بين الإناث والذكور، ولكن بين «السكَم» (الزبالة)؛ الإناث المسيطرات، الآمنات، الواثقات بالنفس، الخبيثات، العنيفات، الأنانيات، المستقلات، المتكبِّرات، الباحثات عن المتعة، المغرورات؛ اللائي يعتقدن أن عندهن المقدرة على حكم العالم، واللائي انطلقن إلى حدود ذلك المجتمع، وعندهن استعداد التمادي إلى أبعد ما يمكن أن يقدم لهن. إنه صراعٌ بين «السكم»، وبين الإناث اللطيفات، السلبيات، المستقلات، المتحضِّرات، المؤدَّبات، صاحبات الكرامة، الخاضعات، والخائفات اللائي لا يثقن ألبتة في أنفسهن؛ بنات آبائهن اللائي لا يمكنهن مواجهة المجهول، واللائي يردن الاستمرار في الترنُّح في الحضيض؛ لأنه على الأقل مألوفٌ لديهن، واللائي يُرِدن المكوث مع القرود، ولا يشعُرن بالاطمئنان إلا وبابا الكبير يقف إلى جوارهن، أو باعتمادِهن على رجلٍ كبيرٍ قويٍّ يشدُّ من أزرهن.

ثم يستطرد البيان في الحديث عن الاستيلاء على الحكم بالامتناع عن العمل، وبعد ذلك يتخلَّص الإناث من النظام النقدي ويقتلن الذُّكور، ثم يصلن على الفور إلى المدينة الفاضلة. وقد يبقى حينها بعض الرجال، لكن هؤلاء أمرهم سهلٌ يسيرٌ، إذ إنهم *«سيقضون بقَّية أيامهم في رُعبٍ يتعاطون المخدرات، أو يُراقبون في سلبيَّةٍ وسكينةٍ الأنثى الجديدة المسيطرة. وحيث إن الإناث رحيماتٌ، فسيزوِّدون الرِّجال بأجهزةٍ إلكترونيةٍ، يستخدمها الذكور إذا وقع أحدهم صريع هوى إحدى الإناث؛ فيمكنه مراقبة حركاتها وسكناتها بطريقةٍ تُشبع غرائزه، ودون أن تشعر هي بذلك»!*

إن رؤية سيدات «سكم» المهووسات للمدينة الفاضلة لا تستند إلى أي تصوُّرٍ للطبيعة الإنسانية، سواء من وجهة النظر الطبيعية أم التاريخية. فنحن إذا سألنا هؤلاء السيدات لمَ يُفضِّلن الإناث على الرِّجال، لن يجدن أي مقياسٍ سوى مسألة «المزاج» أو النَّشوة أو البحث عن المتعة أو أي تصوُّرٍ فردوسيٍّ آخر. لقد انقسمت

الطَّبيعة الإنسانية، من النَّاحية البيولوجية؛ إلى سالبٍ ومُوجَبٍ، ذكرٍ وأنثى أو أنثى وذكرٍ[1]. وقد جعلت الطبيعة من الجِماع بين الذَّكر والأنثى طريقتها التي تتوسَّل بها إلى التكاثر. أما من الناحية التَّاريخية، فالرَّجل كائنٌ موجودٌ، وأيُّ محاولةٍ لإلغائه تتناقض مع الطَّبيعة البشريَّة كما ظهرت عبر التَّاريخ؛ فالرِّجال لعبوا دورًا أساسيًّا في تشكيل تاريخ الإنسان، ولا وجود لهذا التَّاريخ، كما نعرفه؛ دونهم. وأعتقد أن التَّكاثر عن طريق الجنس أمرٌ طبيعيٌّ وممتعٌ أكثر من التَّكاثر عن طريق أنابيب الاختبار المعقَّمة! وأنا الآن لا أعرف أجادٌّ أنا أم أمزح؛ في محاولتي للعثور على مبرِّرٍ للإبقاء على الرِّجال أمثالي. لكنني انزلقت إلى ذلك لشعوري أن هذا الاتجاه الفردوسي، رغم عبثيَّته وعدميَّته؛ حقيقيٌّ ومُستشرٍ في الولايات المتحدة والمجتمعات الصناعية المتقدِّمة، ولا يعلم أحدٌ إلا الله إلى ماذا سيؤدي.

وحتى لا يُقال إن منشور «سكم» كتبته سيدةٌ واحدةٌ، وإنه لا يعبِّر عن اتجاهٍ حقيقيٍّ، وإنه مجرد عبثٍ ومزاحٍ؛ فقد قرَّرت أن أقدِّم للقارئ مُقتطفاتٍ من منشور «سيدات نيويورك الرَّاديكاليات»، وهي جماعةٌ جادَّةٌ تعمل جاهدةً لتحرير المرأة. ولقد لخَّصت الجماعة مبادئها في هذه الكلمات: *«نحن ندعم المرأة في كل شيءٍ. ولا نسأل عما إذا كان شيءٌ ما إصلاحيًّا أم راديكاليًّا أم ثوريًّا، وإنما نسأل عمَّا إذا كان هذا الشيء في مصلحة المرأة أم لا. إننا ضدَّ كل الأيديولوجيَّات السابقة، والآداب والفلسفة نتاج حضارة الذُّكور ... إلخ إلخ»*. قد عُدنا مرَّةً أخرى لنفس التصوُّرات الفردوسية، التي ليس لها سندٌ طبيعيٌّ أو تاريخيٌّ؛ فهي بلاستيك في بلاستيك.

هذا التجريد يعود بلا شكَّ للتصوُّر البورجوازي للإنسان، باعتباره شيئًا مُستقلًا ومنفصلًا عن الآخرين؛ لذلك نجد التَّعريفات البورجوازية للحرِّية لا مضمون اجتماعي أو تاريخي لها، فأنت حرٌّ في فعل أي شيءٍ بشرط ألا تضرَّ أحدًا، كما لو كان

(١) سواءٌ كانت الأنثى أفضل أم الذكر، فسؤال لا يمكن للعلم أن يحسمه، والسؤال لغوٌ لا طائل من ورائه؛ لأنه لا تفضيل من وجهة نظرٍ بيولوجية؛ لأن التَّفضيل يعني الاستناد إلى قيمةٍ، وفكرة القيمة لا تُوجَد في الطَّبيعة؛ لأنها فكرةٌ إنسانيَّةٌ محضةٌ.

في مقدورك فعل أي شيءٍ دون الدخول في علاقةٍ مع الأغيار! على عكس ذلك؛ عرَّف ماركس الحرِّية بأنها معرفة قانون الضرورة، أي إن الحرِّية هي معرفة الحدود إذ لا حرية إنسانية متعيِّنة دون حدودٍ؛ فالإنسان يكتسب هويته الإنسانية من خلال الآخرين. وإذا حاولت تعريف نفسك، فستجد أن التعريف عبارةٌ عن سلسلةٍ من الحدود. فأنا رجل (ولست امرأة) عربيٌّ (ولست أعجميٌّ)، مصريٌّ (ولست مراكشي)، من دمنهور (ولستُ من القاهرة)، من عائلة المسيري (ولست من عائلة حلبي)، متزوجٌ وأبٌ، وأعمل في مركز الدِّراسات السياسية والاستراتيجية؛ إن هويتي تتبلور بازدياد حدودي. فـ«الرجل» شيءٌ مجرَّدٌ، بينما الرجل المتزوِّج من دمنهور شيءٌ محدَّدٌ مُتعيِّنٌ. والأسرة بلا شكٍّ هي أحد الحدود، وهي حدٌّ لأنها تحدُّ من حرِّيتنا، لكنها هي أيضًا الطريقة الإنسانية الوحيدة التي نكتسب بها هويتنا، فنحن لا نكتسب هويتنا في الفردوس اللامحدود؛ وإنما نكتسبها خلال ممارستنا اليومية الاجتماعية التاريخية. وحتى الآن لم نكتشف بديلًا حقيقيًّا للزواج والأسرة رغم قصورهما كمؤسساتٍ اجتماعيَّةٍ، وأعتقد أن الشعور «بقصور» الزَّواج، واعتباره قيدًا؛ ناجمٌ عن انتشار الحساسية الفردية التي تزيد من حساسية الإنسان بنفسه بشكل مرضيٍّ، وتجعله يبحث عن المتعة في كل شيءٍ، وتزيد من توقُّعاته بشكل فجٍّ يُسبِّب له الإحباط الدَّائم. إن شعورنا بقصور الزَّواج والأسرة ناجمٌ عن وجودنا في فترةٍ تاريخيةٍ معينةٍ، تُسيطر عليها فلسفةٌ لا تؤمن بالإنسان ولا بالجماعة. وأنا شخصيًّا أعيش حياتي مُفترضًا أن الحضارة البورجوازية محض انحراف عن تاريخ البشرية.

وقد صدر فلاديمير إليتش لينين عن مفهومٍ جماعيٍّ تاريخيٍّ للإنسان حينما كتب خطابيه الشهيرين إلى إنسّا أرمان[1]، التي كانت بسبيلها لكتابة دراسة ثورية عن الحبِّ والجنس، وأرادت أن تسترشد برأي لينين في ذلك المضمار. وعلى عكس الشائع عن البلاشفة؛ وقف لينين موقفًا يمكن تسميته «محافظًا»، من وجهة نظرٍ

(١) إنسا أرمان Inessa Armand (١٨٧٤م - ١٩٢٠م)؛ سياسية شيوعية فرنسية، وأحد البلاشفة. قضت أكثر حياتها في روسيا وكانت من أقرب المقربين للينين، بل كانت عشيقته في أرجح الأقوال. وقصتها تنويع على رائعة تولستوي الخالدة: آنا كارنينا. (الناشر)

رأسمالية. فقد أكد لينين في خِطابيه *أن الحرِّية في الحبِّ لا تعني انتهاء المشاكل، ولا تعني تحاشي إنجاب الأطفال، ولا تعني الإباحية الجنسية* (وإذا أردت استخدام مصطلحي، لقلت إن الحرية في الحب لا تعني الوصول إلى الفردوس الأرضي). ونلاحظ أن لينين لم يُساوِ بين الحبِّ والجنس، كما يفعل بعض المفكرين النفعيين؛ كما لم يساوِ بين الحب واللذَّة، كما يفعل بعض الثوريين (فالمشاكل موجودة والأطفال موجودين، باعتبارهم الامتداد التاريخي للفعل الفردي). إن الحب عند لينين ليس جدلًا مُغلقًا لأنه ظاهرةٌ اجتماعيةٌ، وكل ظاهرةٍ اجتماعيةٍ إنسانيةٍ هي في صميمها جدل مفتوحٌ لا نهاية له. ويواصل لينين تعريف الحرية في الحبِّ بأنها: *التحرُّر من التعصُّب، ومن الضرورات المادية الملحَّة، ومن البيئة القميئة التافهة، ومن متاعب البوليس والقانون*؛ أي توسيع رُقعة الحرية الشخصية دون تخطي الحدود الاجتماعية والتاريخية. وحينما كتبت له السيدة إنسّا أرمان قائلةً *إن العاطفة العابرة والارتباط المؤقَّت* (الفردوسيين)، *أكثر شاعريَّةً وأكثر صفاءً من القُبَل الخالية من العاطفة التي يتبادلها الزوج وزوجته*؛ رفض لينين هذا الطَّرح الذي يفترض التَّعارُض الفجَّ بين شيئين مختلفين، ورأى التَّعارض في *«زواجٍ بورجوازي صغيرٍ، خالٍ من الحبِّ ولا نقاء فيه»* من جهةٍ، و*«زواجٍ بروليتاري مُفعَمٍ بالحبِّ»* من جهةٍ أخرى؛ أي إن لينين جعل من الزواج والأسرة مدخلًا لـ«مفهوم الحب». وهو بهذا قد بيَّن الطريق لكثيرٍ من الثوريين؛ فالنظر للفرد من خلال علاقاته الاجتماعية (لا كوحدةٍ إنتاجيَّةٍ أو إنسانٍ مستقل)؛ هو جوهر أيِّ نظرةٍ إنسانيةٍ ثوريةٍ تضع الإنسان في سياقه. لم يُنكِر لينين أهمية الحب كنشاطٍ فرديٍّ، لكنه وضعه في مكانه الحقيقي كجزءٍ من نشاطٍ اجتماعيٍّ إنسانيٍّ أوسع. ففي نهاية أحد الخطابين، المشار إليهما؛ يضيف لينين أن *الارتباط والعاطفة العابرين قد يكونان مُدنَّسيْن أو طاهرين، فالحبُّ العابر ليس طاهرًا بالضرورة* (تمامًا مثل الزواج)، *والقضية ليست تفضيل الحب على الزواج أو الزواج على الحب، وهما بنيتان مترابطتان؛ بل كيف تكون علاقة الذَّكر بالأنثى علاقة بين فردين سَويَّين، يتعاونان في حرِّيَّةٍ على الوصول إلى السعادة، بترجمة إمكانياتهما الحقيقية إلى واقعٍ حيٍّ.*

ثالثًا؛ النِّهاية المأساويَّة الملهاويَّة

من كل ما تقدَّم نخلُص أنه ثمة تيَّارٌ بورجوازيٌّ قويٌّ يسري في كتابات حركة تحرير المرأة، رغم ثوريَّتها المعلنة؛ بل إن حجر الزاوية في معظم تلك الكتابات هو المفهوم البورجوازي للطبيعة البشرية. فالنظام الرأسمالي قد حوَّل كل الأشياء إلى سلعٍ بما في ذلك الإنسان، فالإنسان هو الآخر سلعةٌ تُباع وتُشترى في الأسواق؛ حسب قوانين العرض والطَّلب المطلقة. ومن هنا ظهر مفهوم روسو عن «الإنسان الطبيعي»، الذي يسير في الغابة وهو يُصفِّر بسعادةٍ شديدةٍ وواضحةٍ، ثم يقرِّر فجأةً أنه من المستحسن إبرام عقدٍ بينه وبين الآخرين، لتكوين ما يُسمَّى بالدَّولة.

إن مفهوم الإنسان الطبيعي «الحر»، حسب روسو؛ الذي لا يربطه بالأرض سوى عقدٍ اجتماعيٍّ ممهور بتوقيعه (تمامًا مثل العامل في المجتمع الرأسمالي، الذي لا تربطه أي علاقةٍ بعملية الإنتاج سوى عقد عمله)؛ هو النموذج الإنساني الكامن وراء فكر كثيرٍ من السيدات المتحرِّرات الأمريكيات، خصوصًا في مسألة الزواج. فالزواج في جوهره علاقةٌ إنسانيةٌ بحتة، فيها الجانب الاقتصادي وفيها الجانب العاطفي. وهي علاقةٌ بين ذاتٍ واعيةٍ وذاتٍ أخرى واعيةٍ، وليست علاقةً بين ذاتٍ وموضوعٍ، أو ما هو أسوأ: علاقةً بين موضوعٍ وموضوعٍ، أو بين شيءٍ وشيءٍ. لذلك، فتصوُّر الزَّواج باعتباره مجرد عقد مُبرمٍ بين شخصين، هو تبسيطٌ سُوقيٌّ يَدُلُّ على احتقارٍ شديدٍ للنَّفس الإنسانية أو عدم فهمٍ لها. نعم؛ لا بد من عقدٍ ما، كما هو الحال الآن؛ فالصِّراع طبيعة الحياة، والمأساة مثل الملهاة؛ إمكانية حقيقية في أيِّ موقفٍ إنسانيٍّ مُتكامل. لكن العقد الذي يُبرَم، سواءٌ كان دينيًّا أم عُرفيًّا؛ يغطي البداية السعيدة والنهاية التي هي أبغض الحلال عند الله، أما العلاقة بين الزوجين فهي متروكةٌ لهما يُنظِّماها كيفما شاءا. قد يتدخَّل المجتمع من آونةٍ لأخرى في هذه العلاقة، وهو حتمًا يؤثِّر فيها ويشكِّلها، لكنها في النهاية تظل علاقةً مُركَّبةً بين فردين. ويحاول بعض مُحرري المرأة إلغاء مؤسسة الزواج كليةً، لأن السعادة العابرة التي تربط المحبين أقوى من عقد الزواج. وهذا منطقيٌّ من بعض الوجوه؛ فالعلاقة بين أيِّ رجل وامرأةٍ لا

بد أن تستند إلى رغبةٍ ما، فإذا ماتت الرغبة أو ضَمُرَت، فعقد الزَّواج لن يُبقيها بأيَّة حال (إلا في القليل النَّادر). **إنَّ مُعظم النَّاس لا يعتبرون عقد الزَّواج هو الصِّلة بين الزوجين، وإنما هو الشَّكل القانوني المجرَّد لعلاقةٍ إنسانية موجودةٍ بالفعل. إن ورقة الزَّواج لا تدَّعي لنفسها أكثر ما تستحقُّ.**

والطريف أن حركة تحرير المرأة تُنادي بشيءٍ ثم تنتهي بنقيضه (الرغبة في الفردوس الأرضي تؤدي عادةً للجحيم!)؛ فزُعماء الحركة ينادون بإلغاء عقد الزَّواج التقليدي، لتحقيق أكبر قسطٍ من الحرية، وفي الوقت ذاته يُدافعون عمَّا يمكن تسميته بـ«عقد الزَّواج الشامل». وهو عقدٌ يشبه، من بعض الوجوه؛ عقد استئجار شقَّةٍ أو شراء أرضٍ. إن مثل تلك العقود تحاول الوصول إلى الشمول، وتغطية جميع الجوانب القانونية، وكل الاحتمالات المنطقية والرياضية. وقد وُصِف العقد بأنه ليس مجرد وثيقةٍ قانونيَّةٍ، بل هو طريقةٌ جديدةٌ للحياة، أو كما تقول إحدى رموز حركة تحرير المرأة: *«إن العقد هو وسيلتنا لمواجهة ألفي سنةٍ من التقاليد»* (ألفي سنة من التاريخ أيضًا). وهم محقُّون، ففكرة العقد الشَّامل تفترض رؤيةً كاملةً للطَّبيعة البشريَّة لا تغطي البداية والنهاية فحسب، بل تشمل جميع جوانب الحياة الزَّوجية؛ من غسيل الصحون إلى الاعتناء بالأطفال (ولاحظ أن الثَّورية الفوضوية التي تُحاول إلغاء كل الحدود بدعوى الحريَّة المطلقة، هي ثوريَّةٌ شموليَّةٌ تسقط في الجماعية وتُنكر الحريَّة الإنسانيَّة الفرديَّة. فالعقد هو عملية برمجةٍ كاملةٍ لحياة الإنسان، أما الشَّكل التقليدي للزَّواج؛ فهو يحترم خصوصية العلاقة بين الزوج وزوجته، ويتركها لتصرُّفهما، فهي مجال حريتهما الفرديَّة).

وترجع جذور فكرة العقد الشَّامل إلى القرن التَّاسع عشر، والمفكر الإنجليزي الثوري بول جودوين؛ الذي تزوَّج من المفكِّرة الثورية، المطالِبة بتحرُر المرأة؛ ماري ولستونكرافت. ولنتأمل ذلك الزَّواج الذي يحرِّر الإنسان من كل القيود والأعباء. استأجر جودوين شقَّةً على بُعد عشرين منزلًا من إقامة زوجته، لكنه كان يزورها كل صباحٍ. وقد وصف جودوين علاقتهما في خطابٍ قال فيه: *«وحتى لا تبدو هذه العلاقة مثل تلك العلاقة البذيئة الوضيعة المسمَّاة بالزَّواج؛ أقام الزوجان في منزلين*

منفصلين، على ألا يزور الزوج زوجته إلا كما يزور الرَّجل عشيقته؛ فيكون كل منهما مرتديًا أبهى ملابسه وحجرات المنزل مُعدَّةٌ لاستقباله. وقد وافق الزَّوجان على أنه من الخطأ وجود الزوج والزوجة معًا في المجتمعاتِ المختلطةِ للذكور والإناث، لذلك فهما يبحثان عن أيِّ فرصةٍ لخرق هذه القاعدة». وهو افتراض بأن علاقة الزوج بزوجته علاقةٌ بسيطةٌ للغاية، يمكن التَّحكُّم فيها عن طريق العقد. ولنتخيل ذلك الزوج، الذي عليه زيارة زوجته كل صباحٍ؛ حين يستيقظ وقد ألمَّ به زكامٌ خفيفٌ والسماء تبرق وترعد؛ هل سيعود إلى فراشه الدَّافئ أم سيُصارع العناصر الطبيعية حتى يصل لزوجته، لأنه إذا لم يذهب لماتت من فرط قلقها عليه، أو لفسخت العقد حتى لا تموت! هنا سيتوكأ بطلنا الثوري المزكوم على عصاه، ويذهب طالبًا من زوجته تغيير العقد حتى يزورها في أسبوع وتزوره هي في الأسبوع التالي. لكن ذلك لن يغير من الموقف شيئًا؛ لأنها قد تُصاب بآلام روماتيزمية خفيفة (أو حادَّة) في أوقات أعمالها الزوجيَّة الرسميَّة!

والمسألة أعمق من زيارةٍ تتمُّ في الشتاء؛ فنحن لا نرتدي أبهى ملابسنا إلا حينما نذهب إلى طبيب الأسنان الكريه، أو إلى مدير شئون العاملين المقيت. أما حين نزور صديق حميم، فنحن نذهب بذاتنا الحقيقية، بكل آلامها وأفراحها؛ فعلاقتنا بأصدقائنا هي علاقةٌ في السرَّاء والضرَّاء، لا يحكمها عقدٌ أبلهٌ، وإنما تحكمها احتياجاتنا الإنسانية واعتباراتٌ نفسيَّةٌ عديدةٌ. لذلك؛ فزوجتي تحتمل رذالتي ومطالبي العديدة في يومٍ، وترفضها في يومٍ آخر. تتحمَّلني يوم احتياجي لها، وترد الصاع صاعين في أيام قوتي. وأنا أتقبل لا عقلانيتها في يومٍ وأرفضها في يومٍ آخر. وبذا تكون الحياة الزوجية أمرًا خلاقًا وليست علاقة عمل روتينية. إن جودوين رغم كل ثوريته، وراديكاليته ومُناصرته للضعفاء والفقراء؛ هو في النهاية ضحية تبسيطاته البورجوازية الفردوسية السوقية، فهو لا يُدرك إلا الإنسان الطبيعي «الوحيد»، والذي يعيش في الفردوس الدَّائم (لذا فهو لا يزور زوجته بل عشيقته). إنه الإنسان المنفصل الذي يقف وحيدًا في مُجابهة الآخرين من الأغيار، راجيًا الله أن يكفيه شرَّهم.

ولأن الفكرة غريبةٌ علينا تمامًا لا بسبب تُراثنا العربي فحسب، وإنما لأنها مُنافيةٌ لكل ما نعرفه عن الزَّواج في كل الحضارات؛ رأيت أنه من المفيد ترجمة مقتطفات مُطوَّلة من عقد المستر شولمان وزوجته، وهو عقدٌ نموذجيٌّ قلده الكثيرون. يبدأ العقد، مثل إعلان حقوق الإنسان؛ بتأكيد بعض المبادئ النظرية:

١- نرفض فكرة كون العمل الذي يأتي بالرِّبح الأكثر، هو العمل الأكبر قيمة.

٢- نؤمن بالحق الكامل لكل عضو في الأسرة في وقته وعمله وقيَمه واختياراته، وإن أرادت هي (أو هو) إنفاق ذلك الوقت في كسب المال، فهذا من حقِّه، وإن لم يُرِد فهذا أيضًا من حقِّه.

٣- نؤمن كآباء بوجوب اقتسامنا مسئولية الاعتناء بالأطفال والمنزل. ليس العمل فحسب، بل المسئولية.

٤- مبدئيًا، يجب تقسيم الأعمال المنزلية إلى نصفين متساويين، لكن يمكن عقد صفقاتٍ بالاتِّفاق الثُّنائي، وأي خرق للتَّقسيم النِّصفي يجب أن يناسب الطرفين، ويكون جدول العمل مرنًا. وفي الوقت الحاضر، يجب أن يُوافق الطرفان على كل التغييرات بشكل رسميٍّ. إن شروط هذا العقد حقوقٌ وواجباتٌ، وليست امتيازاتٍ وهباتٍ.

الأعمال المنزلية: الطبخ؛ كل مَن يدعو ضيوفًا يقوم هو نفسه بشراء الطعام، والطبخ، وغسل الأطباق (ماذا لو كان لهم أصدقاء مشتركين؟ هل نُسقِط العقد ونتعايش، أم نكتب عقدًا جديدًا؟).

الغسيل: تغسل الزوجة الغسيل، ويجمع الزَّوج الملابس المتَّسخة. هي تضع الملاءات على السرير، وهو ينظِّم السرير (الصورة المرفقة بالعقد تُظهر مستر ومسز شولمان يُنظِّمان السرير سويًا، فكيف حدث ذلك؟ التفسير يسير؛ لم يتمكن المستر شولمان بمفرده من القيام بالعمليَّة، واضطر للدوران حول السرير عدَّة مراتٍ حتى انقطع نَفَسُه؛ لأنها عمليَّةٌ تستلزم التضامُن الإنساني. فنادى على المسز شولمان وطلب منها المساعدة، ففعلت ولم تستشر العقد المبرَم بينهما؛ لأنها بشرٌ وليست محاميًا).

تقسيم الأعمال: إيقاظ الأطفال في الصباح، إخراج الملابس والكتب والواجبات والنقود واشتراك الحافلة، وتمشيط شعورهم، وإطعامهم، وعمل القهوة لنا؛ يتناوب الأبوان القيام بهذه الواجبات كل أسبوع.

الشراء: تقوم الزَّوجة بوجهٍ عام بشراء الطَّعام، أما الزوج فيقوم بشراء الأشياء الخاصة (فماذا إن قرَّر الزوج أن يأكل كافيارًا؛ هل هذا طعامٌ، أم شيءٌ خاصٌّ؟ فلنستشير المحامي على الفور!) الزوج معفى من العمل يوم السبت، والزوجة يوم الأحد (ومَن سأقابل يوم السبت إن كنت هذا الزوج؛ عشيقتي أم مدير أعمالي؟).

وحتى يَعُمَّ السلام بين الجميع، رأى مستر شولمان وزوجته أن يُبرِم طفليهما عقدًا تكميليًّا.

عقد تكميلي مُبرَم بين الأطفال:

تُعِدُّ بولي (ابنتهما) المائدة، أما تِدي (ابنهما) فيرفع الأطباق بعد الطعام. ويمكن للأطفال تبادُل الأعمال الموكَلة لهم (كما يفعل الأبوان، وهذه الوحدة الإنتاجية من تلك الوحدة الإنتاجية، فهم ليسوا بالأشبال ولا بالأسود!).

بالنسبة للأطفال: في العطلة الأسبوعية تُقسَّم بالتساوي كل الأعمال الخاصة (بالبلاج وبالحديقة العامة وبحديقة الحيوان).

والآن بعد أن أُبرِمَ العقد؛ فلترفرف السعادة الزوجية على الجميع، ولِتَفِضْ على الوحدة المذكرة التي يسميها العوام بالزوج، والمتعاونة مع الوحدة المؤنثة المسماة بالزوجة. لكن هل نظم العقد فعلًا كل العلاقات؟ ماذا لو حدث للرجل تضخُّمٌ شديدٌ في ذاته؟ هل يُفَضُّ العقد فورًا، أم تنتظر الزوجة حتى يزول الكرب؟ وماذا لو أن الرجل الذي تزوَّج على هذه الطريقة الليبرالية، أصبح ماركسيًّا أو رجعيًّا بعد الزواج؛ ورفض المبادئ النظرية المتفق عليها؟ وماذا عن المواقف الزوجية اليومية المركَّبة؟ ماذا لو ألقيتُ بطبق الفول العتيد، أو حتى كوب اللبن الرقيق؛ في وجه زوجتي التي تعاقدت معها؟ وماذا، وهي الطَّامة الكبرى من وجهة نظري؛

لو فَعَلَت هي ذلك أمام الرأي العام العالمي من أصدقاء أو طالبات أو أقارب أو حُسَّاد؟ هل أذهب ساعتها لأستشير العقد والأساس النظري بكل هدوءٍ، أم أقرِّر على الفور الثأر لكرامتي وشرفي الضائع؛ وأقتُل زوجتي أمام الملأ حتى يرتدع الآخرون؟ أم أنتظر ربما تَدَخُّل أولاد الحلال ليصلحوا ما بيننا؟ أم أتمالك نفسي وأتذكَّر أن زوجتي لم تتمكن من النوم ليلة أمس بسبب الرطوبة والحرِّ والكلب اللعين روي الذي لا يكفُّ عن النباح؟ وأتذكر أيضًا الأنباء الحزينة التي سمعتها زوجتي هذا الصَّباح، وأتذكَّر أني جرحت شعورها أمام طنط فلانة التي لا تُطيقها زوجتي؛ عند هذا قد أعدل عن تنفيذ حكم الإعدام، وأزيل الفول واللبن، وأتمتم على الطريقة المصرية أو العالمية: «حصل خير»، أو ما شابه.

إن العقد لا يسمح بمثل هذا التكيُّف ولا بمثل هذا الارتفاع والانخفاض (أو التذبذب التاريخي الجدلي)؛ فهو نتاج عقليَّةٍ بورجوازيَّةٍ فردوسيَّةٍ دائريَّةٍ لا تقبل الجدل كحقيقةٍ أساسيَّةٍ. إن كل ما تملكه في الإطار الثوري المقترح هو فضّ العقد في عقلانيَّةٍ شديدةٍ؛ أي إن الفردوس يقودك في خطٍّ مستقيمٍ إلى الجحيم. وتُوجَد الآن في كاليفورنيا محاكم تُسهِّل الأمور، وما على الزوجين الراغبين في فض العقد -الطلاق سابقًا- سوى كتابة اتفاقهما وإرساله بالبريد، وسيتسلمون ورقة الطلاق بالبريد أيضًا (تُوجَد الآن مكاتب مختلفة تُيسِّر ذلك الأمر؛ حتى يمكنك هدم حياتك الزوجية في أقل وقتٍ ممكن، وبأقل التَّكاليف)؛ إن واقعنا الأرضي يمكنه التحوُّل إلى ما يشبه المعمل (أو الدائرة) في بساطة علاقاته وميكانيكيتها. لكن المعمل الإنساني هو جهنَّم وليس الفردوس، فهذه هي طبيعة وجودنا الأرضي؛ إذ يبدو أن كل مَن يُحاول تشييد الفردوس الأرضي وتحطيم الحدود التاريخية، يُحطِّم هويَّتنا وفرديتنا. وهذا ما حدث لحركة تحرير المرأة (ولحركات بورجوازية فردوسية أخرى) في تأرجحها من الرفض الكامل لفكرة التَّعاقُد بين الرَّجل والمرأة، إلى تبنِّي تعاقُد شامل يُكبِّلها ويحرمها من استخدام عقلها ووجدانها.

إن العقد مثل الكمبيوتر؛ يُعطيك إجاباتٍ مُبتسرةً لا يمكنها تغطية جميع جوانب الحياة المركَّبة. وإذا كان العقل الإلكتروني قد ضلل الأمريكان بالإجابات الخاطئة في حرب فيتنام، فإن العقد الميكانيكي سيُضلِّلُهم هو الآخر؛ لأن المطلوب إصلاح نوعية الحياة نفسها، والبحث عن الخلاص والحياة الجديدة من خلال الحدود المتعينة.

كلمةٌ ختاميَّةٌ

التَّاريخ والفردَوس في القلب

في المرَّة الأولى ذهبت إلى الولايات المتَّحدة مع زوجتي. وحين عُدنا عام ١٩٦٩م، مع ابنتنا؛ كانت أمي تنتظرني في الميناء، ومعها إخوتي وأخوات زوجتي وأبناء عمومتي. أما أبي فكان غائبًا لأن الله قد توفَّاه؛ فزُرت قبره في دمنهور وقرأت على روحه الفاتحة، علَّ الله يُسكنه فسيح جناته.

وفي المرة الثانية ذهبت بمفردي، وعند عودتي كانت زوجتي وطفلانا وأخواتها ينتظرونني في المطار، وليلتها عُدنا للمنزل وشرِبنا الشاي ولم أنم، فكانت هذه إحدى المرَّات النَّادرة في حياتي التي سمعت فيه صوت المؤذِّن عند الفجر.

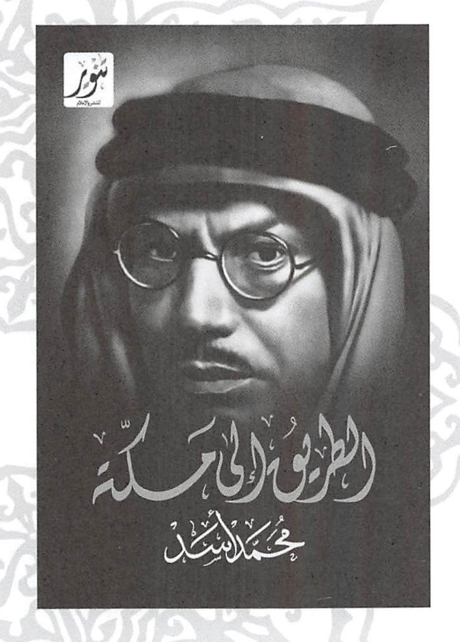
الطريق إلى مكة

قريباً

سيرة عقل يبحث عن الإيمان

هذه بعض فصول سيرة رحالة يهودي أوروبي من أصل نمسوي. جاب العالم العربي والإسلامي في مطلع القرن العشرين بحثًا عن الذات، أو بحثًا عن الله. فقد وجد الله حين وجد ذاته. حين وجد ذاته الفطريّة الأصليّة، وليست تلك التي اكتسبها بالتنشئة.

إن هذا الكتاب ليس سردًا لوقائع رحلة حج إلى البيت الحرام، ولا حتى تأمُّلاً في رمزيّتها وروحانيتها وفلسفتها، بل هي بعض معالم رحلة البحث التي قطعها ليوبولد فايس ليصل إلى الله، أو ليصل إلى محمد أسد؛ سيّان. إذ أن ليوبولد فايس قد صار محمد أسد حين عبّد نفسه لله مُختارًا، عن وعي وإدراك وإرادة.



إن الطريق إلى مكّة رمزٌ للرحلة الشاقة التي قطعها الكاتب من اليهودية إلى الإسلام، ومن ليوبولد فايس إلى محمد أسد، ومن أوروبا إلى مكة. إنها وقائع رحلة عودة قلبٍ إلى حقيقة فطرته، رحلة انسلخ فيها فايس رويدًا رويدًا من كل موروثه الحضاري والثقافي، ليُقبل على عالم جديد، ويكتشفه بلا مُعطياتٍ مُسبقةٍ تشوّش عليه.

وبرغم أن أسد قد نشر كتابه هذا في مطلع خمسينات القرن العشرين، باللغة الإنكليزية؛ موجهًا بالأصل للقاريء الغربي، إلا أن الكتاب قد صار برغم ذلك أحد أهم كلاسيكيات القرن العشرين، فهو عملٌ لا تبلى جدّته، ولا تُملُّ قراءته.

إن أحوج الناس لقراءة هذا الكتاب اليوم هم الجمهور الذين لم يستهدفهم أسد: جماهير العرب والمسلمين. وفي طيات الكتاب يكمُن ما يكفي من الأسباب، التي يلزمك تلمُّسها بنفسك قارئنا العزيز.